مكتبة

ممدوح عزام

رواية

حبر الغراب

شارد

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

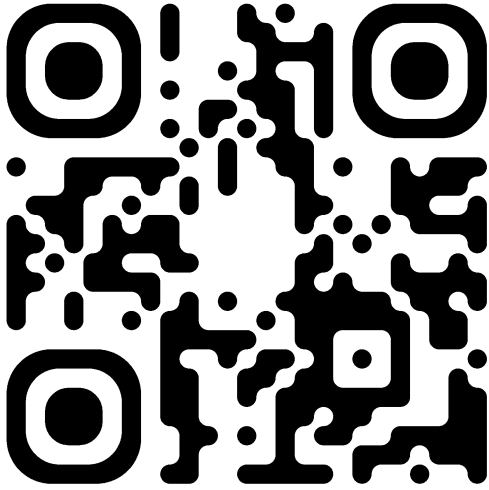

telegram @soramnqraa

حبر الغراب

حبر الغراب - رواية
تأليف: ممدوح عزّام

تصميم الغلاف: تمّام عزّام
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 30 - 6
الطبعة الأولى: 2021

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

ممدوح عزّام

حبر الغراب

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحقيقة بيضاء فاكتب عليها
بحبر الغراب
الحقيقة سوداء فاكتب عليها
بضوء السراب!

- محمود درويش

يبقى الكتاب حيّاً عبر التوصية المُحبّة التي يقدّمها قارئ إلى آخر.

- هنري ميلر

1

مكتبة
t.me/soramnqraa

أعرف ذلك الصوت الذي يناديني في الشارع، ولكنّي لا أرغب في الردّ عليه، ولا الالتفات ناحيته، وأردِّد في نفسي: «اللعنة عليك!». كما لو كنت أطرد رصَداً أو جنّيّة أو مخلوقاً شيطانياً خفيّاً مخرّباً. إذ يبدو أن السنوات العشر (هل كانت عشر سنوات أم أكثر؟) التي مضت على آخر لقاءٍ بيننا، نحن الصديقين منذ أيام الصبا، لم تترك أيّ أثرٍ على أوتاره أو نبراته أو طبقاته، وبفضل تلك الخصائص الدائمة، كان قادراً على ملء الشارع بذلك الصوت المتطرف الغليظ الذي سوف تلاحقك موجته في كلّ مكان. وبينما كنت أفكّر في استغلال كبر السن كي أستعين بالذريعة الشهيرة عن ثقل السمع، أدركت أنه لم يكن بوسعي الهرب، فقد التفت نحوي كلّ مَن في الشارع، وكان من بينهم أشخاص يعرفونني، وقال لي أحدهم إن شخصاً يناديني. أعرف. إنه لقمان لقمان، كنت أريد أن أقول لهم، وهو صديقي الذي لم يعد صديقي منذ سنوات بعيدة.

لم أرَه طوال ذلك الوقت. أيْ من تلك الأشهر التي تلت دمار المكتبة، واختفاءها. لا أزال أذكر آخر تلك المرّات حين التقينا في غرفة التحقيق أمام الملازم عصام الديدي: أبدى لقمان لا مبالاةً بكلّ شيء. لا توجد مكتبة، قال في البداية للملازم، إنها مجرّد مجموعة صغيرة من الكتيّبات

التي تحكي عن الطبخ والنفخ وأشغال الورق وصناعة المربّى. يا لقمان؟! خاطبتُه مستنكراً أن يطفئ الرجل رماد السجائر التي قدّمها له عصام الديدي في التاريخ الحقيقي الذي بنينا به المكتبة. غير أنه لم يلتفت نحوي. ظلَّ ينظر ناحية الملازم، وهو يضع رجلاً فوق أخرى، أو يطلّ أحياناً على الدفتر الأبيض الكبير الحجم، الذي يسمّى «دفتر الضبوط»، كي يرى ماذا يُكتب هناك. لم يكن يرى بالطبع، ولكنها واحدة من الحركات المريبة التي أتقن لقمان القيام بها حين يرغب في تجاهل من يخاطبه.

سأله الملازم: «ومن قتل فارس برأيك؟». جواب: «فارس انتحر».

كلا الأمرين: نهبُ المكتبة، ومقتل فارس أبو لوز المشرف عليها، ضيّعهما لقمان بشخطة قلم. بلَيّ اللسان. بطقّ الحنك. رأيت الدركي الصغير السن يتمهّل قليلاً قبل أن يسجّل أقواله في الدفتر. ينظر إلى رئيسه كما لو كان هو الذي سيصادق على الشهادة، أو يلغيها. لكن الملازم تجاهل ذلك. تحصّن وراء غيمة من الدخان الأبيض الذي نفثه من السيجارة، وأمعن في تأمل السماء من النافذة. وفي تلك اللحظات أُنجزَ وضع النقاط على الحروف التي شهد بها لقمان لقمان.

وقفت بجانب أحد المحلّات، رأيته قادماً نحوي دون صوته. كان بلا ملامح أيضاً، ولكنّه قال: «هل تسمح وتسلّم عليّ؟!». كانت يده عجراء يابسة مثل عود شجرة، ولم يكن فيها غير البرودة التي يمكن لجلد أفعى أن يتركه في مشاعرك. رغبت في ضربه، وأنا قادر على ذلك، ولكن لم يكن ممكناً أو محتملاً أن أفعل ذلك. كانت السنوات العشر التي مضت، قد أغرقت جسده الناحل في ثيابه المهلهلة. من الواضح أنه كان يرتدي قميصاً مستعملاً أعطاه إيّاه أحدٌ ما. فعنقه تكاد لا تظهر داخل الياقة الواسعة التي اتسخت حافتها كلّها، بينما كان البنطلون يخفي طرفيه الأسفلين داخل اتساعه.

وبحسب مشاعر البغضاء التي أكنّها له، فإن المنطق يقول إن عليّ أن أودّعه هنا، وأكتفي بهذه المصافحة الهشّة التي أوصلت له رسالتي في الجفاء. غير أنني في أعماقي كنت راغباً في أن أسأله ذلك السؤال المرير الذي ظلَّ يشغلني طوال السنوات الماضية. فقبلت دعوته إلى خمّارة حنّا (أعرف أنه كان هناك، فرائحة العرق تفوح منه) بشرط، «وشو الشرط؟!». «أسألك وتجيب بصدق!». «موافق». ورفضت ضيافته في الداخل. وفي تلك العتمة الفقيرة التي تسكن في الخمّارة سألته: «قول لي، بربّك، بس شو كان ثمن شهادة الزور يلّي قدّمتها للشرطة؟»، أجاب: «بتصدّق إذا قلتلّك؟!». طوال السنوات التي كنا فيها صديقين لم يكذب لقمان. ما كان يحتاج إلى الكذب قطّ، فمكانتُه في العائلة، ووضعه الاجتماعي في البلدة، كانت تضعه فوق لحظات الكذب أو الرياء التي قد يحتاجها أولئك الجبناء المنافقون، أو أولئك الذين يقبعون في أدنى السلالم. كان يأمر أتباعه من آل لقمان فيرضخون أو يقبلون فقط، دون أن يحتاج إلى لفلفة الكلام. هذا هو مستوى الصدق الاجتماعي، بينما لم ألاحظ مرة واحدة في حياتنا المشتركة أنه كذب عليّ، لهذا قلت له: «إي»، ثم أضفت: «بصدّق لقمان يلّي بعرفه». قال: «طيّب. رح يوجعك الصدق بس!». انتظر بضع ثوان ثقيلة مُرّة بدت مثل دهر، ثم قال وهو يرفع كأسه: «الثمن كان بطحة عرق!».

كنت أعلم أن موارده تضاءلت، غير أنني لم أكن أعلم أنه، حين كانت التحقيقات تجري بشأن مقتل فارس أبو لوز، كان قد وصل إلى قاع فقره. ففي السنة الأخيرة من العام الذي سبق نهب المكتبة، ومقتل فارس، لم تكن صداقتنا حيّة. كنا نتعمّد ألّا نلتقي كي نتحاشى تحطيم الودّ. كان لقمان يرى أن فضائل الزعيم العشائري، أكثر أهمية من مكاسب المصلح القادر على رأب تصدّعات العائلات التي تتقاتل من أجل بيضة، أو بسبب صرصور

يعبر حقلاً دون إذن. لم يتحدّث أحدٌ عن أنه باع آخر ما يملك من أرض من أجل أن ينام بين نهدي عاهرة في دمشق. ولكن حتى لو قالوا لي ذلك، لم يكن من طبائعي أن أتدخّل في شؤونه الشخصية. دون أن أعلم أن «شؤونه الشخصية» كانت قد أضحت تقريراً على مكتب المباحث، أو المخابرات التي ورثت أعمالها الوثائقية، واستخدمتها من أجل شرائه.

«بطحة عرق؟!». قلت له دون أن أنتظر أيّ جواب، فلا ردّ يمكن أن يصحّح نقيصة من هذا الوزن الثقيل. شعرت أني لم أعد أطيق هذا القعود المختلّ، أوجعني (كما قال) حتى العظم. وسألته ما الذي يريده مني، فقال إنه لا يريد شيئاً. وحين استأذنت كي أنصرف، أمسك معصمي وقال: «فيك تنسى؟!».

صعب النسيان يا لقمان! فهذا الوغد الخالي من أيّ شرف باع مجد بلدة، وكذب على نفسه وعلى تقرير الشرطة، وكان الثمن بطحة عرق، هذا ما يقوله اليوم. وليست المشكلة في أن أنسى شهادة الزور، بل في أن أنسى أنني موجود هنا بسبب تلك الشهادة. أن أنسى أنها كانت ذريعة لتحويل الحياة الشخصية إلى كابوس. أرسل عصام الديدي الرسالة لي بواسطة لقمان نفسه. لا وجود لشيء اسمه مكتبة، لا في الواقع ولا في الخيال، لا وجود لجريمة قتل، وقد انتهى أمر موت فارس إلى أنه انتحار بطلقة من مسدس غير مرخّص. وفي اليوم التالي اقتحم رجاله البيت، لا أعرف كم من الدرك الذين بدؤوا يفتشون البيت بحثاً عن أوراق. نبشوا الأثاث كلّه، وقلبوا الكراسي والأرائك، وانتزعوا القطن والصوف من كل فراش أو لحاف مرَّ أمام أعينهم. باتت مكتبتي منشورة في أرضية الغرفة، وقد مُزّقت أغلفتها وأُخذت الورقة الداخلية من كل كتاب. لم يكن في بيتي أيّ كتاب من المكتبة، إذ كان فيصل في تلك السنة قد انتقل، بتشجيع من

فارس، للقراءة في المكتبة نفسها. ولم يعد داخلاً في سجلّات الاستعارة. هل يمكن أن أنسى؟!

نصف أهالي البلدة كانوا يقفون أو يجلسون بعيداً للفرجة على حرفة الملازم، لا أعرف لماذا بحثت عن لقمان، عن صديقي القديم، ورفيقي، وشريكي في بناء المكتبة. لم أجده هناك، لم يأتِ ليتفرّج، ولم يأتِ للمؤازرة. وفي ذلك اليوم أدركت أننا صرنا في شاطئين، أنا هنا، ولقمان والسماقيات كلّها هناك.

حين صرت في الباب لحق بي، سار بجانبي دون أن يتكلّم، إلى أن صرنا في ساحة السرايا. عندئذٍ، أمسك يدي ودسَّ فيها ورقة، وأطبق أصابعي عليها، وقال هامساً: «يمكن تساعدك ع التذكّر!».

2

كانت الورقة تضمّ أسماء سبعة أشخاص، ولأنني أعرف لقمان فقد أدركت أنها جزء من المحاولة الجديدة للتكفير عن الذنب. جلست على السور الحجري الذي يحيط بتمثال الثورة السورية أقرأ الورقة مرّةً ثانية (كان من الواضح أن لقمان كتبها منذ وقت بعيد «هل كان ينتظر أن يراني؟ وكم قدحاً من العرق شرب هنا في انتظار مروري العابر؟»)، فقد بدت الأسماء التي صادف وجودها في طيّاتها الداخلية باهتة، تكاد تُمحى، وزالت بعض النقاط عنها أيضاً، تلك النقاط التي ظلَّ لقمان منذ أيام المدرسة يرسمها كدوائر صغيرة مطموسة). ثمة خلل فادح. إذ لا أعرف ماذا يفعل هؤلاء الأشخاص هنا؟ خلطة عشوائية من الأسماء التي يريد لقمان أن يربكني بها. لكن لماذا؟ عن أيّ أمر تتحدّث يا لقمان؟ عن جريمة القتل؟ جريمة قتل فارس أبو لوز، أم جريمة نهب المكتبة؟ أتعطيني لائحة أسماء دون بطحة عرق، بينما أخفيت هناك مئات الأسماء مقابل بطحة عرق؟!

أحاول أن أجري تسوية أخلاقية أو سلوكية بين أفراد المجموعة، ولكن بلا جدوى. أحسست أن عينين مختبئتين خلف حاجزٍ ما تحدّقان بي، لكنّي أنكر هذا الإحساس، فهو يخامرني في الغالب، حتى صرت أعتقد أنه مجرّد وهمٍ يشتبك بمساري الحياتي للتخريب. هذه المرّة كنت متأكّداً

من أن لقمان يلاحقني. ومن الصعب أن يراه أحدٌ يدخل البيت بصحبتي: «هذا عمّكم لقمان يا أولاد!». لم أكن مستعدّاً البتّة لاستقباله في بيتي، فقد صنعت منه غربالاً للقذارة والأوساخ التي حشدتها بلا حساب في شخصه. تركت مكاني، ومضيت في اتجاه مبنى البريد والهاتف، ومن هناك درت حول سينما سرايا باتجاه سوق الكهرباء، ثم إلى ساحة الفخار، وشارع البلاط. وفي كل بضع خطوات، ألتفتُ خلفي كي أتأكّد من أنه لا يلحق بي.

لن يفعل مثل ذلك حتى في حالة السُّكر. أظن أن لديه بعض الكرامة التي تجعله يكتب ورقة فيها أسماء من يعتقد أنهم يعرفون شيئاً ما عن ذلك المساء. يجب أن تكون الورقة في جيبي. أتلمّس الجيب اليمنى فلا أجدها، أشعر بالبرد، فأبحث في جيبي الأخرى، وقبل أن أقنط، وقد صار قنوطي سريعاً، أجد الورقة في جيب القميص. «هذه مسخرة» أحدّث نفسي.

وفي البيت لا أجيب عن أسئلة فضة حين سألتني عن التغيُّر الدميم في ملامح وجهي، صارت تعرف، بفضل العِشرة، أنني أحمل سرّاً بغيضاً في رأسي، بالفحص العيني السريع المتدرّب على شكل جبيني وشفتي وأخاديد خدّي. أظن أن هذه الأجزاء الثلاثة من الوجه لا تستطيع أن تحافظ على طبيعتها في لحظات الغضب أو الارتباك. لكنّي، مثل العادة، أقول لها: «ما في شي!». ثم أدخل إلى غرفة النوم. أستبدل ثيابي، وأخرج إلى الدكّان.

كان فيصل وصلاح هناك، وتركا الدكّان مسرعين حين وصلت. لا يُعرف ما إذا كان أيٌّ منهما يمكن أن يمضي في هذه الطريق الجديدة التي أجبرت العائلة على السير فيها. لن أسمح بذلك ما حييت. في البداية لم يكن لدينا أيّ خيار سوى أن نقبل العرض الذي قدّمه لي صديقي القديم هاني أبو فاضل، فالدار القديمة، التي هجرها هاني إلى بيت جديد بناه

في طريق قنوات، كانت محطّمة تقريباً. ولم يكن لديّ ترف التردد أو الرفض، من جهة، بينما كانت فضة تشدّ على أصابع يدي، من جهة ثانية. أعرف تلك الحركة المعبأة بالرمز المتفق عليه: الإمساك بإصبعين فقط من كفّي والضغط عليهما برفق يعني أن أوافق على العروض المقدّمة في أي موضوع. لم أكن أتردّد. ليس بسبب قناعاتي، بل بفضل يقيني (وهو يقين تسنده تجارب الحاسة السادسة لدى فضة) من قدرتها على معالجة الضائع أو المهدّم في المكان أو الزمان. فهي الوحيدة التي ترى ما وراء أيّ شيء: جدار، حكاية، جملة عابرة. ولذلك فقد استطاعت أن تعرف أن وراء الخراب والأماكن المهدّمة عمارة كاملة، هي البيت الذي نسكن فيه الآن.

كانت الدكّان فكرتها أيضاً، وهي التي رأت هذا المحلّ من البداية، واختارت أن يكون هذا عملي.

أضع فواتير البضائع التي ستلحق بي كي أحسبها، وألاحظ مرة أخرى ورقة لقمان: سبعة أسماء مصفوفةً الواحد بجانب الآخر، بخطّ لقمان الابتدائي ذي الأحرف المعوجة المخصبة بحركات الشكل. لا ينسى الفتحة والضمة والكسرة منذ أن كان المعلّم سمعان يضربنا على أصابعنا بحافة المسطرة إذا نسينا واحدة منها.

وجود تلك الورقة بين يدي، أعاد الحكاية التي كنت قد استطعت أن أهرب منها في السنوات الماضية، فلم يكن الشغل في الدكّان سبباً للعيش فقط، بل وسيلة للنسيان، للتفكير في أشياء أخرى مضادّة للوقت، للانشغال بالحساب على الورق بدل الحساب الذهني على خارطة المكان والمعنى من وراء اختفاء المكتبة، وقتل فارس أبو لوز. ولكنْ، بمجرّد أن صرت وحدي تبيّن لي أن كلّ ما فعلته لم يكن أكثر من رماد، مجرّد سردابٍ مؤقت

مناسب للاختباء لا لفقدان الذاكرة. كانت المكتبة في جبّتي أينما ذهبت، وكان موت فارس حدبةَ ظهري.

غير أن الأمر لن يكون سعيداً بالمرّة، فخروجنا من البلدة، لم يكن بسبب غارة الشرطة، أو رسائل التهديد فقط. بل بسبب نحيب فضة أيضاً، بسبب ذعرها الذي جعلها تتخيّل أن مصيراً ما، كمصير فارس، ينتظرني، أو ينتظر واحداً من الأولاد. وبسبب ضجري من نحيبها الذي يكاد يقتلني أوشكت أن أقول لها إنه قد انتحر. هذا كذب دنيء بالطبع.

شعرت بالعطش، وشربت طاسة ماء كبيرة. كانت أضلاعي تؤلمني من الجلوس على الكرسي، وكانت الشمس تمضي نحو الغرب، وتضيء الدكان بلون شاحب مثقل بالغبار.

3

مكتبة
t.me/soramnqraa

(لا أزال أذكر المكتبة جيداً، ففي تلك الغرفة الصغيرة المطليّة بكلسٍ أبيض سميك مخصّب بالغراء والنيلة، ارتفع أكثر من عشرين رفّاً من الخشب العتيق التي وُضعت فوقها الكتب التي اشتروها للبلدة. في البداية اختاروا الغرفة العلّيّة، أو نصف العلّيّة التي كانت تطلّ على الساحة من جهة الشمال. كان لها نافذة مستطيلة مشبكة بحديد صدئ قديم، وباب خشبي عتيق مهترئ من شتاء الجنوب العاصف. وحين وضعوا صناديق الكتب الكرتونية بداخلها، فاحت من المكان رائحة العفونة المخزّنة بسبب الإغلاق الذي استمرّ منذ أكثر من عشر سنوات. كان الأولاد الذين يكبروننا سنّاً يقولون لنا إنها مغلقة منذ أن هجرتها زهراء بنت سليمان الحسن ورحلت إلى الشام بصحبة الرجل الغريب الذي تزوّجته. كانوا يحكون لنا أنها زرعت الشرفة كلها بالورود، وأن العلّيّة سُمّيت في تلك السنوات البيت الأزرق، لأن كلّ الورود التي تفتّحت هناك كانت زرقاء. غريب! لم يكن خيالنا يستطيع أن يركّب صورة لورود زرقاء. كانت السماء زرقاء والأرض بنّية أو حمراء أو صفراء، ولكن زهراء الحسن تمكّنت من الاستيلاء على تلك الساحة الصغيرة بالزرقة. ولهذا فإننا كنا نواظب على النظر إلى السماء كي نستطيع استعادة جمال الغرفة القديم.

أما في زمن المكتبة فقد طُليت باللون الأبيض، وزُيّنت الشرفة بأُصُص من أسطال السمن مزروعة بالحبق، أذكر أن الحبق الأخضر طغى على المكان كلّه، لا بلونه فقط، بل برائحته الفوّاحة التي تملأ الهواء بعد لحظة من المساس بالورق الأخضر.

من زرع الحبق؟ وهل كان يردّ على زرقة المكان التي خلّفتها زهراء في الذاكرة؟ لا أذكر تماماً، ولكن فارس أبو لوز كان قد أضحى مقيماً في المكان. اصطحبني أبي إلى هناك، وقدّمني له: كان ناحلاً بجلدٍ جافّ أعجر تغطّيه الحراشف كحرذون. وكان طويلاً أيضاً، وربما كانت كفّ يده اليمنى ترتجف قليلاً بعد أن ينتهي من مصافحة أيّ شخص. وقد صنع بنفسه طاولة من الخشب (أظن أنه استعار معظم الأخشاب من الصناديق التي كانت تُحمل بها الخضار والفواكه والمؤن إلى الدكّانين اللتين كانتا في البلدة، بينما وجدت أبي يقول إنها كانت موجودة في الغرفة من قبل)، وغطّى سطحها بقماشٍ أبيض من الخام. كانت لا تزال أخشاب أخرى في أرض الغرفة، وقال لي إنه ينتظر أن يجلب له أبو سعيد المسامير من السويداء. لم يذكر لماذا يحتاج المسامير، وترك لي مساحة للمراقبة والنظر في المكان. كان قد رتّب الكتب على الرفوف الخشبية التي صنعها بنفسه أيضاً، ولم أكن بعد قد أدركت معنى التنظيم في المكتبات قبل أن أبدأ في القراءة، فحين أردت قراءة قصة، قادني من يدي إلى أحد الرفوف وقال: «هذي القصص»، ونصحني أن أقرأ دون أن أسأل. وحين وصلَت المسامير بعد أيام، وجدته يصنع خزانة. لم أفهم لماذا يريد خزانةً لمكانٍ لا وثائق ولا أوراق فيه. قال إن الخزائن ضرورية في المكتبات حتى لو كانت فارغة، قال إنها تمنح المكتبة المعنى الذي تتضمّنه الكتب: الذاكرة والمعرفة والمعلومات والفوائد. لكن الخزانة امتلأت بعد ذلك بالورق، مخطوطات غريبة مكتوبة بخط اليد.

كان فارس يأتي بعد الظهر كل يوم إلى المكتبة، يجلس هناك ويقرأ. وفي أحد الأيام وجدته نائماً، كان محاصَراً هناك في الكابوس كما يُخيَّل لي الآن، فحين أيقظته قال: «شكراً يا ولد. كانوا رح يقوّسوني!». عرفت في ما بعد أن تلك الرؤيا كانت تأتيه دائماً، يرى في نومه ثلة من الرعاع يهجمون على مرج أخضر، وحين يتقدّم لردعهم، وهو يقول لي معلّقاً على خطوته: «ما بعرف ليش!»، يندفعون نحوه بالخناجر، أو بالأسلحة النارية. لم أذكر لأبي أيّ شيء عن حلم فارس إلا بعد خمس أو ست سنوات من مقتله. فرفع حاجبيه متعجّباً، وبدأ يهزّ رأسه، وغمغم: «لعمرك إني أرى مصرعي». لم يكن في الجوار كله، تلك الأيام، أيّ إشارة تمضي في ذلك الاتجاه، ولذلك فقد اعتبرت كابوس فارس مجرد هذر يرطن به شاب متغطرس لا يعجبه أحد. هكذا كان يظهر للفتيان الآخرين أيضاً، ولم يبدُ منه لجيلنا أيّ ملمحٍ من تلك الملامح التي كانت تقال عن حضوره الطيّب بين الناس. كان حزيناً فقط. هكذا حزين ومثقل بالكتب، وثمة من كان يقول إن الكتب هي التي لوّثت رأسه النظيف، وأفسدته. لهذا كنت وجلاً وخائفاً من الكتب، إذ كان كثيرون يقولون إنها تسبّب الجنون، أو تجعل البني آدم مسطولاً.

على الحيطان رسم فارس أزهاراً، وكتب أشعاراً. أحسُّ بالذنب لأني لم أحفظ من تلك الأشعار شيئاً، ربما لأني كنت أحفظ أقواله: «أنا قارئ الكتب وقارع أجراس الحرية». ورأيته يضع لائحة صغيرة من الأسماء التي أطلق على أصحابها اسم: أبناء الحرية. لكنه لم يستطع أن يجلب أحداً منهم إلى المكتبة، باستثناء فؤاد أبو علم. كان فؤاد يأخذ كتاباً واحداً لا يبدّله. يقرأ الكتاب ثم يعود. كانا يتحدّثان بحماسة، ويعلو صوتاهما في بياض المكتبة، يصرخ فارس، يصرخ فؤاد، ثم يخرج من العلّية غاضباً. كنت أظن أنه لن يعود أبداً إلى المكتبة، غير أنه كان يعود دائماً، ويطلب

الكتاب هامساً. كنت أمسك قلبي خائفاً على فؤاد من أن يكون أحدٌ ما قد استعار الكتاب في غيابه. لكن فارس كان يتواطأ معه دائماً كما أفكّر، أو أن أحداً لم يستعِر ذلك الكتاب.

أين يمكن لفؤاد أبو علم أن يجمع أنصاراً لبطله في الرواية؟ كان بافل فلاسوف قد أصبح معروفاً لدى معظم شبّان السماقيات، ومع ذلك فلم يكن مشروع ذلك البطل العظيم يصلح في ذلك المكان المدقع المسحوق القاحل، بينما كان فؤاد يدعو الله كي يلهم أحد الأغنياء كي يبني مصنعاً ما هنا في البلدة: مصنع خيطان مثلاً، علب سردين. وحين فشلت ابتهالات المصنع، بدّل آراءه وبدأ يتحدّث عن العدل، عن المساواة، عن الكبرياء ورفض الظلم. ولكن فارس كان يقول إنه لا يمكن لهؤلاء الفلّاحين أن يقودوا البلاد في أي وقت، الجوع هو الذي يغيّر حياتهم. فيقول فؤاد: العمّال العمّال، ولكن فارس يبدأ بالبحث بين الكتب، وتحت الرفوف ووراء أصص الورد، ويتطلّع إلى الساحة، ثم يجعل من كفّه منظاراً ويراقب به الأفق ويقول له: «وين العمّال؟ مش شايف حدا!». وحين يسأله فؤاد من يقترح لهذا التغيير المأمول يجيب بحزن: «الله يرحم الأستاذ!». جملة واحدة لا يضيف عليها أيّ تعليق آخر لشرح وجهة نظره، فما النفع من ذلك إذا كان أمله قد مات؟

لا أعرف الأستاذ إلا في الفصل الخاص الذي كتبه أبي عن فارس أبو لوز، ولكن الصورة المرسومة هناك لا تشير إلى ذلك الكائن المستعدّ للعمل على تغيير العالم، حتى لو كان قادراً على ذلك. رأيت رجلاً منهكاً خائباً وهارباً إلى الجدران التي تضمّ حصيلة المعارف البشرية دون قدرة على تصدير أيٍّ منها خارج تلك الجدران.

لكن السمّاقيات كانت تَضمُر في زمن القحط. أخذت تفرغ من سكانها

يوماً بعد آخر. يرحلون أفراداً أو أسراً وعائلات بعيداً بحثاً عن الرزق. لا تمطر السماء إلا قليلاً. وبسبب ذلك المطر تبدأ الفاجعة، إذ يمكن أن تغشّ السماء الفلّاحين، هكذا كنت أفكّر، بينما كان أبي يقول إن الأمل هو الذي يغشّ الناس. إنه غشٌّ أبديّ لا يتوقّف. ولذلك كان الفلّاحون يحرثون أراضيهم ويبذرونها قمحاً أو شعيراً أو عدساً. كانوا يزرعون الأمل بأن تستمر الأمطار، لكنها لا تفعل ذلك. تيبس الغيوم عند خط الأفق الغربي قريباً من قمم جبل الشيخ، وينشف الماء منها. لا أحد يمكن أن يعوّض الخسارة، فيرحلون إلى الأماكن التي قد يتوفّر فيها العمل. كانت لبنان هي أرض أحلامهم أولاً، حين يتعذّر السفر إلى إحدى بلدان أميركا اللاتينية، بينما ظلّت دمشق ترقد في الخيارات الفقيرة. لماذا لم يرحل فارس أو فؤاد إلى أرض أحلام الفلّاحين الفقراء؟ قالت أمي ذات يوم إنه قدرهم. لا يمكن أن تجد تفسيراً لذلك العناد الذي أظهره فارس في رفض السفر للعمل إلا في مشيئة القدر. كان عليه أن يبقى كي يموت، كي يُقتل.

لم تكن هذه الحسابات متوفّرة في تلك الأيام، بل هي حسابات تالية تقدّر بالمسطرة بعد الموت. إذ كان فارس يعتقد أن بقاءه هنا إلى جانب الكتب يحميها من التلف في أروقة الجفاف. ربما خطر للفلّاحين أن يجعلوها حطباً للتدفئة، أو ورقاً للخبز، أو يمسحوا بها أقفيتهم بعد الخروج. لا أعرف ما إن كانت عبئاً لم يستطع التخلّي عنه، أم غراماً. أبي كان يقول إن فارس كان بلا شكوك، بلا عيوب خلقية بحيث يمكن لأيّ شخص من المتكهّنين (هل كان يعلم أنني سأكتب تعليقاً على رواياته؟) الشكّاكين سيّئي الظنّ أن يبني خرطاً كلامياً لا معنى له عنه. فارس في نظر توفيق الخضرا كان حالماً وطيّباً مثل كل الحالمين. كان عاشقاً للمعرفة وساذجاً مثل كل العاشقين.

كانت لفؤاد روح وعزيمة مقاتل، بينما كان فارس يسجّل التعاويذ ويحاول فرملة العالم من حوله. فؤاد يشبه العاصفة، وفارس يشبه السدّ. ولهذا لم يلتقيا في أيّ يوم. كانا صديقين في كل شيء، يذهبان معاً إلى صيد الحجل، ويسهران معاً، ويتدخّل أحدهما في شؤون الآخر الحميمة، لكنهما كانا خصمين في المكتبة. لا تزال انفجاراتهما الصاعقة ترنّ في أذني منذ تلك الأيام، دون أن أكون قادراً على استعادتها. ولكني لن أنسى أن فارس كان حزيناً يابساً شاحب السحنة حين أخذوا فؤاد أبو علم إلى السجن. مرة واحدة قال لي إنه يعرف من الذي وشى به، ولكنه لم يذكر اسمه. فوجود الاسم في ذاكرتنا يعطّلها، بعكس ما كان يقال من أنه يكشف لنا الحقيقة. فالحقيقة إذا انكشفت تحتاج إلى من يساندها ويحميها، أما في زمن الخوف فإنها تضيف الرعب وحده على حياتنا. لا تحفظ الأسماء. اتركها في الخفاء، ولا تبحث عنها. لكن أبي لم يكن من أنصار هذه النظرية. كان يقول إن انكشاف الأسماء يطمئننا، يمنحنا الأمان والقدرة على الصمت والاختباء والتخفّي بعيداً عن وشاياتهم.

كان يغلق المكتبة أيام السبت والأحد والاثنين، يختفي من البلدة، وكنت أظن أنه يبقى في البيت، لكني عرفت أنه يذهب إلى المدينة ليعمل في أيّ عمل يومي يمكن أن يجده، وفي أشهر الصيف دبّر له المُناظر في الطرق أحمد الطبال عملاً في رصف الطرقات بالحجارة قبل تعبيدها. وكنت أراه يوم الخميس متعباً، حين يأتي فؤاد كي يطلب منه إقناع عمّال الطرق بأن ينضمّوا إلى مجموعته.

كان فؤاد شديد البهجة حين علم أن ورشة المواصلات سوف تبدأ بشقّ الطريق الجديدة بين السماقيات والطريق الإسفلتية الوحيدة التي تحمل السيارات إلى دمشق، وصار يقول لفارس: «رح تشوف خيّك بافل

شو رح يعمل!». ففي تلك الأشهر كان قد وجد حلم عمره: مجموعة من العمّال المياومين المستَغَلّين من قبل أرباب عملهم. لا يعتقد فارس أن صديقه قد اعتُقل بسبب نشاطه العابر بين العمّال، إذ لم يُتِح له المُناظر المسؤول عن عملهم الاقتراب من الورشات، أو إلهاء العمّال بأيّ كلام. ومع ذلك فإنه حين اعتُقل فؤاد ازداد حزناً. كان ينظر من النافذة إلى الطريق التي تلمع حجارتها الزرقاء في وسطها بعد أن هطلت الأمطار وعطّلت الشغل، ويتساءل ما إن كان فؤاد يعلم أن قليلاً من المطر يعطّل النضال العمالي كله؟ لم يكن يسألني بالطبع، ولكن معظم حديثه مع نفسه كان يأتي في صيغة الأسئلة. تكاثرت الأسئلة التي لا تجد أجوبة على استفساراته، وصار يقول: أليس أفضل ما نفعله في هذه البلاد أن نضع أفكارنا تحت الوسادة؟

لم تكن المكتبة تزيد، اكتملت تماماً منذ أن جاءت، ثم توقّف نموّها. لم يعد أحد يرغب في استعارة الكتب بعد اعتقال فؤاد. وكنت قد انتقلت إلى المدينة لمتابعة دراستي في المدرسة الإعدادية. وحين نأتي يوم الخميس في العطلة الأسبوعية، كنت أذهب حالاً إلى المكتبة، وإذا لم أجد فارس هناك كنت أذهب إلى بيته. أرى كم كان يفرح. نمضي معاً إلى هناك وهو يحدّثني عن كتاب. لم يطرأ على المكان أيّ تغيير. ظلّت المكتبة مضاءة بالنور الأبيض. وظلّ اللون الأخضر يكسو شرفتها. وكان نبات اللبلاب الذي زرعه تكريماً لمحمد عبد الحليم عبد الله قد عرّش على حائطيها الغربي والجنوبي. ومع ذلك فقد بدا كأنما كان يشتدّ حزناً فقط. كان الحزن يقضم وجنتيه الممتلئتين يوماً بعد آخر، أو شهراً بعد شهر. أو يضفي على سحنة وجهه السمراء عتمة ناشفة تجعله بلا أسارير. وعندئذٍ يزداد حذري منه، إذ كان الباقون من الكهول والعجائز والنساء والفتيان والفتيات ممن

لم يهاجروا يقولون إنه بلا أمانة. فقد ترك أمه وأخته تسافران إلى بيروت للعمل هناك في خدمة البيوت ولم يرافقهما. لم أسأله عن ذلك أو الأفضل أن أقول إنني لم أجرؤ على سؤاله. لا بسبب الخوف، بل بسبب الحياء والشفقة. كان فارس أكثر رقّة بكثير من أن يخدش بسؤال عن الوجدان، ولم أكن أصدّق تلك العبارة.

وقبل أن يُقتل بأسبوعين قال لي: «افرح لي يا فيصل!»، قلت: «خير؟!»، قال إنه حصل على منحة لدراسة الحقوق في باريس. لا أعرف من قدّمها له، ولكنها كانت تشبه أحلامه كثيراً).

4

هذه المرة يمكنني أن أشرح ماذا تعني جملة: سأضعك في صورة ما يحدث.

الآن فهمت لماذا أراد ذلك الفتى الناحل العابس الخالي من دهون الحياة، التخلّص من ألبومات الصور التي اشتغل عليها أكثر من ثلاث سنوات. ساعدتُه قليلاً كي أرضي يأسه، وأبدّل وجهة قراره الساخط الذي اختار فيه أن يحرقها. أذكر أنني أقنعته بدفنها، فالنار، أكثر من القبور، شغوفة بالتخلّص من بعض الأشياء وتحويلها إلى رماد. النار تعادل الإبادة والمحو، بينما يخلطها التراب بمادته ويحتفظ لها بوجود آخر في الطبيعة، إذ إن التراب مادة الحياة ذاتها، وليس عبثاً أن يقال إننا جئنا من التراب وإلى التراب نعود.

كنت قد نسيت أمرها، ولم يزد خبر موت نازي حطاب في الكونغو، الذي لم يصلنا إلا بعد دفنه بعشرين يوماً، بسبب عدم وجود الاتصالات الهاتفية، الرغبةَ لديّ في إعادة فتحها. أقام أقرباؤه من آل حطاب مراسم العزاء بحسب ما تتطلّبه الأعراف دون أيّ تجاوز أو نقصان، وقيلت بعض الكلمات الوداعية الحزينة، ثم أقام بعض رجال الدين صلاة الغائب، وانتهى الأمر. في طريق عودتي من العزاء قرّرت أن أعود إليها.

كانت السنوات الماضية، قد التهمت ذكرى نازي، بينما راحت أخباره تتلاشى وراء البطء الذي حكم حياتنا. لا هواتف، ولا كهرباء، ولا رسائل تصل في مواعيدها، ولا سيارات للنقل. كنا متروكين لذلك الإيقاع النعسان الأخرق الذي يخترق حياتنا ويحوّلها إلى وجودٍ مجرّد من أيّ معنى غير الاستمرار في العيش. ولا أعرف ما إن كان يعيش في عالم آخر موازٍ أو مشابه لعالمنا الصامت. ربما، ففي البلد الذي رحل إليه، تاريخٌ من الهلاك والفحش الاستعماري يمكن أن يكون قد ترك وراءه دماراً هائلاً في كلّ المكان والزمان. وفي كلّ الأحوال فإن نازي نفسه لم يكن ذلك الشخص الذي يترك أثراً يمكن تتبّعه أو ملاحقته.

موته الهامس، وورقة لقمان المتأخرة، ذكّراني بكلّ ما فعله هنا، أي منذ أن اشترى الكوداك، وتدرّب عليها. أذكر أنه استطاع أن يلتقط لحظاتنا الصامتة، ويضعها في تلك الصور كي تحدّق فينا. تعيد لنا ما ربحناه أو ما خسرناه من ماضينا. مخطئ من يظن أن الصورة ذكرى، والجملة البليدة التي يكتبها الأصدقاء على ظهر صورهم ما هي سوى تكرارٍ أهوج لمجازٍ تافه.

عدت إلى المكان الذي وضعنا فيه ألبوماته، نسيت أنه اختار أن يسمّيه مدفن الدودة الشريطية (كان نازي يقول إن اسمه الغريب الذي ابتلي به بسبب ولاء أبيه لهتلر، يشبه إلى حدٍّ بعيد علّته المزمنة بتلك الدودة الوحش التي كانت تلتهم أحشاءه)، وللمرّة الأولى منذ عشر سنوات أقرّر أن أخالف وصيّته، وأعيد فتح المكان في غيابه الأبدي. «أحسنت!». بدأت أمدح نفسي، حين رأيت أنني غلّفت الألبومات بالورق السميك، ولففته بالخيش. متى فعلت ذلك؟ لم أعد أذكر، ولكن من الواضح لي أن الطبع والوجدان -هل أقول الغريزة؟- غلبا على السلوك حين لم يكن راضياً عن نفسه. تلك هي الحقيقة عن تلك اللحظات، فالشاب المسافر كان يريد

أن يشعل النار في ذكرياته كي لا يعود في أيّ يوم بحجّة البحث عنها. ألا نفعل هذا نحن دائماً؟ ألا نحاول السعي نحو أصدقاء الصبا أو الشباب، وحين نكتشف أن الذكريات قد احترقت، كما لو كانت الشمس قد أتلفتها، نستدير ونمضي خائبين؟ يمكن. نازي أراد عامداً أن يتخلّص من التجربة، وحين مات أدركت أنه لن يتعذّب البتّة فيما لو فتحت ذكرياته.

كان هناك ستة ألبومات ضخمة، بدأت أتصفّحها. كان نازي قد رقّمها بخط يده، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، واحتراماً للتعداد نفسه، بدأت من الواحد. سوف ترى أنك أمام عين ممسوسة ترقد وسط الظلمة كي تراقب الضوء في الخارج، أحياناً تراه عاشقاً للظلمة، وهي أخطر اللحظات في المجموعة، ثمة العشرات من الذكريات التي يمكن أن تروي قصص السماقيات. لا يحتاج المرء إلا إلى القليل من الماء لترطيب تلك الجمادات الثابتة في الصور، ويعيد لها الحياة التي كانت هي. هكذا نقول نحن هنا حين نتحدّث عن الموتى: حياة أحمد. حياة أجود. حياة أسعد. أيْ كلّ واحد منهم حين كان حيّاً. غير أنني لم أنوِ فعل ذلك، لقد قرّرت أن يظلّ الموتى موتى، واعتبرت أن ألبومات الصور هي المقبرة التي لن يظهر منها شيء للعلن. وقد كانت السبب الذي جعلني أفكّر هكذا، وسوف نتأكّد أن نازي حطاب فكّر بالطريقة ذاتها، وأنها كانت السبب وراء رغبته المجنونة في التخلّص من إنتاجه كلّه. ففي الألبوم السادس كانت تقبع تلك الحزمة التي جمعها في ظرف واحد، ورزمها بخيط، وحشاها في الغلاف الداخلي للألبوم السادس، إنها نوع من قصة موت الخليقة كما توهّم. قصة دمار المكتبة كما رأتها عينه، أو عين آلته الخفيّة التي كانت تراقب الحدث.

المحتال الداهية: روى القصة دون أن يسمّي الشهود. لم يكن ثمة شهود على المكتبة، بل شهود على خراب المكتبة، وقد رأيت صورهم جميعاً.

أين كان نازي مختبئاً؟! أقدّر بحسب قياس المسافة، التي أُخذت منها الصور (وهي مسافات في واقع الأمر، إذ إنّ نازي اضطرّ للتنقّل من مكانٍ إلى آخر، إما لأخذ صورة أكثر صلاحية، أو للابتعاد عن احتمال الشبهات) أنه كان واقفاً أو مقرفصاً بجانب حائط آل غنّام مرّة، أو بجانب حائط منزل آل العايد مرة أخرى. ومن هناك تمكّن من أخذ الصور بالكاميرا. كان نازي في المرحلة المتقدّمة من القوة على التصوير، ولهذا فإن احتمال الخطأ أو عدم الدقة بات ضئيلاً: لمَ ظهر الأشخاص الذي اقتحموا المكتبة، وبدؤوا ينهبونها، محشورين في بطانة من نعاس الظهيرة؟ لم أتمكّن من معرفة أيّ واحد من بينهم، بينما كنت قادراً على التكهّن (تكهّن العارف المرتاب) بكلّ شخص من بينهم. تصفّحت القامات بعدسة مكبّرة. مررت على الوجوه والأيدي والأقدام. حملقت وحدّقت وتفحّصت ولكن بلا جدوى ثابتة تزرع اليقين. لا. كان الشكّ وحده سيّداً على الصور. فمن هذا ومن هذا ومن هذا؟ عرفت ولم أعرف، أكثر من ثلاثين صورة، يحتدم فيها الناس ويتداخلون، يخرج أحدهم ويعود (هو الذي عاد أم شخص آخر؟ هذه هي الأحجية التي يتركها لنا نازي، ويتركنا حائرين تجاهها). أما سرقة الكتب فقد ظهرت شديدة الوضوح، كانت الكاميرا هنا تأخذ «الزوم»، لتركّز على الأكداس التي ينهبها أولئك العتاة من اللصوص المخرّبين. ثم تعيد الزوم إلى الرّفّ الفارغ، فيبدو كأنما هو كائن حيّ مبقور الأحشاء. تظهر المكتبة لحظةً بعد أخرى بائدةً ومهملة وبلا أصحاب. وسريعاً كما يظهر من الصور، تغرق في زمن رثّ مستهتر غريب، يغزوها رجال حمقى طائشون، وهي التي تُظهر سخاءً لا حدود له. تنبع الكتب من كلّ مكان، كأنما كنا قد اقتنينا آلاف الكتب.

لا يمكن أن تتمكّن آلةٌ سوداء صغيرة من بلبلة شخصٍ مثلي، فقد

عرفت جميع أبناء البلدة واحداً واحداً، مرّوا من تحت يدي منذ أن بدأت التعليم هنا قبل أكثر من أربعين سنة، أما الآخرون الذين جايلوني فإنني لعبت معهم، وشببنا معاً، وسبحنا في مياه الوادي عراة. فكيف يمكن لنازي أن يعتقد أنه يمكن أن يخفيهم عن عيني؟!

لم يكن الأمر سهلاً بالطبع، فأن تُخرج رجلاً من صورة، أن تتعرّف إليه من ظلاله، أن تعيد خلقه أو تعيده إلى خلقه، أمرٌ ليس هيّناً. غير أن المهمة التي أقسمت أن أنهيها كانت تدفعني للصبر والتمهّل والتدقيق في الملامح التي تظهر في الوجوه المغبّشة، أو في القامات أو الأطراف أو شكل الرؤوس أو الأعناق أو الظهور.

ولكن، هل تكبّدَ عناء التخلّص من صوره لأنه بات محرجاً تجاه الشهادة، أم أن أحداً ما رآه؟ فالكاميرا تلتقط صورة نصف سوداء، ومن الواضح أن الزاوية التي أُخذت منها غير الزاوية التي أخذت منها الصور الأخرى، الراجح هنا أنها صورة مختلسة، أو أنها صورة ملتبسة، خائفة، مطهّرة من التركيز، محرومة من الانتظار والاسترخاء. فما هي؟ من هو الرجل الذي يظهر شبحه هناك؟ سهرت طوال الليل أعيد، وأبحث، وأدقّق، في السطوح البيضاء والسوداء. أراقب أولئك البشر، وأحرّكهم خارج حدود البياض والسواد. يمكن لقياس المسافات أن يكون حكَماً في المعرفة، ولذلك السبب خرجتُ في النهار التالي لحساب الأمكنة التي يستطيع أيّ شخص أن يرى منها نازي وهو يلتقط الصور أثناء نهب المكتبة: كان الوقت ظهراً، وكانت شمس نيسان الدافئة تسيطر على الأرض والسماء معاً. لا تثير الشمس في مثل هذا الشهر من السنة غير العواطف الرخوة، ومن المستبعد أن تصيب المخّ بأيّ أضرار، بينما يحذّر المختصّون من شدّتها على الجلد في حال التعرّض لها لزمن طويل. والظاهر أنها فعلت

أمراً معاكساً لقاعدتها. فقد بدأ الغضب يتفشّى بين جماعة من الرجال، هل كانوا من آل شمال الغاضبين؟ كيف يمكنك أن تتحاشى الغضب إذا لم ترَه؟ لا يراه أولئك الذين يفتك بهم بعقولهم من الداخل. وثمّة رجالٌ يتصيّدون عصافير الغضب من أحراش الوعر، يأخذون أنفسهم إلى الحرب.

لا تأكل الحرب غير الأبرياء، هذا ما يتبقّى من الناتج الأخير لحروب الفلّاحين: هكذا قُتل فارس أبو لوز. رأيتهم يقتلونه عمداً. أو أن عين نازي هي التي رأتهم، ووثّقت جريمتهم. كان فارس هو البريء الذي ذهب ضحية البلاهة القبلية والحزبية التي استطاعت أن تصنع جوقة للانتقام يقودها أحمق لئيم مثل لطفي الجمل، أفضت في نهاية الأمر إلى نهب المكتبة، ومقتل فارس، قيّم المكتبة وحارسها ومنظّم دفاترها وسجلّاتها ورفيق رحلات الذهاب والإياب التي سافرت فيها كتبها بين أولئك الذين أحبوا القراءة.

تلك كانت نظريّتي الأولية عن مسرح المعركة، ولكن الحقيقة كانت تكمن خلفنا لا أمامنا:

بدأ العراك (سوف يظهر أنه مجرّد تمثيل فظّ لمعركةٍ خلّبية) أولاً في ساحة البريد. كانت هناك بضع نساء من آل عواد وعدس وكمال الدين، خرجن مسرعات حين قال لهن كميل عواد إنه لاحظ وجود عصيّ وسكاكين لدى القادمين إلى هناك. كانت ساحة البريد هي الساحة الثانية في البلدة من حيث الاتساع، وقد أخذنا الغرفة التي تطل عليها من جهة الغرب، في دار حليم الزهر لجعلها مكاناً سمّيناه المكتبة. لم نكن نحسب أن المكان سيُمسي مقبرة.

التقطت الصورةُ الأولى (الترتيب الرقمي للصور مبنيّ على حساباتي الشخصية فقط) الاندفاعةَ الأولى لثلاثة أشخاص اقتحموا المكتبة. أحدهم

تجاوز فارس، بينما أحاط به الآخران. الصورة الثانية: لا يمكنني أن أتأكّد من أن اللطخات التي تظهر على وجه فارس هي دماء، فالأبيض والأسود يخفي الدماء، ويخلطها بأيّ شيء آخر. كما أن ملامحه لم تكن واضحة، بسبب غبش الصورة، ولم أعرفه إلا بصعوبة، أيْ حين اتكأت على ذكرى بعيدة رأيت فيها فارس غاضباً يشكو لي لأول مرة من تدخّلات أمه وأخته في حياته. مكتبة سُر مَن قرأ

أفكّر أن فارس نفسه قد قرّر موته بطريقة ما، فهو الذي وافق أن تكون علّيّة الزهراء مكاناً للمكتبة، حين جاء حليم الزهر وقدم لنا المواصفات التي تجعل تلك الغرفة مناسبة لمكتبة، فهي تطلّ على ساحة البريد التي يتجمّع فيها الشبّان في أوقات المساء، وتدخلها شمس الصباح في جميع الأيام المشمسة، كما أن فيها بضعة صناديق عتيقة يمكن تجديدها وتحويلها إلى خزائن لحفظ ما نريد من الوثائق، إضافة إلى أن البيت كان لصهره حليم الزهر، ويستطيع البقاء في المكان بقدر ما يشاء.

لم نتردّد كثيراً، ولا حاجة للتحرّي عن فارس بالطبع، فالرجل الذي كان في العشرين من عمره، في تلك السنة، هو زيد الغبّار في جيله السابق، وبسبب هذا وحده، لم يكن أيٌّ منا يستطيع مواجهة رجل كان معلّمنا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن قبل أن يُقتل بطلقة طائشة من بندقية صيد. وقد تحلّى، قبل أن ينطق ويقول إنه روح زيد التي تقمّصت في شخصه، بكلّ الصفات العظيمة التي عُرف بها معلّمنا.

كان قد قرأ سلامة موسى وإسماعيل أدهم وطه حسين، وكان يعرّف بهم على أنهم «طليعة الفكر»، بينما كان أحياناً يتبّل الكلام بمقتطفات من مجاني الأدب للويس شيخو، وهو الأمر الذي منحه هيبة وحضوراً لا تناسبان عمره، جعلت معظم من يلتقون به يقفون حائرين أمام الالتباس

المحيّر بين سنّ الفتى الذي يقرأ من الهواء أو من الفضاء، والكلمات الثقيلة التي يقولها، ولكن النطق حلَّ المسألة. صار الناس يصدّقون ما يقوله اليوم باعتبار أنه مخزّن في ذاكرته منذ أيام المعلّم زيد الغبار الذي كانوا يخشونه في حياته كما في موته.

لا نحن، ولا فارس، قدّرنا أنه يذهب تجاه موته. لم تكن المكتبة مستهدفة في أيّ يوم، ولم تتدخّل المباحث آنذاك في شغلنا، بينما سمحت لنا الشرطة أن نفعل ما نشاء ضمن الشروط الضمنية التي نعرفها كلنا: لا سياسة، لا حزبية، لا أسرار. اتفقنا على تنفيذ هذه الشروط، وصار كلٌّ منا يضع ميوله والتزاماته الحزبية في سلّة عند باب بيته قبل مجيئه لأيّ لقاء يخصّ المكتبة، صارت المكتبة ملتقىً محايداً بدّد مخاوف الجهات التي تخشى من الكتب في العادة، وقد كان وجود فارس المستقل، وارث المعارف من سلفه الروحي، ينشر طمأنينةً كافية لتغطية تلك المخاوف.

لم ينقذ المكتبة وحدها من النسيان، حين راح ينشر معارفه عنها بين الشبان في البلدة، بل أنجز عملاً غريباً آخر هو القراءة: سريعاً استطاع فارس أن يتحوّل إلى حكواتي. وفي حين لم تكن المقاهي من عاداتنا، إذ إنّ المضافة هي التي تتولّى شؤون الاجتماع، فإنّ فارس خلق مكاناً آخر للحكي. فرش المكتبة بقطع خشب عتيقة حوّلها إلى مقاعد، ووضع بساطاً قديماً على الجانب، ثم بدأ يقرأ: وبحسب السجلّات التي عثرت على بعضها في ما بعد، فإن سلسة قراءاته الجماعية شملت طيفاً معقولاً من الكتب: ألف ليلة وليلة (الجزءان الأول والثاني من طبعة بولاق)، شكيب أرسلان: لماذا تأخّر المسلمون. نجيب محفوظ: خان الخليلي (كم استغرق هذا من الزمن؟)، عبد الرحمن الشرقاوي: الأرض. أما النشاط الغريب الذي نفّذه فهو موضوع نسخ المخطوطات. في البداية سألني رأيي

في إنشاء فرعٍ للمخطوطات المنسوخة، فقلت: هل تريد نسخ الحكمة؟ فقال: لا. للحكمة أهلها، وهم مكتفون. إذاً؟! كان قد عثر في إحدى المكتبات القديمة على مخطوطات معتّقة، ويبدو أنه عقد اتفاقاً لنسخ بعض تلك المخطوطات وإحضارها إلى المكتبة.

لا أعرف المعاهدة التي كتبها مع عبد الهادي النعمان، خطّاط المنارة. كان لدى النعمان كنز مخطوطات ملفوفة ومحزّمة بخيطان الحرير في بيته، ولم يكن أيٌّ منا يهتمّ بمخزونه، إذ اعتقدنا أنها نسخ عن رسائل وكتب دينية يخطّها الرجل لقاء لقمة العيش، بينما كان فارس قد اكتشف الكنز، وبدأ بنقله إلى مكتبتنا.

يحتاج المرء إلى سنوات كي يعرف ما الذي فكّر فيه ذلك الشاب، أو يعرف ما هي المواد التي نقلها من مخطوطات عبد الهادي، إذ إن هذا ترك البلدة أيضاً، واختفى بعد دمار المكتبة بأسبوع. لم يلاحظ أحدٌ رحيله، فقد كان انشغال الجميع بموت فارس، ووجود الوفود التي تأتي من جميع أنحاء الجبل للتعزية، يلهيهم عن تتبّع رحيل أيّ شخص. كانت العادة آنذاك أن يُستقبَل المعزّون في منازل القرية، وأن يُعتبروا ضيوفاً. فمن يأتي من الجبل الشرقي أو القبلي أو الشمالي يضطر للبقاء هنا بسبب عدم توفّر أيّ وسيلة نقل تعيده إلى بلدته، ولهذا توزّع السماقيات بيوتها على الضيوف. وفي تلك المشاغل غادر عبد الهادي البلدة.

سقط فارس إذاً في المواجهة مع فرقة المهاجمين الأولى. هذا ما تُبيّنه الصور. أعرف أنه لا يستطيع أن يجابه هذا العدد من الرجال، والمأساة التي تحزنني أكثر أنه كان هو نفسه يعرف نتيجة المواجهة أيضاً. ومع ذلك فقد تقدَّم بلا وجل للدفاع عن المكتبة. كان يعلم أيضاً أنهم جادّون في منعه من التصدي، ويظهر في إحدى الصور أن أحدهم (آه لو أستطيع معرفته!)

تجادل معه، وربما حاول إبعاده عن الطريق. ولكن فارس لم يتحرّك، لم يكن وقوفه في تلك النقطة يسدّ المدخل، ويعرقل تقدّمهم فقط، بل بدا كأنما هو طريقة للموت. هل كان الأمر يستأهل تلك المواجهة؟ هل كان فارس يدرك العواقب؟ وإذا كان قد استنتج، بعقله القادر على إجراء الحسابات العاجلة، أن مقتله صار قريباً، فلماذا لم يتراجع؟! لا أظن. لم يكن بوسعه فعل ذلك دون أن تتعرّض روحه للتحطّم. بل إن أي نقاش مع المهاجمين، بدا له دون جدوى. إنه يعرفهم جيداً، وربما كان قد تحدّث معهم من قبل عن أي موضوع أو أي مسألة بعيدة عن الكتب والكتّاب. ولكنه أدرك لحظة دخولهم أنهم لن يتراجعوا، والأخطر من ذلك، وهو الأمر الذي أدى إلى موته، أنه لن ينسحب أمامهم أيضاً.

لكن فارس في الصور التالية. بات قتيلاً، ملقى على الأرض، كما وجدناه بعد ذلك بساعة. بينما أخلى الرجال الثلاثة الطريق قليلاً لآخرين. تلتقط الكاميرا صوراً لهم وهم يبحثون في المكتبة. نقبوا الرفوف واحداً بعد آخر. تحرّكت ظلالهم في المكان ذهاباً وإياباً. هل كانوا يبحثون عن كتاب أم عن كتب، أم كانوا يريدون المكتبة نفسها؟ الملاحظ أن أحدهم تهوّر وألقى ببضعة كتب إلى الأرض. المرجّح أنه فعل ذلك لأنه غاضب أو تائه أو خائب. لم يجدوا ما كانوا يريدونه، وفي إحدى نوبات الملل أو اليأس رفع أحدهم (هذه المرة رأيت أنه كان ملثماً) كفّ يده مستسلماً. لا تُفهم هذه الإشارة قطّ بغير ما تشير إليه، أي إن على الجميع أن يتوقفوا هنا، غير أن ما حدث هو التالي: لقد بدت المكتبة عدوّاً. فالفشل والحرج والخواء بطانة مجرّبة للحقد والكراهية. ولم يكن بوسع إشارة النهاية أن تلجم جوقة الفوضى. هذا ما ظننته في البداية، آملاً أن يكون النهب ناجماً عن الهزيمة أو الخسارة أمام المكتبة. ولا ننسى بالطبع أن أولئك الذين اقتحموا المكان، ما كانوا يعلمون بعد أن فارس مات. كان رأسه محشوراً

بجانب البساط، وجسده ممدّداً بجانب المكتبة. ولم تكن لدى أحد من الغاضبين ما يكفي من الرحمة أو الشفقة أو الغيرة للتأكّد من أنه حيّ أو أنه فارق الحياة.

كانت هزيمتهم أمام المكتبة التي لم يجدوا فيها ما يريدون هي التي تقودهم الآن، ولقد قادتهم إلى التصرّف بعقليّة السفّاح.

هذه هي المطالعة الأولى التي كتبتها لتقدير الأفق الذي مضى إليه ناهبو المكتبة، غير أن الحسابات ليست كذلك، إذ بدا لي من الصور التي أشاهدها لنازي حطاب أن المهمّة تغيّرت، فبدلاً من البقاء وسط تلك الرفوف الغامضة التي تخفي ما جاؤوا من أجله، لم لا نأخذ السرّ كلّه ونخفيه؟ الظاهر أنهم أرادوا أن يلعبوا مع المكتبة لعبتها بالعكس. يُخفونها كلّها، انتقاماً من إخفائها ذلك الجزء الذي يريدونه (أم لا يريدونه؟).

رأيت ذلك الذي حمل الدفعة الأولى من الكتب، لم يكن قائد المجموعة، بل مجرّد تابعٍ مروّع أُمر بحمل أول السلسلة. يكفي أن ترى أحداً ينهب شيئاً دون أن يكون موضع مساءلة حتى تأتيك الحمّى نفسها. لم يكن أولئك الذين انقضّوا على الكتب يرغبون في قراءتها، فقد كانت موجودة دائماً طوال الزمن الذي مضى على عهد بنائها ولم يأتوا إلى هنا كي يستعيروا كتباً. الآن بدت مغرية، حافلة بالأسرار والخبايا، سلالة من المعرفة المخبوءة التي يمكن أن تُخرج الكنوز. أظن أن قادة الهجوم، أغروا أولئك الفلّاحين الفقراء باحتمال الكنز. وطوال العقدين الماضيين كان العشرات من أبناء السماقيات يحفرون الوعر بحثاً عن كنوز خبأها الكنعانيون أو الرومان أو الأنباط أو الغساسنة أو العثمانيون، دون جدوى. وعند كل حجر أو صخرة وجدوا رسم عقرب أو طائر حجل أو أفعى أو عنكبوت، نبشوا الأرض كلّها. ثمة من قال إن أبناء حامد الورداني وجدوا

تنكتين من الذهب. لا دليل على ذلك غير غناهم المستجدّ الذي قالوا إنه من نتاج البرازيل. ولكن الوعر الصخري لم يقدّم لأبناء البلدة غير الأحلام، وبسبب الفقر كانت أحلامهم تضغط على أرواحهم، فالفقر والعوز صنوان للأمل ولفقدان الأمل معاً. كان جميع أبناء البلدة يشتهون الكنز، ويفكّرون كيف يمكنهم العثور عليه، أو عليها، في الوقت الذي تتبدّد فيه أحلامهم خلف الحفريات العبثية التي يعملون عليها.

من الذي أوحى بالفكرة في مخيّلة أولئك الذين كانوا حاضرين أثناء شجار العائلات؟ لا تتحدّث الصور عن الصوت بل عن الضمير. لا تقدّم حواراً بل رسائل تحتاج إلى تفسير. ولهذا فإن كل اسم يمكن أن أذكره سيكون على سبيل الترجيح. هذا هو ما نسمّيه الخوف من الله، وإن كان أولئك المخرّبون النهّابون القتلة لا يعرفونه مطلقاً.

عدا الثلاثة من آل شمال، وهم علي وطلال وسلمان، أميّز قامة صالح الناجي، أحاول أن أُخرجه من الحدث أو من الصورة، ولكنّه يستمرّ في الظهور طوال أكثر من خمس صور. هل يعقل أن يتسلّل صالح إلى مجمّع الفاسدين والقتلة؟ ثم يمكن أن يكون الظلّ الثاني لغازي سلمان، والظلّ الثالث لصلاح والرابع لسلامة وفارس. تبدو الظلال أكثر وحشية من البني آدم الذي من لحم ودم.

كان صالح الناجي يعمل نسّاخاً أيضاً، ويتحدّى أو ينافس عبد الهادي النعمان، وأنا من المعجبين بخطّه، وقد أنجز أكثر من مئة وخمسين نسخة من كتاب الحكمة، وقدْرَ ذلك من شرح الأمير السيّد، وكنت أناقش معه الشهر الماضي موضوع الاعتماد على خط النسخ وحده في كتابة الحكمة، فشرح لي أن تراث العرب اختار أن يكتب جميع الكتب بهذا الخط، بفضل بساطته وسهولته ورصانته وجماله، وبه كُتِب القرآن وتواريخ الطبري وابن

الأثير وغيرهم. رأيت صفحات من الكتب التي كان ينسخها. كانت الريشة (ولديه كنانة ضخمة من الريش المشذّب المضروب بحافة سكين قاطعة) تمضي نحو الكلمات كخالق، كلّما تقدّم رأسها المحبّر الذي يقطر منه المداد بأنفاس مدروسة. فما الذي أغراه للمجيء إلى هنا؟

سوف ينكر أن يكون هو حين واجهته بهذا الظن، صار عجوزاً الآن، ولم يعد بوسعه الكتابة بسبب الرعشة التي أصابت يده اليمنى. ولحسن حظه فإن ولده يعمل في لبنان، ويرسل له ما يمنع عنه الحاجة. ومن هذا الذي يشبهك؟ قال لي إنهم يمكن أن يكونوا قد زوّروا أنفسهم. رأيٌ مضحك يثير الريبة، إلا إذا كانوا قد خطّطوا لتدمير المكتبة من قبل.

من الصعب إرغام شخص مثل صالح الناجي، أو إقناعه بأيّ اعتراف، حتى لو كان مشرفاً على حافة القبر. لم تكن الكتب تهمّه، كما قال لي، بل مقتل فارس، إذ إنه بدا آسفاً على ضياع روح الرجل، ودمائه، أكثر من أسفه على ضياع الكتب: «هل تبحث عن الكتب فعلاً أم عن قتلة الروح؟». لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل، إذ كانت جريمة قتل فارس قد حُفظت، وسُجّلت ضد مجهول في غياب أي شهادة يمكن أن تفيد التحقيق. خاصة أن الشرطة لم تلاحق ناهبي المكتبة، واعتبرت أن الشجار هو السبب الذي أفضى إلى ذلك. بودّي اليوم أن أكتب ما يلي: ادّعى ضابط الشرطة الذي ترأس دورية التحقيقات أن تكون البلدة كلّها قد شاركت في إخفاء المكتبة، وقد أغار شرطيّوه على بيوتها غارات ليلية ونهارية متكرّرة، واخترقوا البواكي والتبابين والحظائر دون رحمة، وأخذوا ما توفّر لهم من الدجاج والأغنام والماعز، وحاصروا البلدة أربعين يوماً ريثما يتم أربعين فارس القتيل، بينما لم تكن لدينا تقاليد الأربعين، وكانوا خلال ذلك يجبرون الفلّاحين على تقديم الولائم والدخّان والحليب الطازج والخبز

والبيض والحلاوة والهريسة لهم، والشعير والتبن والقمح والبرسيم لخيولهم. ضغطوا على حياتنا جميعاً، المخرّبين من بيننا والبناة، من في بيوتهم والجناة، ولكنهم، أو يمكن أن أقول: «لكنّه» لم يستطع إثبات شيء، لهذا لم يجد الضابط من يتهمه سوى المجهول. قُيِّدت الجريمتان ضد مجهول، نجا القاتل ونجا اللص تحت هذا المسمّى الذي سوف يظهر كثيراً في حياتنا المقبلة، ويملأ صفحات الضبوط التي يكتبها رجال شرطة يحملون الشهادة الابتدائية بخطوط رديئة لا تستطيع أن تمسك سطراً واحداً مستقيماً، حيث تترك المسارات العقيمة المغلقة الغامضة في الدفاتر برفقة هذه الشخصية. كأن المجهول هو ضابط الإيقاع الخفيّ الذي يقود خُطا أولئك الذين حكموا بلادنا بعد دمار المكتبة. بينما لم يشارك البتّة في أربعين فارس، لأنهم رحلوا قبل ذلك، وأُلغي اليوم نفسه.

لهذا وجدت نفسي آسفاً على اتهام صالح، وقلت له: «العتب على النظر»، والحقيقة هي أن العتب على الريبة والشك، العتب على العقل. غير أن براءة الناجي لا تلغي التهمة عن غيره، ففارس كما تؤكّد صور نازي قد قُتل، ولم ينتحر كما أشاع لقمان لقمان، وأبناء شمال والتوت وغيرهم، أو كما كتب عصام الديدي في ضبوطه.

5

في المرّات الكثيرة التي أستعيد فيها اسم فارس يُخيَّل لي أنه لم يكن يعرف شيئاً حقيقياً عن العالم. ولهذا ما كان يأبه كثيراً للمخاطر المقبلة، ولم يفكّر قطّ بنوايا الآخرين. وربما كانت مثل تلك الصفات صالحة للعمل في الفردوس مثلاً، في حال وجوده، أو في عالم المدن الخيالية. ولهذا فإنه لم يأخذ ما يخبره به مسعود الجمّال (كما عرفت في ما بعد) بجدّية، وعامله كما لو كان مجرّد مزحة عابرة تناسب ردوده على التعليق الذي أبداه هو.

والحقيقة أنه لا يزال يحيّرني مقتله حتى اليوم، من يمكن أن يكون قد اعتبر أن فارس أبو لوز خصمه، أو عدوّه؟! فالشابّ الذي كان قد تجاوز العشرين من عمره بسنتين أو ثلاث (يوم مقتله) لم يتشاجر مع أي شخص من أبناء السمّاقيات طوال عمره، لا في طفولته، ولا في فتوّته ولا في شبابه. هذا غريب في الحقيقة، وقد عرفت هذا في ما بعد، أي بعد أن مات، وسمعت أشتاتاً من سيرته بين الشبّان. وأخشى أن أقول إنه لم يختلف مع أحد. ولم يكن لدى أيّ شخص من أبناء البلدة مأخذ على وجوده، كما لو كان عنصراً موضوعاً خارج قوس المشاحنات البشرية.

فإذا حاول أحدٌ ما استفزازه، كان يقابله بابتسامة بسيطة ساذجة، لا تفهم مغزاها. هل كان يمتصّ الكلام، أم لا يفهمه، أم يضعه خلف ظهره؟ وكانت

ابتسامته من النوع الذي لا مغزى له غير الطيبة. طيبة محشوّة بالضحك. كان يضحك لأيّ شيء، وكان ضحكه مُعْدياً، وبسبب العدوى كان كثير من شبان البلدة يرغبون في حضوره بينهم أثناء لعب الورق، فإذا خسر كان يضحك، يحكي لهم كيف عجز عن معرفة حلّ اللعبة، وكيف تغابى ورمى الورقة الخاسرة. وكان يكثر من وصف نفسه بالحمار، ولم يكن حماراً، غير أنه ابتكر نظرية طيبة اسمها الحمرنة مستمدّة من طيبة الحمير، وكان يضع نفسه بداخلها قائلاً إنها تصلح لتجاهل المصاعب، أو إنها تصلح لوصف اللحظات التي نخطئ فيها. قل عن نفسك إنك حمار عندما ترتكب خطأً مفاجئاً لك قبل أن يفاجئ الآخرين، وسوف ترى حالة الرضا النفسي التي تحصل عليها.

وأظن أن نظريته كانت تسبّب الألم لعدد كبير من الناس، فلا أحد يريد أن يعترف أنه حمار، أو أنه يتحمرن قليلاً أو كثيراً أحياناً، ولا أحد يقبل أن يقال عنه إنه حمار بالطبع. ولهذا كانت هذه النظرية تستفزّهم، بينما كانت ضحكة فارس تسحب منهم الذرائع. ينظر إليه أحدهم، ويلوّح بيده، ويقول: «لولا»، فكان فارس يقول: «لولا سلامك ما سبق كلامك»، ثم يضجّ بتلك القهقهة الوبائية الماجنة الطيبة المُحبّة التي ترغم الحاضرين على المشاركة فيها أو تقبّل مرور ابتسامة على الشفاه.. ولكن الضحك كان يعدي الحاضرين في تلك اللحظات فقط، ربما كان يحرجهم، هذا ما أحسبه أنا. يسكتون ويمضون في طريقهم، وليس لدى أيٍّ واحد من بينهم، أيُّ قدرة على لوم فارس. على ماذا يلومه؟! وكيف؟ إذ إن فارس كان يكتفي بتلك الضحكة الساذجة التي تتشرّب الغضب أو الكراهية أو الحقد أو سوء الفهم أو أي مشاعر أخرى كما لو كانت إسفنجة.

وكانت طبيعته هذه تخفّف من حضوره الذكري قرب النساء. فحين

يمرّ في ساحة البلدة، فيما الصبايا يملأن المناشل بالماء من قاعدة الصنابير هناك، كان يتلقّى مزحاتهن. وكانت فاطمة الحامد تطلب منه حين تراه أن يقف قريباً منهن، وتقول: «أنت واحدة منا!»، مشيرة إلى براءته بالطبع، لا إلى ركاكة رجولته. وكان يقف قرب الحائط الحجري العالي، واضعاً إحدى قدميه مرفوعة خلفه، ويحكي لهنّ النكات. في كثير من المرات كانت تظهر مسحة بلاهة عابرة على ملامحه، تزيد في منحه البراءة وانقطاع الصلة بينه وبين الواقع.

وفي المدرسة استطاع أن يتفوّق على أقرانه كلّهم، وفي كلّ المواد عدا الحساب، ولكن الموضوع لم يستطع عرقلة تقدّمه. كان ينتقل من صفٍّ إلى آخر بسهولة، ومرّةً قال لي مفيد الطحان، أستاذه في المدرسة الابتدائية، إنه مستعد لترفيعه صفّين معاً لو كانت القوانين تسمح بذلك. وسوف يكون لمفيد دور مفصلي في حياة فارس في ما بعد، حين انتقل لمتابعة دراسته الإعدادية والثانوية في المدينة، وقد علمت متأخراً، أن مفيد الطحان هو الذي شجّعه على هذا الأمر، بينما لم يكن لدى والدة فارس القدرة على دفع تكاليف الدراسة، فالسكن في المدينة يتطلّب مبلغاً مالياً كبيراً جدّاً قياساً لما ينتجه فلّاحون صغار لا يملكون غير قطعتي أرض، ولكن الطحان تكفّل بتقديم إعانة تكفل استمرار فارس في الدراسة. لماذا؟ لا أعرف لماذا، وفي الغالب فإن الاستفسار عن أسباب النبل والشهامة تشبه السؤال عن سرّ العطر، أو معنى الشلّال. ولكني اختبرت الطحان حين كان يعلّم في السماقيات من قبل وأعرف أنه مصنوع من الجواهر. لم يخيّب فارس آماله في الدراسة. استمرّ ينجح كل سنة دون عثرات. وإن كان بدأ يحمل في داخله ألم الإحسان المتواصل من قبل أستاذه. كان المال القليل الذي يُقدّم له يوجعه، وكان يحاول بكلّ الوسائل التملّص من عبئه على الرجل، فأخذ

يمضي ليلاً إلى ساحة السير في المدينة لينتظر، مع بقية العتّالين، وصول سيارات البضائع أو الخضار والفواكه أو الباصات المبكرة، وهناك استطاع أن يحصل على تلك الأجور التي يمكن أن تسدّد جزءاً من كلفة العيش. لا أعرف ما إن كان مفيد الطحان قد عرف شيئاً عن ذلك، ولكني أعرف أنه لن يواجه فارس بتلك المعرفة أبداً، وقد سارع للبحث عن عمل آخر يمكن أن يساعد الفتى. ولا شكّ أن المصادفات، التي جاءت في ما بعد، هي التي وضعت ذلك الفتى أمام مصيره.

لم يكن وقته الممتلئ بالدراسة من جهة، وبالبحث عن أي عمل من جهة ثانية، يسمح له بترف القراءة. كانت المطالعة تقدّم في المدارس على أنها العمل الذي يشغل أوقات الفراغ، فإذا لم يكن لديك هذا الوقت، فإنك لا تستطيع المشاركة في هذا النشاط. وفي الغالب فإن فارس نسي الأمر، لا توجد في أيامه لحظة اسمها وقت الفراغ، فما إن يصل إلى غرفته الصغيرة التي استأجرها له مفيد الطحان، ويأكل غداءه، حتى يبدأ تجهيزاته لأعماله الأخرى: العتّالة في ساحة السير أو سوق الخضار، حفر أساسات المنازل، ردم الحفر، ترحيل أحجار وأتربة، حمل الأحجار أو البلوك إلى الأدوار العليا من البنايات الجديدة، إلى أن يحلّ المساء، ويعود إلى الغرفة، ليغتسل وينهي وظائف المدرسة، وتحضير الدروس، ثم ينام. برنامج أبديّ مكرّر من الأيام المتشابهة.

ولم يكن ذلك مضموناً على الدوام.. فوجود العمل اليومي هو يومي فقط، إذ لا تعرف المدينة حركة عمل، وإنما مجرّد أنشطة ينفّذها أفراد أغنياء ممن عادوا من المهاجر، أو أرسلوا مالاً لآبائهم، أو إخوتهم ليبنوا بيوتاً جديدة أو يرمّموا ما تبقّى من بيوتهم. ولهذا فقد كانت فرصة الحصول على عمل تبدو مثل يانصيب المعرض: مجرّد دولاب مرقّم يدور في فراغ الحظ.

غير أنه جاء أخيراً، جاء الحظ، جاء مرتدياً كفناً لا مرئيّاً. جاء في صورة عمل جديد توسّط له به، أو قام بتدبيره، مفيد الطحان ذاته، حين عرض عليه أن يساعد الأستاذ سليم الراضي في ترتيب مكتبته. الحقيقة هي أن الأستاذ الشهير الذي كان يعيش وحيداً، أو شبه وحيد، في منزل قديم مطلّ على السهول، في الجهة الغربية من المدينة القديمة، وكانت تعتني به بعد وفاة زوجته امرأةٌ أربعينية، منحها قسماً من المنزل كي تعيش فيه مع ابنتها، كان قد عقد اتفاقاً سرّياً مع الطحان يتضمن جعل الشاب شبه سكرتير لديه، كي يساعده في القراءة وفي التأليف. ترك البند لحرية الأستاذ سليم، ولثقته، أو عدم ثقته بفارس للقيام بهذا العمل، بينما كان ترتيب المكتبة، عملاً ثانوياً، وضرورياً، ولكن يمكن أن ينجز في أيام. ماذا حدث؟

صحيح أن اللقاء الأول بالأستاذ لم يكن سارّاً، ولكن الحماسة الناجمة عن حاجته للمال أولاً كانت كافية لتغطية الخيبة. لم يبتسم له الراضي، ولم يسأله عن الصحة والحال مثلاً كما اعتاد أن تكون المجاملات، واكتفى بدعوته للسير وراءه. عبرا ممرّاً معتماً تغطّيه عرائش كرمة تتدلّى منها عناقيد عنب، ثم فُتح بابٌ خشبي عتيق تقشّر طلاؤه، ودخل وراء الأستاذ إلى المكتبة. في تلك اللحظة شمّ تلك الرائحة التي لن تفارق حواسه بعد ذلك أبداً إلى أن يموت قتيلاً، رائحة الكتب والخشب والطين والحجارة والكلس الأبيض معاً.

عمله اقتصر على تنفيذ التعليمات التي يقدّمها الأستاذ. كان البيت قد أُعيد ترميمه وطلاء جدرانه من الداخل، وإصلاح الأخشاب المهترئة والبلاطات المهشّمة في أشهر الصيف، مما استدعى إنزال كل الكتب عن الرفوف إلى الأرض. بدا له المشهد حزيناً. لم يرَ كتباً بهذا العدد من

قبل، ولا أكداساً تصل إلى السماء، ولا أسماء مؤلّفين وعناوين كتب، ولا رجلاً جعل حياته رهينة الكتب. هذا ما سمعه من أستاذه مفيد، إذ رفض الرجل أن يغادر البلد بعد وفاة زوجته وبقائه وحيداً بعيداً عن ولديه. كانت البنت الكبرى متزوّجة وتعمل في لبنان، بينما كان ابنه في الولايات المتحدة. لم يختر أيّاً من الوجهتين. كان عاجزاً تماماً أمام مكتبته، لا يمكنه أن يغادر المكان قطعاً. لم يكن يخشى أن تضيع المكتبة فقط، أو تُدمّر أو تُنهب، فقط، بل كان يخشى أن يفقد معنى الحياة، وألّا يكون بإمكانه استعادة ما خسره. كان خوفه على حياته يعادل خشيته على تلك المكتبة. ولهذا فقد اختار البقاء، البقاء في المكان أكثر أماناً من الحركة والانتقال والسفر والتغيير، وهذه هي الذرائع التي قدّمها لمن يستطيع أن يسأله. إذ إنّ أسبابه الحقيقية سوف تبدو باهتة وحمقاء، أو مفبركة من الحكايات، أو مصنّعة في عالمٍ خالٍ من الفهم والتدبير. تخيّل أن يذكر مرة واحدة أمام أي شخص أنه لا يستطيع أن ينفصل عن كتبه؟ ماذا سوف يحدث؟ ضحكات وسخريات وهزل وتأليف طرائف عن حماقات الراضي. هكذا سيكون عنوان الكتيّب الأصفر الذي سيكتبه ساهرو الليل. يترك أميركا من أجل كتاب! ولكن تلك هي الحقيقة، وهي حقيقة لم يجرؤ على قولها لابنه أيضاً، فالولد قد لا يتفهّم أن يكون والده عاشقاً لكتبه، أكثر من حبه لابنه وأحفاده. هذا احتمال. مجرد احتمال من أن يفكّر أدهم ابنه مثل هذا التفكير الذي لا يستطيع الأستاذ مواجهته. والحل؟ لم يخطر بباله أيّ شيء إلا حين مرض. ارتفع ضغط الدم وبدأ ينزف من أنفه. أنقذه صديق ابنه، ونقله إلى المستشفى. ومنذ ذلك اليوم كان عليه اتباع وصايا الطبيب الذي قال له: «أنقذك أنفُك، فانتبِه لجسمك!». سيقبل تلك التوصية دون تردّد على الرغم من أنها تحرمه من إحدى ملذّات هذا العالم: الملح. بينما كان بوسعه التخلّص من الدسم، كما صار بوسعه أن يقدّم حلاً لمسألة الهجرة.

فارتفاع ضغط الدم لا يتناسب مع مصاعب السفر، هذه هي الذريعة التي جعلت المرض محبّباً إليه. فليكن! قال لنفسه، إذ لم يبقَ الكثير مما يمكن أن يعيشه في هذا العالم، وسوف يعيش قريباً من رفاق العمر.

كانت المهمة الأولى أمام فارس هي رفع المجموعات التي ينضدها الأستاذ كأنواع إلى الرفوف المخصصة لها. كان يسمع بها دون أن يراها مجسّدة بين يديه: تاريخ. جواد علي. أصنام العرب. تاريخ العرب قبل الإسلام. فلسفة. أفلاطون. سقراط. زينون. روايات: غوركي حياتي. دوستويفسكي. الجريمة والعقاب. تولستوي. بلزاك. الأب غوريو. جرجي زيدان. روايات تاريخ الإسلام. طه حسين. أحمد أمين. مصطفى صادق الرافعي. من هم هؤلاء؟ ومن ذاك وذلك؟ وكيف ولماذا؟ وينظر إلى الأستاذ، فيرى كهلاً موغلاً في الشيب يتفنّن في إعداد الكتب، وكتابة الأسماء، وتسجيل النوع، وترقيم النسخ. يهلّل أحياناً لكتاب، يحرص على أن يتأمل الغلاف، ويقلب الصفحات، أو يتصفحه صفحة بعد أخرى، وهو يهزّ رأسه، كأنما كان يخاطب أحداً يعرفه. هل هو صاحب الكتاب أم هو الأستاذ نفسه الذي قرأ الكتاب من قبل؟ أو يراه وهو يزيل الغبار بفرشاة حلاقة اشتراها لأجل هذا الغرض، ثم يسجّل الاسم، ويرحّل النسخة إلى جانب إخوتها في أيّ مكان، وحين تكتمل الكومة، وهو يراعي أن تكون صالحة للحمل، يطلب من فارس أن يضعها حيث يشير.

وكان فارس يحرص على أن ينفّذ التعليمات بدقّة، فالمكان البهيج المضاء بنور شمس خريفية ناعسة تطلّ من بين الغيوم المبللة برائحة المطر القادم، بدا له، قياساً بساحة السير، وسوق الخضار، وأدراج البنايات، شبيهاً بالجنّة. فإذا أضاف إلى المشهد رائحة الكتب، وألوانها، والغبار الناعم الذي بدأ يسبّب له عطاساً لذيذاً، فإن الأمر كلّه كان واحدةً من النِّعم الربّانية الكريمة.

في البداية كانت الكتب مجرّد حمولة، أشياء ترفع من هنا إلى هناك مقابل أجر، كتل صمّاء من الورق والغبار، أجسام ملوّنة تحمل أسماء أشخاص غرباء ومجهولين يسطرون كلمات وجملاً وصفحات لا تعنيه. لم تكن الحياة قد قدّمتها له إلا كواسطة للتقدّم من سنة دراسية إلى أخرى أعلى منها. ولم يكن الكتاب المدرسي يمثّل دعوة، ولن يكون، للتسلّل إلى عالم القراءة.

كان يعمل قرابة خمس ساعات في اليوم، وبفضل روح الأستاذ الراضي المطّاطة البليدة (هكذا رآها في البداية بينما سوف تصبح روحاً شفافة نقية في ما بعد) فإن ساعات العمل لم تكن متعبة. كان الراضي يعثر أحياناً، فيما هو يجمع الكتب، على غاية ما، يتصفّح الكتاب ثم يمضي في جولة قصيرة داخل الورق، أو يمكث طويلاً أمام صفحة ما. يقرأ هذه المرة الصفحة كأنما لم يقرأ من قبل. وهناك سوف يغيب تماماً، قلّما يسمع من يناديه، وإذا انتبه فهو يعتذر من لطفية أو من يمنى ابنتها، وهو يبتسم، ويشير بيده معاتباً الهواء أو الفضاء. وكان لاستسلامه مفعول مخدّر. تبتسم إحداهن، وتهمهم بجملة ما (هي في الغالب من معجم الرضا والتحبّب) ثم تعود. ولا بدّ أن تلك المواقف قد علّمت فارس أن يخمد ضجره، أو يطمر إحساسه بالملل من القعود الطويل الفاتر بين الأكداس الصامتة من الكتب، إلى أن رفع الأستاذ رأسه ذات يوم عن صفحة الكتاب التي كان يقرأ فيها، ونظر إليه، فيما كان متربّعاً على الأرض، وقال: «هذا الكلام غير صحيح أبداً!». كان صمتٌ متّقد وهّاج يسيطر على المساحة المضاءة بشمس الخريف التشرينية. لا صوت، لا نأمة، لا دبيب، وحين أراد أن يتكلّم، وقد اعتقد أن الأستاذ يخاطبه، أشار له بيده كي يصمت.

بالصمت الذي تعلّمه، بدأ ينشئ علاقته مع الكتب. لا أعرف ما الكتاب الذي بدأ يقرأ فيه، سأفترض أنه بائعة الخبز. أتخيّل كيف عجز عن ترك

الكتاب، ففي هذه الرواية يمكن لأي شخص أن يعلق كما لو كان سمكة تلتهم طعماً. ومن الصفحة الأولى يدرك فارس مغزى الصمت، معنى أن يمضي إلى العزلة وحيداً بعيداً عمّا حوله بينما يقرأ كتاباً.

وابتداء من الكتاب الأول الذي قرأه، تغيّرت المعاهدة بينه وبين الراضي، وقد بدأ الأستاذ يتساهل في الشؤون التنفيذية إذا ما رأى الشاب يقرأ. «لا يهمّ» يقول للطفية التي تأتي وتذهب غاضبة، وقد بدا تطفّل فارس طيشاً غير محسوب من قبل الأستاذ. بينما كان يقول: «إذا ما أُعجب أحدٌ بسطر مكتوب فلا توجد قوة في الأرض تستطيع منعه من أن يعرف ماذا في السطر الذي يليه». هذه طاقة كامنة داخل كل إنسان، ولا يمكننا منعها. ولكن لطفية لم تكن راضية عن النتيجة، فإهمال العمل هو ما تراه، والتراخي والكسل هما الوصف المناسب للقعود الطويل الذي رأت أن فارس قد انزلق نحوه، وقالت ليمنى إنه لا يستأهل أجره. وهناك احتمال أن تكون قد نبّهت فارس إلى ذلك.

ويبدو أنه توقّف عن القراءة، وكان قد قرأ ثلث كتاب النبي، وعاد إلى العمل وفق البرنامج الذي أعدّه الراضي، كانت قد تراكمت بعض الأكداس، ولكنها لم تكن كثيرة ولا صعبة، وكان بوسعه أن يحملها في ساعات، وهو ما قام به. وزاد على ذلك هذه المرة بأن أعاد ترتيب المجموعة التي حملها من كتب الفلسفة بحسب أحجامها. كان الفعل لا يزيد عن مهام التزيين، وهو ما جعل الأستاذ يضحك. لم تكن في ضحكته أيّ سخرية، أو شماتة، أو أسى. بل سرورٌ طيّب بهيّ أعقبه بأن طلب من فارس ألّا يعيد تكرار الأمر. وشرح له أن الكتب لا تقف بحسب أطوالها أو قاماتها، بل بحسب معناها.

وكان أمامه طريق طويل قبل أن يفهم ويعرف معنى العبارة. طريق عبّده

ببطء وجَلَد وقوة وحب. وبفضل الأستاذ استطاع أن يجد منفذاً للصلح مع لطفية أيضاً: إذ إنه سيقوم بالعمل كاملاً في النهار لقاء أن تسمح له بالبقاء مساء في المكتبة كي يقرأ. لم يكن بوسعها أن ترفض، علماً أنها كانت تريد أن ترفض، فوجود الشاب في الدار مساء يعني أنها ستتحمل أعباء حراسة البيت كلّه بوصفه احتمالاً للعشق، أو للتحرش، أو للإغواء. خاصة أنها رأت يمنى، ابنتها، وهي ترسل تلك النظرات المبلبلة الحائرة نحو الفتى. كانت يمنى في السادسة عشرة من عمرها، وهي سن الحب في زمنها، سن الإعداد لخطوبة قادمة. وهي سن المخاطر والتدابير الاحترازية الضرورية بالنسبة لأرملة فقيرة تعيش من تدبير منزل الأستاذ العجوز.

غير أنها كانت عاجزة عن نقض المعاهدة مع فارس بسبب وجود الأستاذ الراعي لها، وباتت عاجزة أيضاً عن تحديد مواعيد مغادرته من البيت ليلاً. فالقراءة لها الأولوية. وكانت مضطرة للبقاء ساهرة، تنتظر ذهابه، كي تغلق البوابة الكبيرة من الداخل، فضلاً عن اضطرارها للبقاء متيقظة خوفاً من التحرّكات المشبوهة. وعلى الرغم من أن فارس لم يُبدِ أيّ غشٍّ في الاتفاقية، أو أيّ خروج عن النص، ولم يرتكب أيّ مخالفة، بل إنه لم يكن يرى يمنى في الحقيقة (ولم يقل عن نفسه إنه كان حماراً، كما هي عادته، إلا حين عاد إلى السماقيات، ووجد أنه كان يحب يمنى، بينما كانت البنت قد أضحت زوجة لحسن البتار)، بل كان يبالغ في غضّ بصره كلّما دخل أو خرج. أو كان يمازح يمنى بطريقته المغلقة التي لا تتضمن أي علامة يمكن أن يُفهم منها أنه يتجاوز حدود اللياقة. وربما كانت طريقته هذه قد جعلت البنت تعجب به، دون أن تحبه. ترتاح لوجوده. ويحتمل أن تروي له قصة حبها لجارها، أو للشاب الذي يسرّح شعره على حافة السطوح المقابل. فمثل هذا النوع من الرجال يقترب من روح النساء كثيراً،

لكنه لا يعرف أن لهن أجساداً تشتاق إلى لمسات أصابعه. كانت الحياة تتفتح أمامه من باب واحد. وقد ظنّ أنه الباب الوحيد المتاح من فرصها القليلة، إذ حصل على عمل، وصار يأخذ عشر ليرات راتباً شهرياً، إذ إن الراضي طلب منه بعد الانتهاء من ترتيب الكتب استمرار المجيء، والعناية بالكتب التي كانت تتعرّض للغبار، أو تفحّص خشب المكتبة، أو ملاحظة ما إذا كان فأر أو جرذ قد تسلّل يوماً ما وقرض كتاباً.

لا أعرف الأستاذ الراضي، ولكن ليس لدي من شك أنه استطاع أن يكتشف ذلك الشغف الوليد الذي تغلغل في كيان الشاب الريفي الطيب، شغف الكتب، شغف القراءة. ولكن الحياة لم تمنح فارس فرصة كافية تحت تلك الرعاية. فقد اعتُقل الراضي بعد سقوط دكتاتورية الشيشكلي بخمسة أشهر، ولفّق له المكتب الثاني تهمة غريبة هي المشاركة في مؤامرة لقلب الحكم. وبينما كان يصرخ في زنزانته هاتفاً إنه لا يعرف كيف يضغط زناد بندقية، أو إنه لم يرَ بندقيةً في حياته إلا في الصور (أنا أصدّقه) فقد ظلَّ في المعتقل ستة أشهر.

أثناء تلك المحنة عومل فارس بقسوة. ولم تكن لطفية قادرة على احتمال وجوده، على الرغم من أنه كان يكاد لا يدوس على الأرض، كما قالت يمنى ابنتها وهي تحاول أن تردعها، أو تشاكسها، أو تخفّف من غضبها المتقن داخل صوتها وجسدها وحركاتها غير المفهومة. وحين قالت مرّة لها إنه مثل النسمة، كادت لطفية تجنّ؛ لقد اعتقدَت أنه تمكّن بجاذبيته الغريزية من اصطياد ابنتها، وهو ما لم تكن تريده أبداً، فقد صارت تعرف فقره، أو شحاره، كما كانت تصف وضع فارس المعيشي، ولن تسمح بذهاب ابنتها الوحيدة إلى تلك المجاهل المقفرة الجرداء الممتلئة بالنسّاك الدجّالين.

كان حسن البتّار، وهو ابن تاجر أقمشة معروف في المدينة، قد خطب يمنى من أمها، وقد قبلت لطفية الطلب دون أن تستشير أحداً من أقربائها. أتمّت إجراءات الخطوبة سريعاً، وطُلب من فارس أن يتوقف عن المجيء إلى الدار. لم ينفع تدخّل مفيد الطحان، فقد أعلنت لطفية أنها لم تعد صاحبة الرأي هنا بوجود حسن، وطلبت أن يخرج من العمل مؤقتاً ريثما يعود الأستاذ الراضي.

لم يكن بوسع أحد أن يتدخّل بعد ذلك، فذريعة الحفاظ على السمعة قادرة على بتر أيّ واسطة. ولم يكن فارس مستعدّاً للعراك بعد أن وُضع في امتحان الأخلاق. حدث هذا إلى جانب انقطاع راتبه الشهري في غياب الأستاذ، فكانت تلك هي الضربة القاضية لحياته العامة، إذ لم يكن بوسع أمه أن تقدّم له أيّ معونة مادية، وكان الطحان عاجزاً أيضاً، ولهذا فقد قرّر ترك المدرسة، والعودة إلى السماقيات، ليدرس البكالوريا دراسةً حرّة. وحين خرج الأستاذ الراضي من السجن، كان قد نال الشهادة الثانوية، ووُضعت حياته كلّها على مسنّنات عربة أخرى هي عربة المستقبل.

***

في الأشهر التي أمضاها في السماقيات بعد عودته، كان قد تغيّر. لم تعد لديه تلك التعويذة اللذيذة التي يجذب بها الآخرين من حوله. وقد أغلق على نفسه باب الحرية زاعماً أنه يستعدّ لامتحان البكالوريا. والحقيقة هي أن نوعاً من الزهد المطعّم بالضجر كان قد تغلغل في روحه بعد تجربة الطرد من جنة بيت الأستاذ الراضي. وكان اعتقال الأستاذ قد أشعره بنوعٍ من الخزي، أو العار، من أن تكون دولةٌ كاملة بعتادها وجيشها وشرطتها ورجال الحكومة فيها تستشعر الخوف من كهلٍ متعب مغبر. ولكن صمت فارس استدعى تدخّل الآخرين، فالشباب الذين من سنّه، والبنات

اللواتي اعتدن أن يرينه متجوّلاً في أزقّة القرية، أو بجانب حنفيات الماء، لم يعجبهم ولم يعجبهن سلوكه المنغلق. تحرّشوا به بلا توقف. اصطنع الشبان مواقف مضحكة آملين أن يسمعوا تعليقاً من جانبه. ومنهم من سأل ما إذا كانت عزلته صفة جديدة من صفات الحمار. غير أنه لم يعلّق، ولكنه كتب في يومية صغيرة كان يسجّلها على ورق أسمر صغير إن التعليق كان بمنزلة اكتشاف بالنسبة إليه، فلا أحد مثل الحمار قادر على أن يكون سيد العزلة. ولكن الحمرنة كانت حزينة هذه المرّة، وقد استمرّت إلى أن أنشأنا مكتبة السماقيات. لم يضع أيّ شروط على العمل، مجاناً عمّي توفيق، قال لي، وعندي خبرة كافية بترتيب الكتب وعمل الفهارس، قلت له إنها مكتبة صغيرة قياساً إلى مكتبة الأستاذ الراضي، فقال: «حتى مكتبة الأستاذ كانت صغيرة في البداية»، ثم أضاف: «رح تكبر المكتبة!». وسرعان ما تراجع عن حماسته، واعتذر مني، وقال: «هذي حمرنة خالصة مني. صرت بدّي قدّلّك رايات». كانت حماسته أصيلة تستطيع إنارة الدروب. ولم أكن قد انتبهت إلى لهجته التعليمية. ضحكت. وضحك.

لا أعرف ما إن كان الله سوف يحاسبني على هذا الذنب، إذ لم أكن أعلم (كيف لي أن أعلم؟!) أنني كنت أضعه على درب موته، أو مقتله.

6

(امتلأت السماقيات برجال الشرطة. لم أكن أفهم ماذا يحدث. اقتحموا بيتنا وهم يحملون بنادقهم مصوّبة نحونا. سمعت أبي يقول للضابط الذي يقودهم: «البيت مفتوح. فتشوا!». كان وجهه معتماً وبلا ضوء. فاقتربت منه، وأمسكت يده، وقلت له إن صلاح يستطيع أن يدلّهم على الشيء الذي يبحثون عنه إذا قالوا له ماذا يريدون. كان أخي صلاح أكثرنا مهارة في معرفة البيت، فلا تستطيع أمي أن تخبئ أي شيء دون أن يتمكّن من معرفة مكانه: السكّر، الملبّس، كراميلا الأعياد، بسكويت الضيافة. لكن أبي شدّ على يدي، ونظر إليّ، وقال: «هُسّ!».

جاء لطفي الجمل وصار يركض من جهة إلى أخرى وهو يصرخ: «الأوباش! الحرامية!». لاحق رجال الشرطة من مكان إلى آخر داخل بيتنا، ثم خرج وغادر الدار دون أن يسلّم على أبي. صرخت وراءه حين صار قرب البوابة: «يا عمي لطفي، وقعت مسبحتك!». فنظر إليّ بعينين ناريّتين، واستدار، ولمّ المسبحة عن الأرض، ومضى. فقال صلاح الذي كان يقف بجانبي: «لا عاد تقول له يا عمّي!». نظرت إلى أبي كي أرى ما إن كان موافقاً على التوصية، فأشاح ببصره بعيداً. لكنّه ظلّ ممسكاً بيدي. كانت كفّه ساخنة. أحسست بدمه وهو يجري في عروقه، فلم أقل شيئاً. ماذا

أقول لرجل واقف أمام بيت ينقضه شرطي؟ ماذا أقول لرجل واقف أمام موظّف حكومي يرسل كتاباً إلى العدم؟ ماذا يقول للعدم؟ ولكني لم أجرؤ على رفع صوتي بسبب كل ذلك الضجيج الذي كان يخلّفه وجود شرطة يأتون ويذهبون، يدخلون إلى الغرف ويدوسونها ثم يخرجون ويؤدون التحية لضابط يضع عصا غليظة تحت إبطه، لم أكن أعرف اسمه حينئذ. ماذا يمكن أن يقول أبي لضابط يسأله عن اسم المؤلّف إذا داس مرؤوسه على الورق؟ الضابط يقدّم لأبي كتاباً ممزّقاً بلا غلاف ويقول: لمن هذا الكتاب؟ فيجيبه أبي: أعِده إلى الحياة كما كان فأقول لك!

أبي! كان عليّ أن أقول له وأنا واقف ممسك بيده (بينما كان قبيل ساعة هو الذي يمسك يدي): لا يموت الكتاب إذا كنت قد قرأته!

جاءت أمي وأختي ووقفتا قربنا. لم أفهم كيف استطاعت أمي فضة أن تقف هناك وتتفرّج على شرطة يوزّعون دعسات أحذيتهم على أرضية منزلها الممسوحة بالصابون؟ كيف استطاعت أن تتحمّل نبش شراشفها البيضاء؟ كيف لم ترتجف أمام معبدها الذي ينهار تحت وقع صراخهم؟ كيف أرادت أن تصرخ ولم تصرخ؟ كيف فكّرت بأسيادها الذين في السماء دون أن تطلب نجدتهم؟ ففي كل مرة كان أحدنا يخطو داخل البيت وهو قادم من الخارج كان يسمع الصرخة: «اشلح برّه!»، وكانت تضع شحّاطات نظيفة مناسبة للدخول. كان رجال الشرطة قد توزّعوا داخل غرف البيت توزّعاً عشوائياً، ترك لهم الضابط حرية الدخول والخروج والتفتيش. لا أعرف ما الذي كانوا يبحثون عنه، سألت أبي، ولكنه رفض أن يجيب عن سؤالي، واكتفى بأن قال لي بحزم: «اسكت ولا عاد تسأل!». انقضّ شرطيان على قنّ الدجاج، فرّت الدجاجات وهي تصرخ وتصيح. أمسك كلّ واحد منهما باثنتين وذهبا في اتجاه إحدى السيارات التي تقف

على جانب الطريق. قال أبي للضابط: «كما ترى.. الدجاج أيضاً لا يحب الشرطة». أظن أنهما كانا قد اختلفا بالكلام قبل ذلك. عرفت الأمر من صلاح الذي أخبرني حين ذهبنا إلى غرفتنا أن ذلك الضابط أراد أن يرغم أبي على أن يقول إن السماقيات كانت بلا مكتبة، وإن الكتب مجرد خيال ووهم وأكذوبة صاغتها حكايات مجنونة للناس. وأن أبي قال له إنه لا يستطيع محو الزمن.

لكني لم أعرف لماذا أراد ذلك، وكيف يمكن أن ننكر وجود شيء رأيناه جميعاً؟ قال صلاح إن المكتبة لم تعد موجودة ويمكن أن يقال إنها لم تكن موجودة. المسألة هي الفارق بين كلمتين، لم تكن ولم تعد، فلماذا يتعب أبي نفسه بالنقاش الذي كانت نتيجته هجوم الشرطة على بيتنا. كان صلاح غاضباً جدّاً، وكان يقول إن كل الكتب في الدنيا لا تساوي دموع أمي أو خوف أختي نادية.

لم يكتفِ رجال الشرطة بتخريب مكتبة أبي، فتّشوا غرف الموؤنة، وفتحوا الكوارة، فهرَّ منها القمح على الأرض، وكسروا جرّة كبيرة كانت جدتي تملؤها بالسمن العربي كما قالت لنا أمي يوم كان جدي يتاجر بـ«الحلال». سمعت صوت الفخار المتكسّر، وحين نظرت إلى الداخل من وراء سور الشرفة رأيتهم يدوسون القمح، ويسكبون الزيت على الأرض. فأغمضت عيني، وعدت راكضاً، واختبأت خلف الجدار. وصرت أهمس، ولكن صوتي خرج كما لو كان حشرجة: «بيكفّي.. بيكفّي!»).

7

(أستيقظ متأخراً كلّ يوم منذ أن انتقلنا إلى المدينة. لا يصيح الديك هنا، ولا ينهق الحمار، ولا تسمع جرس المرياع يدقّ معلناً ذكورته وسلطته أمام النعاج. انتهت أصوات الذكريات، إذ لم يمضِ شهر حتى بدأت تختفي من ذاكرتي روابطي القديمة. ربما كانت تلك محاولة للمساعدة من قبل عقلي الباطن للتخلّص من البلدة التي أنهت وجودنا فيها بمكر وقسوة لا أفهمهما حتى اليوم، بسبب مكتبة.

لا أنكر سعادتي التي هيمنت على المشاعر الأخرى، بل إنني بدأت أميل سريعاً إلى الآية التي سمعت أمي تردّدها: وعسى أن تكرهوا أمراً وهو خيرٌ لكم! لم أكن قادراً في البداية أن أفهم المغزى الذي يعتمد على التناقض، فقد كانت أمي تنتحب وهي تودّع ماضيها الجميل، دون أن تعلم أي شيء عن مستقبلها الذي تذهب إليه قسراً. لا تشويق البتّة في الرحيل، ولا جديد، ولا مثيرات ممكنة غير الوعود التي راحت تقدّمها لنا أمي فضة محاولة أن تكسر فداحة الخسائر بتطويحات لغوية من نوع: بكرة بتشوفوا! وعسى أن تكرهوا! واتكلوا على الله! وأخيراً تلك العبارة الحاسمة (أو القاصمة) التي قالتها لنا: «لا تخلّوا حدا يشمت بتوفيق يا ولاد!». ولأنها تفهم ألغازه أو مقاصده سريعاً، فقد نشفت دموعها حالاً، كأنها لم تبكِ قطّ

من قبل، تبدّلت نبرات صوتها، وتغيّرت حركة الجسد من الكسل والتراخي البليد، إلى اندفاعات متتالية، جعلت البيت كلّه مثل النحل.

كنا وحيدين، وكان الصمت في وداعنا. أغلقت البلدة كلّها. لم أرَ باباً ولا نافذة مفتوحين طوال ذلك النهار، بل مجرّد مكانٍ منطفئ متوجّس مهجور من البشر. صمتت الكلاب والحمير والبغال والخيل، بينما وقفت دجاجاتنا ذاهلة تراقب حركة التحميل الصاخبة، بأعين جاحظة محتارة، تشهق الهواء خلف الشباك الحديدية. لم أسمع نأمة غريبة واحدة من جهتها، وفي الغالب فإنها هي أيضاً كانت قد عرفت الاتفاق الذي آلت بموجبه ملكيتها كاملة إلى عمتي نوفة.

ما كنت أستطيع أن أحسب الممكنات الطيبة في الأيام القادمة، كان الاقتلاع القسري من البلدة يجعل الأشياء من حولنا بلا لون. وحتى المدينة التي كنا نتوسّل إلى أبي أو أمي كي يصحبا أحداً منا إليها، بدت بلا وجه. بلا جاذبية الأحلام. وبفضل مهارات كثيرة كان يمتلكها توفيق الخضرا، فإن التدابير المتعلّقة بالبيت الذي سنستقر فيه قد أُعِدّت من قبل. تغيّرت شاشة الرؤية، ولكن سهل حوران ظلَّ مرئيّاً لي، يمكن تتبّع القرى الجديدة التي تظهر في الغرب، ليلاً أو نهاراً. كما أن براعة فضّة المجرّبة في توزيع الأثاث، أي إظهار ما يلزم إظهاره، وإخفاء ما يجب إخفاؤه من الأشياء والكراسي والأرائك (ما تبقّى لدينا بعد غارة الشرطة) والوسائد والمساند والسجاد والبسط واللوحات المطرّزة، وتقسيم المنزل بين أفراد الأسرة إذا أمكن، يمكن لذلك كله أن يعيد شيئاً من نظام حياتنا الذي تمّ تدميره تماماً، بعد أن أُرغمنا على الرحيل. غير أن المؤكّد هو أنه لن يكون متاحاً لها أن تمدّ رجليها على قدر البساط (كانت مغرمة باقتناء البسط الصوفية)، بل على قدر الحجارة فقط. فالبيت الذي نزلنا فيه كان في المدينة القديمة،

وفيه ثلاث غرف ومضافة فقط، بينما كانت هناك خرائب حجرية لا تصلح للسكن في ذلك الوقت. وهكذا أخذ المطبخ مكانته التي لا يمكن لأحد أن ينازعه فيها، ثم غرفة للمعيشة المشتركة، وهي التي ستنام فيها أمي والبنات، وغرفة للأولاد الذكور: أنا وصلاح وفواز. لم تقل من يعترض، فلا الزمان يسمح بذلك ولا المكان. دخلنا في زمن الطاعة التي تستجيب للقدر. بينما أخذ توفيق الخضرا المضافة الصغيرة التي تتصل بالدار بباب صغير من الداخل، وتنفصل عنها بجدار عالٍ من الحجر.

لم يخطر ببالي أن تغيير المكان لا يعني انتقالاً في الأرض فقط، بل يحمل معه، دون استشارتنا، مصائر مختلفة لم تكن ممكنة لولا هذه الحركة. وحين بدأ العام الدراسي كانت المصائر قد بدأت بالتشكّل، لم تنجح تجربة توفيق الخضرا في الدكّان. لا لأن المدينة كانت قد بدأت تتغيّر تحت وصاية الحزب الحاكم، ومنطق الاقتصاد الذي يديرونه فقط، بل لأن المكان الذي اختاره (لم يختره بل كان المتاح الوحيد) كان بعيداً عن وجهة الناس، معزولاً، ومحايداً، وسط متاهة الحجارة تلك. كان يبيع بضعة أغراض في النهار كلّه، يبقى هناك منذ أن تشرق الشمس إلى أن تغيب، ثم يأتي متعباً وذليلاً. أراه وهو يهزّ رأسه دون أن يقول كلمة واحدة، غير أن الأسى يقتات من اللحم والجلد وبريق العينين. لم يعد يقرأ كما اعتاد أن يفعل من قبل. ينظر إلى مكتبته التي مزّق الدرك أغلفة الكتب فيها، ولا يمسّها. كأن الغلاف هو العلامة التي تجعل الكتاب قابلاً للقراءة. أو كأنه كان ينتظر أن يعتاد المكان.

أتصفّح كتبه الحزينة التي لم تُمسّ. وأمضي وقتاً طويلاً وأنا أبحث عن غلاف أحد الكتب، وقد خيّل لي أنني رأيته في مكان ما من البيت. بدا لي أن الكتب عارية دون أغلفتها، لا أعرف من أين تأتي هذه الفكرة التي

تجعلني أرى أن ما أفكّر به موجود لديّ، فأمضي للبحث عنه في أرجاء البيت دون جدوى. هكذا هو الأمر، لا يمكنك أن تجد غلاف كتاب سبق أن مزّقه رجال الشرطة، أو أتلفوه. كنت أغافله وأقرأ، دون أن أعلم أنه كان يغافلني ويكتب.

لم تجرِ الحياة كما نريد، ولكنها لم تعاندنا كثيراً، بدأ الدكّان مثلاً يعمل، صحيح أنه كان بطيئاً، ومثقلاً بالديون والترّهات التي يتحصّن وراءها الزبائن المتشدّدون في أسعار المواد والسلع، ولكنه مشى أخيراً، وبدأنا نرى كيف كان توفيق الخضرا يمسك دفتر الحسابات بحثاً عن أرباح التاجر. صارت المدّخرات تضع بسمة على ثغر أمّنا.

اشتروا لي قميصاً وبنطلوناً جديدين، وانتعلت حذاء أخي صلاح الذي كان يكبرني بسنتين (كان هذا الموضوع مساحة لنقاش طويل بيني وبينه، فمنذ منتصف الصيف طلب مني أن أقبل انتعال الحذاء بدل شراء حذاء جديد لي، رفضت، واعتبرت الأمر تحايلاً دنيئاً يبغي تجريدي من حقوقي، ولكنه كان يقسم لي إن الحذاء ضاق على قدميه، إنهما تكبران أكثر مما يزداد عمره، ماذا يفعل؟ لم أصدّق إلى أن رأيت دموعه وجروح قدميه المدماة. ذعرت حين قال لي إنها مسامير). وكانت الحقيبة الجديدة هي الرشوة الأبوية (فهما لم يعلما بنقاشاتنا) التي قُدّمت لي من أجل الرضا بالحذاء المستعمل. كان صلاح يبتسم لي من بعيد، متواطئاً مع النتائج، وهو يزهو بحذائه الأسود اللامع على أرضية الشرفة).

8

قال لي هاني إن الأجزاء الأربعة من الشوقيات كانت معروضة للبيع في الرصيف المجاور لسوق الخضار في المدينة. قال إنه رأى كتاب أحمد شوقي بالمصادفة حين كان يقلّب المجموعات التي يعرضها ذلك البائع الجوّال، ولم يشتره. قال لي إنها نسخة قديمة جداً، ومهترئة، وقد اتسخ غلافها الخارجي، فضلاً عن أنه لا يحب الشاعر، ويمتعض دائماً من مواقفه المتقلّبة تجاه التيجان. غير أن الملاحظة التالية التي ذكرها، هي التي أثارت انتباهي حين قال ساخراً إن أحداً ما كتب على غلاف إحدى النسخ: مكتبة السماقيات، ثم قهقه وأضاف: «وتخيّل أنه وضع لها رقماً تسلسلياً!». لم أقل له إنه ليس من الضروري أن أتخيّل أي شيء، لأنني أنا من يبحث منذ سنوات عن ظلّ، أو إبرة، نتفة من خبر، عن مكتبتنا التي نُهبت ذات يوم من السماقيات، لم أقل له إن هذا الكتاب كان واحداً من بين ثمانمئة أو أكثر بقليل من الكتب التي اختفت ذات يوم من بلدة السماقيات في بداية عقد الستينيات من القرن العشرين. ولم أعثر أنا، أو أيّ شخص ممن طلبت منهم أن يزوّدوني بأي معلومة، طوال السنوات الماضية في أيّ مكان على أيّ أثر لتلك الكتب.

لكني لم أجد البائع هناك، وحين سألت أحد جيرانه من باعة الفواكه،

ضحك وهزّ رأسه، وقال إنه ما إن يبيع بضعة كتب حتى يلمّ أغراضه ويغادر البسطة. لم يكن في المكان أي بسطة، وفهمت أن الرجل يغادر المكان جارّاً عربة من ذات الدواليب الثلاثة المصنوعة محلياً. وقال جاره إنه لا يعرف اسمه، ولكني أظن أنه كان يكذب لسببٍ ما.

أخذت الكتاب بقوّة وبصمتٍ، في اليوم التالي، حين وصلت. لم يكن قد مضى على وصول البائع سوى القليل. وغالبت رغبةً عميقة في إظهار فرحتي الغامرة به. حضنته كأنما كنت أحضن كنزاً، ووعدت نفسي أن أدفع أي ثمن يمكن أن يطلبه البائع. غير أن الرجل بدا غير آبه بي وبه، وأبدى تأفّفاً من إلحاحي في السؤال عن سعر الكتاب، حين أخذ يخوض عراكاً للمساومة على كتاب تراثي ضخم مجلّد بغلاف أحمر، وخطوط ذهبية عريضة.. آثرت أن أقول «الكتاب» على الرغم من أنه يتألّف من أربعة أجزاء، ولكن البائع، الذي لم يكن قد رأى الكتب الأربعة التي أحملها، انتزعها من يدي، وصار يتأملها كأنه يراها للمرة الأولى في حياته. نظر إليّ من الجانب، كما لو كان يريد أن يتهمني بالاحتيال. ولأنني لا أحمل أي بغضاء لأولئك الذين قد يكتشفون سريرتي الداخلية، فقد تواطأت معه، وهززت كتفي، مع حركة ابتسامة خفيفة تلطّف الجو. اشتريت كلّ جزء بسعر مختلف حسب الحجم، أو الجِدة، أو مزاج البائع. لم يكن المبلغ كبيراً، إذ لم يزد عن ستين ليرة، بينما كان سعر الجزء الثاني في عام 1958، وهو العام الذي صدرت فيه هذه الطبعة من الشوقيات، أربعون قرشاً مصرياً.

على الصفحة الأولى من كل جزء من أجزائها الأربعة، كُتب بخطٍّ ناعم ذي أحرف مستقيمة ثابتة: مكتبة السماقيات. الرقم 38. لا مجال للشك أو الريبة، فلون الحبر الذي كُتبت به عبارة التعريف بالنسخة كان دليلاً على الزمن. وهو ما زاد لهفتي على الكتاب.

الحقيقة هي أنني منذ أن دُمّرت المكتبة، ورحلت إلى المدينة، وأنا

أحاول أن أقنع الناس الذين أحدّثهم عن المكتبة، أنها حقيقية. في الغالب كان كل من يستمع لي يبتسم ابتسامة ما، سأحاول هنا تلخيص الابتسامات قبل أن أدخل في الحقائق. فمنهم من يعتبر أن الاستماع لي بينما أعيد التأكيد على حقيقة بناء المكتبة إنما هو نوع من الخيال الشفوي لرجل فشل في أن يكتب رواية. ومنهم من كان يبتسم لي كي يقول لنفسه: ولكن أين الدليل؟ ففي كل الأحوال لم أستطع طوال السنوات الماضية أن أعثر على كتاب واحد من كتب تلك المكتبة، وبعضهم الآخر يردّد أنني مجرد شخص يريد أن يبني حكاية، بينما يرى الواقع يتقدّم ضد الحكايات.

وهكذا فقد صارت بالفعل مكتبة خيالية لم يكن لها وجود قط من قبل. غير أن العثور على كتاب الشوقيات كاملاً، كان أمراً يفوق الخيال بالنسبة لي، فبعد أن فقدت الأمل في إثبات وجود تلك المكتبة، يظهر من العدم تقريباً واحدٌ من كتبها، على رصيف تنتشر فوقه الشتائم والصرخات وقشور البرتقال والموز وصيحات الباعة، بعيداً عن مكان وجودها واختفائها أكثر من عشرين كيلومتراً!

يبدو لي أن الكتاب لم يُقرأ كثيراً، هذا غريب بالنسبة لشاعر شهير مثل أحمد شوقي، ولكن أحد القرّاء، والراجح عندي أنه قد استعار الكتاب ولم يمتلكه، أخذ صفحتين من الجزء الثاني، وفيهما قصيدة شوقي المعروفة «نكبة دمشق». أعرف القصيدة، ولكني حزنت على المدينة التي تتوالى عليها النكبات منذ أزمان بعيدة، ولا أعرف ما إن كان ذلك القارئ أراد أن يمحو النكبة من الكتاب، أم أن يحفظ سيرتها في خزانته؟ وعدا هذا فإنك لا تجد في أيّ مكانٍ آخر أثراً لقارئ محتمل مرَّ بالقلم أو بالإصبع على القصائد. ولهذا فإنه لا يقدّم أي إشارة على المصير، أو الانتقال بين أيدي القرّاء، ومن المحتمل بحسب القراءة البوليسية التي أستند إليها في هذه اللحظة، أن يكون واحداً من المجموعة المسروقة أو المختفية كلها التي

لم تُقرأ في العقود الماضية كلها، أو أن يكون الشخص الذي اقتناه قد سطا عليه من المخبأ، وقام بإخفائه أيضاً.

عدت إلى رصيف الكتب في اليوم التالي، كان البائع قد أزال لثام الأمس الذي اتقى به البرد، ولكنه لم يعرفني. بدا كأنه يراني للمرة الأولى وأخذ يقدّم شرحاً عن بعض الكتب الكاسدة لديه. لم يكن في كلامه أيّ شغف أو معرفة، وبدا خاوياً من المهام العظيمة لباعة الأرصفة الذين عرفتهم في دمشق. فكّرت أنه مجرد سمسار عابر يبيع الكتب بلا هواية. حسناً، قلت لنفسي، يتصف السماسرة بكثرة الكلام، وتبذير الأسرار، مقابل الرنين المعتاد للنقود، فقررت أن أشتري كتباً أخرى من البسطة. أعترف أن وسواساً داخلياً همس لي أن الحظ قد يصادفني بين هذه الأكداس العشوائية التي تتراكم في انتظار العابرين. ولكني بعد أكثر من نصف ساعة من البحث لم أعثر على أي شيء مفيد، لم يظهر أخ آخر للشوقيات، ولم يلفت نظري غير كتاب فرانز فانون: «معذّبو الأرض». وحين سألت البائع عن ثمنه، أخذ يحكّ ذقنه، ويفكّر، وقال لي إنني غلبته بالأمس حين أخذت أربعة كتب بسعر كتاب واحد. تجاهلت الملاحظة، وابتسمت له، ودفعت خمسين ليرة ثمناً لكتاب فانون.

نظر إليّ باستخفاف حين سألته ما إن كان بوسعي معرفة الشخص الذي باعه الشوقيات. مشى إلى آخر البسطة ووقف هناك يفكّر، ثم أشعل سيجارة، ونفث دخّانها في الهواء، ثم عاد. سألني كم كتاباً أريد أن أشتري، فأعدت السؤال السابق نفسه. سألني هل أدخّن، قلت: لا. قال أنا أدخّن، قلت: هل ستقول لي؟ قال يمكن أن أخفض لك السعر إذا أخذت أكثر من كتاب.

بملاحظتي للطريقة التي يحاور بها المشترين أدركت أن استنتاجاتي كانت خرقاء، وأن وراء مظهره الطائش الكليل يختبئ ثعلب كمائن ماكر.

لم يكن يمنح أحداً أي جواب مناسب عن الأسئلة التي تخرج عن موضوع المساومة على الأسعار، وبالمقابل فهو يفرض منطق الحوار بلا وهن. وسريعاً انتبهت إلى أنه كان قادراً على تصحيح المعلومات لأي زبون كما لو كانا يتشاركان متعة تبادل المعارف: هل قلت إن اسمه سعيد حوراني؟ أم أنني سمعت الاسم هكذا؟ وقبل أن يجيب الشاب الذي سأله عن الكتاب أضاف إنه يعرف كاتباً اسمه سعيد حورانية، وقال إنه يعتقد أن: «وفي الناس المسرّة» له. «صحيح؟». لم يقل الزبون أيّ كلمة. اكتفى بهزّ رأسه، بينما كان ذلك الشيطان المعبأ في بنطلون من الجينز الباهت يقول له إنه سوف يبحث عن الكتاب. «تعال بعد يومين» قال له. وحين غادر الزبون قلت له إن مهلة يومين لا تكفي للبحث عن كتاب نادر، فقال أعرف، والكتاب موجود لدي، ولكن يجب عليه أن يأتي بعد يومين كي أعرف ما إذا كان يريد الكتاب أم لا.

كان كتاب سعيد من بين الكتب التي ضمّتها المكتبة. أذكر الكتاب جيداً بغلافه الأزرق وعنوانه المكتوب بالأحمر. كان الكاتب السوري قد أصدر تلك المجموعة في الخمسينيات بينما كانت الشرطة تطارده. أظن أنه كان يتسلّل ليلاً إلى المطبعة هارباً من رقابة الشرطة في المكتب الثاني كي يطبع مجموعته القصصية الأولى، كان في الرابعة والعشرين من العمر، وقد استطاع أن يضع اسمه بقوة في دفتر القصة القصيرة. وقد عمل هنا في تلك الفترة، وشكّل مجموعة ثورية صغيرة، خاضت ما يمكن أن نسمّيها حرب العصابات المبكرة في منطقة اللجاة ضد ديكتاتورية أديب الشيشكلي، ودامت لمدة أربع وعشرين ساعة أو أكثر قليلاً.

سألته ما إذا كان يستطيع أن يحضر لي نسخة من الكتاب نفسه، فصار يحكّ ذقنه (سوف أعرف في ما بعد أن هذه الحركة ستكون تعبيراً عن الهواجس) وقال لي: «حسب!». فهمت منه أنه شبه سمسار، أو وسيط،

بين من يرغبون في بيع مكتباتهم، والزبائن. كان معظم من يفعلون ذلك غير راغبين في نشر أسمائهم بين الناس، وكانت مهمته هي تقديم هذه الخدمة لهم، مقابل جزء من الثمن. لم يكن لدي أي سبب للتشكيك في روايته، وقلت له إنني مقتني كتب، وأستطيع شراء الكثير مما لديه، فضحك، وعرّفني اسمه: فوزي النجار، وعنوان بيته.

كان بيته في الحيّ الفوقاني من المدينة القديمة، عمارة من الحجر المصقول، لها شرفة أعمدة حجرية، وإطلالة على الغرب، حيث تظهر سهول حوران. كانت داراً من تلك الدور التي تزيّنها أعمدة منحوتة على الطراز الروماني الذي ينتشر في آثار المنطقة، وهي تحمل على رؤوسها ذات الزخارف النباتية قناطر مزيّنة بأشكال حيوانية محلية، الذئب والضبع والثعلب والنيص وابن آوى، وكانت كلّ واحدة من بينها تجلس تحت شجرة بلوط أو سرو أو صنوبر أو صفصاف. لم أرَ مثل هذه المنحوتات الصخرية في أي مكان من أوابد المنطقة التي يكثر فيها النحت الروماني، إذ كان فنانو ذلك العصر يقتصرون في أشكالهم النحتية على الزخارف النباتية، أو يمجّدون شجرة العنب التي يشتهر بها الجزء الجبلي في الشرق.

أدخلني إلى مضافة صغيرة لها باب داخلي متصل بالدار، ولكني لم أسمع أيّ صوت، فسألته ما إن كان يعيش وحيداً هنا، فقال إنه شبه وحيد، لأن زوجته مريضة، ولا تستطيع الحركة، وأولاده الثلاثة في المدارس. بدا رجلاً آخر. فقيراً أكثر مما كان يظهر على الرصيف، وضعيفاً آيلاً للتهدّم. من أنت؟ قلت له في نفسي، وهو يغادر المضافة ليحضر الشاي. من الواضح أن كثيراً من السنوات العجاف قد التهمت كيانه. هنا في البيت يظهر كما هو، دون ألاعيب السوق، وأدوار الاحتيال، هكذا فكّرت للوهلة الأولى. حين عاد، جلس قبالتي، ورشف قليلاً من كأسه، وقال: «عرّفتك باسمي، وبقي أن أعرّفك بنفسي: أنا مَن ضيّع في الأوهام عمره!».

كدت أضحك، وغالبت نفسي، وأنا أفكّر في هذه البداية الغنائية التي تثير السخرية. كنت أحب عبد الوهاب وعلي محمود طه الذي اقتنينا له في المكتبة «ليالي الملّاح التائه»، و«أرواح شاردة». ولكني لا أحب أولئك الذين يسرقون الأفكار وينسبون المشاعر لأنفسهم. لا أستطيع الجزم فيما إذا كان فوزي صادقاً، فقد نسب نفسه إلى شعراء الحداثة قبل أن يهديني كتابه الشعري الأول الذي أخذه من خزانة محشوّة بنسخ منه، بينما أراه يستعين بأشهر شعراء الرومانسية كي يعبّر عن وجدانه الشخصي. يمكن لبداياته أن تشبه شعر الستينيات كلّه، خاصة في سورية، إذ كان شعره مشبعاً بشتائم المدينة (أي مدينة هي هذه يا فوزي؟) وذمّ الزمان، والشكوى من فقدان الحب. هذا ما قرأته في ديوانه الصغير الذي أصدره في عام 65 عن دار نشر دمشقية لم أسمع بها من قبل هي «دار بردى». غير أن هذا ما كان يعنيني إلا بالقدر الذي يمكّنني من تتبّع آثار المكتبة لديه. والظاهر أن الديوان الأول قد دمّر حياته تماماً، فعدا الخسائر المالية التي تكبّدها بسبب اضطراره لطباعته على حسابه، فإن المجتمع المحلي قابل التجربة باحتقار. فأنصار الشعر الحديث كانوا أقلية، بينما تعتبره الأكثرية مجرد شخبطة طائشة لا يمكن أن يستعان بها في الحياة، فضلاً عن أن كل من رأى الكتاب وعرف أنه لموظّف صغير كان يسخر منه دون اطلاع. ولم يهتم به أساتذة الأدب في المدينة، وهُم المرجع في تقييم النتاج الإبداعي، أو لم يأبهوا بوجوده، في حين كانت أسماء السياب والبياتي ودرويش وعبد الصبور تملأ الأذهان. ربما كان الفشل لا الخسارة هو الذي جعله يستدرّ البكاء على حياته. فقد عمل موظّفاً في ديوان شركة الكهرباء، ولا يزال هناك كما فهمت، وهو عمل لا يستجيب للتطوّر، ولا يتغيّر البشر فيه. رتابة يومية بيضاء يابسة ليس فيها أي لون، وسلالة من الفقر المتراكم الذي يغلق العالم أمامه. وفي تلك الأيام استطاع الشيوعيون أن يضمّوه

إلى حزبهم، كانت أفكارهم هي الحل الذي أمل أن يتحقق. ولكنه سرعان ما شعر بالملل، «شعرت أن الحلم بعيد جداً». ربما هو على شاطئ آخر قد نحتاج إلى عشرات السنين قبل الوصول إليه. وماذا أفعل هنا؟! ولكنه حين ترك الحزب اكتشف أن صفحته الشخصية باتت ملوّنة بالأحمر في كل مكان ذهب إليه. وقال له مدير الدائرة إنه سوف يبقى هنا في هذا المكان حتى يموت. كاتب في ديوان يسجّل طلبات الناس فقط، بينما سيبقى طلبه محجوزاً على رفّ الانتظار.

وحين بدأ يبيع كتبه، اكتشف سرّاً فظيعاً هو أن العشرات حوله كانوا ينتظرونه. بدا مثل رسول مبيعات مبعوث من الربّ. أذكر تلك السنوات، والغريب فيها هو أن مقابل كل بائع كان يولد مشترٍ جديد. نعم. صدِّقوني! أعرف أن المعلومة صعبة التصديق، ولكن تلك هي الحقيقة التي تقابل حقيقة أن الفقر والعوز كانا أيضاً يدمّران الآمال كما دمّرت آمال فوزي النجار.

غير أن الشاعر جعل من بيع الكتب حرفة أخرى استطاعت أن تردف حياته. ففضلاً عن فرص القراءة، إذ كان يمضي كثيراً من الوقت تحت مظلّته في قراءة ما يحصل عليه من الكتب الجديدة من مكتبات الآخرين، كانت الأرباح حقيقية، خاصة أن كثيرين ممن يبيعون مكتباتهم يستظلّون بظلّه، فيفرض عليهم شروطه التجارية. تختفي أسماؤهم وراء وجوده الحيّ في سوق المدينة وهو يعرض الكتب على بسطته. صار فوزي بهذا حافظاً لأسرار المفقرين، بينما صارت بسطته أحد أهم المراجع في المدينة. فإذا احتاج أحدهم كتاباً ما، فإن أول من يتجه إليه ليسأله هو فوزي النجار، وسوف يكون الجواب إما بالإيجاب، أو بالتأجيل قليلاً ريثما يتدبّر العنوان. ولم يحدث مرة واحدة أن قال: لا. وبفضل ذاكرته المطعّمة بالمعرفة الطويلة للكتب، وللناس، بات قادراً على معرفة المقتنين، والهواة،

والمبتدئين في عالم القراءة، والدجّالين المتفرّجين من بضع نظرات. وهو الأمر الذي ساعده لا أن يبيع الكتب فقط، بل الأوهام أيضاً. سرعان ما استطاع أن يدرك لعبة الحياة، وهي تلك التي يستطيع فيها أن يمنح أولئك الذين يزورون بسطة الكتب ما لا يوجد في الكتب. كيف؟ قال لي إن كل شخص يصل إلى البسطة ويتجوّل فيها لا يبحث عن الكتب، بل عن شيء آخر، عن الأوهام التي يريد أن تمنحه إياها الكتب. وكان هو الذي يستطيع أن يقدّم جردة واسعة منها لكلّ نوع من أولئك الزوّار.

كان أغلب زبائنه من الشباب، أو من النساء البالغات. لا تستغرب، يقول لي، فالشباب كانوا أكثر الناس حلماً في ذلك العصر: عصر الأحلام، عصر الأمنيات. وكنت أعرف أنها مجرد أوهام. أو أنها مجرد ترّهات. ولكن كان عليّ ألّا أقول لهم ذلك، ففي كل كتاب زوادة ما لمحتاج، يأخذ منه ما يشاء، بينما تجري مياه الواقع حرّة متعرّجة صاخبة موحلة بعيداً عنه. هذه هي قيمة الكتب يا أستاذ. أن تقول لك أشياء يرفض الواقع أن يصرّح بها، أو يقدّمها. الشعر والرواية والمسرح والفلسفة كلها تحكي عن بدائلنا التي نشتهيها، وأنا أزيد عليها بشروحي الخاصة التي تزيد من توابل المعنى. أضف بعض الفلفل على مشروع الثورة وسوف ترى أنك تلهب مشاعر هؤلاء الصغار الذين يكرهون زمانهم، ويظنون أن الغد أفضل دائماً. متى كان الغد أفضل؟ كان الغد متضمّناً بالضرورة في القراءة، أو في تلك الكتب التي يقدّمها بنفسه للزبون إذا رأى أنه يبحث عن الساعة القادمة، ثمة شبان يعتقدون أنهم سيجدون الحب هنا. طبيعي، قال، لا وجود للحب إلا في الكتب. الحب هنا مقطّر، بلورات مخبّأة في صخرة.

ولدى كلّ زبون علبة فارغة مخزّنة في رأسه، ربما، أو تحت إبطه. لا يهمّ. فهي جاهزة دائماً كي تُملأ بالوهم، الوهم بصورة حلم. هكذا كان بوسع فوزي النجار أن يتحف معظم أولئك الذين يأتون إلى البسطة

بشروحه الممتلئة بأفكار من عنده. وكانت الحركة تتم على هذه الصورة: يأخذ الكتاب المختار من يد الزبون، ثم يقلّبه بين يديه، ويصدر آهة إعجاب، أو يصفّر، أو يرفع حاجبيه، ويقول له: «ومن أين حصلت عليه؟ أين وجدته؟» كأنه يرى الكتاب لأول مرة، وكأنه هو الذي سوف يشتريه. ثم يوجّه لنفسه اللوم، ويظهر أنه كان يبحث عن الكتاب منذ زمن بعيد، وقد أضاعه بين هذه الأكوام. أترى؟ كذبة واحدة من العيار الثقيل كافية لتنويم السيد القارئ العاشق. كان يعرف ماذا في الكتب، بفضل قراءاته الطويلة، وبفضل حاسة فريدة قادرة على المعرفة من خلال تقليب الصفحات. يقرأ بقلبه وبعينيه معاً، ويعرف بهما أيضاً. وعندما يرى أن الزبون قد نضج تماماً، بعد شيّه وتقليبه في جمر الغربة والغيرة، يتلو عليه المزمار اللازم المستمد من فحوى الكتاب. هل يصدّقون ملاحظاتك؟ أكيد، فقد بات قادراً بفضل القراءة والتدريب على تأليف الكتب إلى جانب الكتب، كانت الأفكار تأتيه كما لو من نبع، تتدفق إلى مخيّلته ثم إلى لسانه كي يتلوها على الزبون صافية مركّزة ومعجونة بالحياة. وماذا لو اكتشفوا أنك كنت تخدعهم؟ صار يضحك من سؤالي. ومن قال لك إنهم يقرؤون الكتاب كلّه؟ لا أحد يقرأ كتاباً كاملاً إلا أولئك الذين يعشقون الكتب، وهؤلاء أقلية لحسن حظه، ولم يصادف من بينهم سوى القليل من الناس. وأقسم أن أحداً لم يأتِ لسؤاله عن فكرة ضاعت، أو معلومة لم يجدها. كانوا يجدون ما يريدون ويذهبون في اتجاهه كلٌّ على حدة. يسألون عن المستقبل وأنا أزوّدهم بنصائح من الماضي.

لم يكسب مبيعات الكتب فقط، ففي أحد الأيام جاءت فتاة وحيدة وطلبت كتاباً، لم يستطع أن يردّ. فجأة أحسّ أنه لم يعد قادراً على الكلام، أو الحركة، أو التجوّل بين الكتب باحثاً عن طلبها. فأفأ قليلاً وكاد يقول لها إن الكتاب ليس لديه، وإنها يمكن أن تأتي في الغد، وهي إحدى حيله

الماكرة لاختبار حماسة الزبون، لم تكن تلك المرة الأولى التي تأتي فيها الفتيات للسؤال عن الكتب، بل كانت المرة الصاعقة، المرة الوحيدة التي تأتي فيها فتاة وحيدة. وتسأل ما إن كان لديه كتاب في التاريخ، تاريخ؟ أي تاريخ؟ قال لها إن التاريخ لا يلائم النساء قطعاً، فهو يحتوي على كمية كبيرة من النفتالين، وإن من الأفضل لها أن تقرأ رواية لأنها في الغالب تكون مزوّدة بالعطور. رواية؟ أي رواية؟ سألت بدورها. ثم ألغت الطلب، وقالت بمرح، أعطني رواية، أي رواية، الروايات نقطة ضعفي. كان القط الجاثم بداخله قد استيقظ في تلك اللحظة. غمغم، وكاد يموء مواء طويلاً صاخباً. وراح يفكّر في القدر. كان في الثلاثين من عمره، وقدّر أن الفتاة في الثامنة عشرة، وهذا يعني أن بوسعه أن يقدّم لها زوادة الأحلام كاملة. ومن أجلها ابتكر طريقة الإعارة. جاءت الفكرة من باب المكر أيضاً. وسرعان ما أيّدت الفكرة، وطلبت دفتراً كي تكتب اسمها في صفحته الأولى. وهكذا ترك البسطة في عهدتها آمناً، ومضى إلى مكتبة العطار، واشترى دفتراً جديداً، وقلماً، وعاد مسرعاً دون أن يفكّر لحظة واحدة في أنها يمكن أن تغادر المكان. لم تغادر بالطبع، كانت في انتظاره هناك، وأخذت القلم وخطّت اسمها: هند سامي أبو مطر.

في ما بعد ظلّت تأتي وتستعير الروايات، ولكنهما لا يتحدّثان عنها، ولم يخطر بباله مرة واحدة أن يسألها عن أيّ حكاية أو قيمة أو معنى أو شخصية أحبتها، بل استبعد في كل مرة فكرة السؤال. إذ كان ثمة خوف خفيّ محرج من أن تكون تلك المرأة، التي بدأ يحبها، لا تقرأ الكتب. أولاً لأن هذا يعني أنه يُخدع في عرينه، وثانياً كي لا يتسبب الجواب في زعزعة العاطفة الناشئة التي بدأت تنبت في صدره. يعترف لنفسه بهذا، بينما كان في السابق يعلن لأصدقائه ومعارفه ولأمه، قبل أن تموت، إن المرأة كالبئر: معتمة وعميقة وخطرة إذا كانت ممتلئة بالماء، بقدر خطورتها إذا كانت

شبه فارغة. كانت صورة البئر غريبة تماماً، فليس في المدينة أي بئر. ولكنها كانت تظهر دائماً في مكان ما من مخيّلته، داخل المساحة القرمزية التي تظهر حين يغمض عينيه: بستان وشجر مزهر، ربما كان لوزاً، وبئر دائرية مسوّرة. دون أن يستطيع إيجاد الرابط مطلقاً. وربما كانت مجرد كوابيس، بينما كان يظن أنه يستعيد أجزاء من حياة سابقة عاشها في جيل آخر.

وبقدر انتباهه للقصد الخفي وراء طقس القراءة والاستعارة والكتب، لاحظ أنها كانت تحسب المسافة حساباً مدروساً بعناية. تقترب حين ينشغل عنها. تلحّ حين لا يبالي (يحدث هذا أحيانا حين يكون مشغولاً بصفقة أو بيع كتاب لأحد الزبائن). يعلو صوتها (قليلاً فقط) حين يبدي نفوراً (لماذا وأين). وهكذا لم يعد لديه أيّ شكّ في هواها، ولم يكن لديه شكوك في تعلّقه بها، فحين تتأخر عن الموعد يراقب الطرق ملهوفاً. يحدّق في الجهة التي اعتادت أن تأتي منها، ثم يجيل بصره في الشوارع التي تتقاطع مع الشارع الفسيح المجاور لمَطْخ المدينة، حيث اعتاد أن يبسط كتبه في تلك السنوات. فتأتي أخيراً وهي تحضن الكتاب. يا للهول! يشعر أنه سعيد وأن الشارع والمحلّات وسيارات النقل الصغيرة التي تقف إلى جانب جدار المطخ الحجري، تحتفي بها. أيّ بوق يُطلق، أو بائع ينادي، أو صاحب محل يعرض بضاعته، إنما كانوا يحتفلون بوصولها. وكان يقول لنفسه إنه مغرم، لقد أضحى عاشقاً، ولكنه لم يستطع أن يجد شبيهاً له في أي كتاب أو رواية، لم يكن الحب هناك مثل حبه. وصار يتلكأ في الحقيقة أمام بعض الزبائن الذين يسألون عن قصص العواطف.

وكانت هند الثرثارة قد بدأت تقدّم له المساعدة، وسرعان ما أدرك أنها كانت تفهم ما يريد، بل إنها كانت تعرف ما تريد منذ البداية. وبدأت تلقي على الزبائن، حين تكون هناك، أفكاراً مبتكرة من وحي قراءاتها. وخاصة حين يكون الزبون راغباً في شراء أو استعارة كتاب قرأته. أما من يستعير

فهو يتلقى درساً مختلفاً عن درس من يشتري. كان بوسعها أن تغيّر النهاية، أو الوسط، في أي رواية، متجاوزة آراءه.

ربما شعر بالخطر في تلك المرة التي لخّصت فيها رواية آنا كارنينا. أحس أنه يضيع، يصغر ويتلاشى أمام سردها الفخم، بصوتها الرخيم، لا لأنها راحت تعدّد مزايا آنا، أمام ذلك الرجل ذي الشاربين الفاحمين، بل لأنها كانت آنا نفسها.

لعن نفسه ولعن الكتب، لعن الساعة التي قرّر فيها أن يُنشئ دفتر الإعارة، فبواسطته تمكّنت هذه الأفعى من التسلل إلى حياته، والالتفاف حول عنقه. نعم، تماماً حول عنقه حيث تقوم بخنقه رويداً رويداً. وبسبب الشغل فإنه لم يتمكّن من متابعة الحديث بين هند والرجل ذي الشاربين الفاحمين. واضطر للابتعاد عنهما، دون أن تتوقف عيناه عن النظر إليهما ومراقبة الطريقة التي تخاطبه هند فيها. راح قلبه يدق على طبل صدره الذي يبس. شعر أنه يكاد لا يقوى على الوقوف. وردّ على أحد الزبائن بنزق قائلاً إن الكتاب الذي يطلبه ليس لديه، بينما كان الكتاب أمامه. ورغب في الصراخ، وفي الإعلان عن أنه لا يريد أن تكون هند زوجته. ثم نبّهه صوتها وهي تهتف: هيبي! وكان في صوتها ذلك الرنين الرخيم الذي يحبه، وهي تقول: «تفضّل، بعت لك كتابين!»، فأخذ النقود منها وهو ذاهل. ثم خطر له فجأة أن يسأل نفسه ما إن كان لها أهل؟ أب أو أم أو إخوة أو أخوات؟ ولكنه لم يجرؤ، فمن الطبيعي أن فتاة اسمها هند سامي أن يكون سامي هذا والدها. فأين سامي المحترم كي يبعد هند عنه وعن بسطة الكتب؟

ولكنه اكتشف حين غادرت الرصيف أنه اشتاق إليها. تمنّى لو ظلّت هنا. كانت لها رائحة صمغية نفّاذة. وجدها في الكتب، ووجدها في دفتر الإعارة الذي كانت تسجّل فيه حصتها. وجدها في قلم الرصاص،

والممحاة. كانت حاضرة في الأشياء كما لو أنها جزءٌ منها، كما لو أن الكتب والدفاتر والأقلام صناعتها الممزوجة بعطر الصمغ العتيق.

وفي تلك الليلة بقي ساهراً إلى الفجر، بينما كانت هند، في ظنونه، تبني علاقة جديدة مع الشاب ذي الشاربين الفاحمين. لم يستطع في الحقيقة، على الرغم من مشاعر الحب التي غمرت كيانه تجاهها، في ذلك اليوم، التخلّص من تلك الصورة التي رآها فيها تشرح للشاب، وهي مسحورة، قصة الحب التي عاشتها آنا كارنينا. لعن نفسه، ولعن تولستوي، وآنا، ولعن تلك الرواية البائسة التي أوصلها إليها بنفسه.

ماذا يفعل؟ ليس لديه ما يؤكّد أنها غازلت الشاب، ولكن لم يكن لديه ما ينفي ذلك. فوقفتها الناعمة، وإشارات يديها المزهوّة، ورقّة صوتها (حين كانت تصل إلى مسمعيه بعض عباراتها) إشارات يمكن أن تسجّل لها، وهي تسوّق كتبه، أو عليها وهي تسوّق نفسها. أيّهما كان يمثّل الحقيقة؟ هذا ما سوف يجعله يمضي الليل بلا نوم. وإذا كان يلعن المناسبة، فالسبب هو أنها كانت تلك أول ليلة في حياته يعجز فيها عن النوم. فالعادة هي أن يضع رأسه على الوسادة، ويستدير نحو الجنب اليمين أو اليسار ويغفو. لا يذكر في الصباح شيئاً عن الليل سوى ما يريد أن يتذكّر. لم يكن في حياته برنامج للهوى والعشق واللوعة والجوى والكلف وغيرها من بنات اللغة اللواتي يسبّبن الأرق. ولكنه الآن لا يستطيع النوم. هل كان هذا هوىً أو جوىً أم لوعة أم عشقاً أم شغفاً؟ وإذا كان فعلاً أيّ واحدة منها فإن حقده سيصل إلى السماء على من أوجد تلك المشاعر، أو من وضعها في طريقه.

وفي تلك الليلة اكتشف أضرار الطريقة التي قدّم فيها العالم لقرّائه، ومنهم هند، فقد صدّقت أن الحب المثالي هو حب آنا، وآمنت بآنا، وبدأت تسوّق حبّها بين الناس. ومن المسؤول عن ذلك؟ أنت وحدك يا فوزي

النجار. وكان عليه أن يتخذ موقفاً سريعاً يعالج به الموقف. كان عليه أن ينقذ هند من الأوهام التي زجّها فيها وصدّقتها. وإذا كان من قبل يسوّق الأوهام والأحلام فقد كانت غايته المنفعة. ولا توجد إلا طريقة واحدة لفعل ذلك، وهي أن يخطبها. بدت له الخطوبة التي اقترحها على نفسه الحل الواقعي المستعجل لإخراج هند من المسّ. كان لديه العديد من المقترحات التي فكّر بها، منها مقترح المكاشفة أو قول الحقيقة: لا تصدّقي كلّ ما تقرئين! ولكنه شعر بالعار من أن ينزلق أخيراً إلى تكذيب نفسه أمامها بسبب ظنون خرقاء زرعها السخط.

بعد أيام قال لها إنه يرغب بزيارة أهلها، فقالت: «أمم». وماذا تعني هذه؟! قالت إنها تعني أهلاً وسهلاً مسبوقة ببعض التفكير، ولكنك يمكن أن تأتي. ثم قالت إنها ستكون سعيدة بحضوره. ورسمت له على الورق خريطة بسيطة للبيت. كان الوصول إلى هناك يتطلب المرور أمام منزل سعيد نصّار، صديقه، فتمنّى ألّا يصادفه في الطريق. وفي يوم الجمعة التالي مضى إلى هناك. كانت الشوارع خالية تماماً من البشر كعادة المدينة في هذا اليوم. لا محلّات ولا مارة ولا سيارات. لا يحب المدينة في هذا اليوم. يشعر أنها تكره نفسها، وتنتظر العطلة كي تختفي من الحياة.

قالت له أمها إن أباها ميت وإنها هي المسؤولة عن البنتين، فعزّاها بموته، فقالت: «صارت عظامه مكاحل» بلا أيّ حزنٍ أو أسى. وحين جاءت هند ووداد قال لهما إنه عرف منذ لحظات فقط أن والدهما قد مات، وعزّاهما، فقالت هند إنها تتذكّر أباها كما لو كان خيالاً، ولكنها لا تعرفه. بينما قالت وداد إنها لا تعرفه، ولكنها تحب صورته. لم يعرف أي واحد من بين أصحاب الصور المعلّقة في صدر غرفة الضيوف هو والدها. فأحضرتها له. كان سامي شابّاً في الثلاثين من عمره تقريباً، يبتسم للمصوّر، وكانت له شامة على خدّه، وتحتها شاربان أسودان. تبادل هو وهند نظرات

سريعة خاطفة متسائلة. أغضت بصرها، وابتعدت عن مرمى بصره. أراد أن يقول لها إنه يعرف شيئاً ما عن الشاب ذي الشاربين الفاحمين، ولكنه خشي أن تبدو كلمة الفاحمين سقيمة أو متحذلقة مما قد يثير الضحك. كان سواد شاربي الشاب هو المثير لا شارباه. لهذا فإن استخدامهما دون الصفة يعطّل رسالته التي تتضمن اكتشاف اللعبة الخفية وراء استعارة الكتب. اللعنة! تذكّر أن ذلك الشاب كان يأتي باستمرار إلى البسطة ويستعير الكتب أو يشتريها. لكنه لم يقل شيئاً. كان مشغولاً في الوقت نفسه بأختها الصغرى، وحين قارن بين الفتاتين وجد أنه يميل إلى وداد أكثر من هند. لماذا؟ هل كان الشاب هو السبب؟ أم أنه لا يريد الارتباط بالفتاة التي تشاركه لعبة الحياة؟ ما أرعبه أن هند اقتربت منه حين بقيا وحدهما، وهمست: «ما رأيك بوداد؟»، فقال بفتور إنها جميلة، «جميلة بس؟!». لم تكن جميلة فقط، ولكنه لم يجرؤ على الكلام. لا يستطيع أن يقول لها إنها فاتنة! كان يريد أن يصرخ قائلاً: «إنها ساحرتي، حلوتي!». ولكنه آثر أن يبدو غافلاً عن الدلائل. الحقيقة هي أنه كان مذهولاً وحائراً في طبيعة الإرسال السريع للخواطر بينه وبين هند. وحدّث نفسه قائلاً إنها وحدها من تستطيع فهمه والعيش بجواره. وسمعها تقول: «اسمع. أتمنى أن نبقى صديقين مثلما كنا». هل تعلم بالغيب؟ بدا له أنه صار كتاباً تقرأ هند في صفحاته ما تريد. لا بل ما تراه في الحقيقة. ألم يعجب بأختها فعلاً؟ ألم يفكّر أن الزمن قد يعينه على التقرّب من الصغيرة بدل الكبيرة؟ ألم تخرج هند من قلبه بسرعة تعادل سرعة الدخول؟ وفي تلك اللحظات أدرك أن ضميره يتغلّب على قلبه، وأن أخلاقه تقف في وجه رغباته. وها هي ذي هند تقطع كل الطرق المحتملة في الوصول إليها، وتطلب أن يظلّا صديقين. حيّره هذا. لم يكن بيت النساء محروساً من قبل أيّ رجل، ومع ذلك فإنهن يستقبلنه كما لو كان أخاً، أو قريباً، ويقدّمن له الشاي والقهوة. وهي تريد أن يبقى صديقاً.

ماذا يعني ذلك؟ وماذا يعني أن تسأله عن جمال وداد؟ تفضّل يا فوزي وخذ خبرتك من الكتب، تفضّل واسأل أيَّ كتاب عن أحوال هند!

لم يعد لزيارة المنزل في الشهر التالي. يقسم أن الأيام كانت تسرق منه الوقت اللازم للزيارة، وأن الأشغال تراكمت، كان أكثر من خمسة أشخاص يريدون بيع مكتباتهم بداعي السفر. مكتبات صغيرة تضم ثلاثين أو أربعين كتاباً، وواحدة كبيرة فيها ثلاثمئة كتاب. فكّر أن يذهب إلى بيت هند ويطلب منها مساعدته في إجراءات الشراء. وسوف تكون مناسبة لرؤيتها ورؤية وداد وتجديد الصحبة مرة ثانية، ولكنه لم يجرؤ. وصار يجدّف ضد المسافرين، كلّكم تريدون ترك هؤلاء الكتّاب لنا؟! لم يقل الكتب، وخاض مع أحمد الفرنك أول معارك المساومات وأكثرها شدّةً، كان الفرنك يدرك قيمة الكتب التي سيبيعها، ويدرك في الوقت نفسه طبيعة فوزي. وقال له بصراحة إنه لو كان يساوم تاجراً لأعطاه إياها بثمن أقل، فالتاجر يبيع الكتب، وأنت تبيع الكتب وأحلامها معاً. التاجر يشتري بضائع يمكن تسويقها وأنت تشتري بضائع كاسدة. وعليك أن تدفع مقابل ذلك.. كان الرجل مسافراً إلى أميركا، وقال إنه سواء نجح هناك أم لم ينجح فلن يعود. دع أصحابك ينقذونك!

قال لي: «كانت تطعمني خبزاً». وماذا أطعمت الآخرين؟ قال إنه لا يعرف، فمصير الكتب بعد أن تغادر بسطته سيكون مجهولاً بالنسبة له. فكّرت أن ما حدث في مكتبة السماقيات كان عكس ما يقول فوزي النجار، فبينما تختفي الكتب بعد أن يبيعها، تظهر كتبنا بعد اختفائها. قلت له ذلك، فحاول أن يزعم أنه لا يعرف شيئاً عن المكتبة، أو عن مصيرها. كذّاب، قلت له في نفسي، ثم واجهته بكتاب الشوقيات، وقصص سعيد حورانية. لكنّه أصرّ على أنه لا يعلم شيئاً عن الموضوع. وحين علا صوتانا قليلاً، مرّت فتاة في سن العاشرة من أمام النافذة. كانت ترتدي

ملابس التلميذات. ولوّحت له من خلال الزجاج، وأرسلت قبلة وضعتها على كف يدها الصغيرة. فقلت: «تزوّجت؟»، قال: «طبعاً، ما الغريب في الأمر؟»، قلت: «لا غرابة أبداً، ولكنّك لم تكمل قصتك». فصار يضحك وقال: «لم أكمل قصتي ولكني أكملت حياتي»، وبسبب الفضول سألته من هي التي تزوّجها، فقال: «وداد». كان قد تزوّج وداد بعد ذلك، وأنجبا بنتين. وأين هند؟ سألته. لا وجود لهند. من هي إذاً؟ قال إنها لا أحد. إنها مجرد حلم، أمنية. هكذا. قال إن شقيقة زوجته اسمها هند بالفعل، ولكنها لا تشبه هند في حكايته. كانت الفتاة مجرد حلم. أمنية تمناها طوال عمره، وكانت تدور في أحلامه. فقد ظلَّ طوال عمره محروماً من النساء، وكان يخاف من الكلام معهن، ولم يجرؤ على قول كلمة حب لأي بنت قبل أن يرى زوجته، ولا يعرف النساء أبداً. ولهذا كان يخترع لنفسه امرأة ويحكي لأحد ما عنها. كان يحلم بهنّ، ويؤلّف القصص عنهن. ومعظم تلك القصص كان هو محورها. هكذا عرفت أن حياته مليئة بقصص النساء، وخالية منهن. أما زوجته فكلّ ما تملكه من الحقيقة هو اسمها، بينما بنى البقية لخدمة أحلامه.

فجأة خطر لي أن أساله ما إن كان يعرف إبراهيم حسني عثمان. فقال: اسمع! لا علاقة لي بانتحاره أبداً. لم نكن صديقين، ولكني فوجئت بما فعل.. ففي أحد أيام الخريف، وجد ذلك الرجل واقفاً أمام كتاب. كان ينظر إليه بعينين ذابلتين ووجهٍ خالٍ من التعبير تقريباً. فقال له: «رواية عظيمة»، فسأله الرجل عن مضمونها. كان قد قرأ رواية السراب منذ أيام فقط، وسخر في أعماقه من رؤبة، ومن عضوه التافه، وكان يفكّر كيف أن الربّ يطعم بعض الناس النساء، وليس لديهم حيل أو قوة، بينما يحرم آخرين ممن يمكن أن يكون لديهم ظهر ثور.

لم يقل شيئاً من ذلك للرجل، وعرض عليه كتباً أخرى لنجيب

محفوظ. «الثلاثية؟» سألته. فنظر إليّ وقال: «هذا شغلي». أوضحت له أنني لا أهتم بما يبيع أو يشتري، ولكن يهمني أن أعرف من الذي باع له الكتب التي تحمل خاتم السماقيات. وماذا يهمّك؟ قلت له: لأنني واحد من الذين شاركوا في بناء تلك المكتبة، وإنني أريد فقط أن أعرف مصير الكتب والناس. لم أذكر له شيئاً عن جريمة قتل فارس أبو لوز، خشية أن تكون سبباً في زيادة تكتّمه. كان التكتّم جزءاً من عمله، وقد اعتبره مقدّساً، ولم يمسّ به قطّ، فأسماء من تخلّوا عن مكتباتهم ظلّت قيد سرية تامة، ولهذا فإن أحمد الفرنك مستعار بالكامل، ولا وجود لشخص يحمل هذا الاسم أو هذه النسبة. وحين وجدت أنه بدأ يلين أقسمت له إنني لن أصرّح بالاسم الحقيقي الذي سوف يذكره لي. كانت هذه هي الحقيقة:

لم يكن اسم فاروق التاجي يمكن أن يخطر ببالي أبداً، كان خارج أي موضوع من هذه المواضيع، شخص من هؤلاء الذي يختارون البقاء في الظلال طوال أعمارهم، بعيداً عن أي ضوء أو شمس. وفي الغالب لا يراه أحد. أذكر أنه كان منسيّاً على الدوام في ذاكرة أهالي السماقيات، ينسون دعوته إلى الأعراس أو الأعياد أو أي مناسبة عامة في القرية، ولا يذكر وجوده لاعبو الورق إلا حين ينقص إحدى المجموعات لاعب من أعضائها. لهذا ظلَّ خفيّاً، بعيداً عن المراقبة، موجوداً في المنطقة المعتمة لعالم القرية، يأكل ويشرب وينام في الأماكن الفارغة غير المخصصة لأي ابن آدم. دون أن يشتكي أو يلوم أحداً. وحين يكون موجوداً بين الآخرين لا يسمع له أحد رأياً، ينتظر أن يقول شخص ما الذي يريد أن يقول، فيكرّر عباراته. يكرّرها كما لو كانت من تأليفه، ثم يضحك لنفسه. لم يكن أحد يغضب منه، أو يمتعض من مشاركته التافهة، أو يشكو من حضوره. إذ كان صمته يمحوه. وخاصة أنه أبدى مهارة دائمة في اختيار مكان لجلوسه في البيوت والمضافات والساحات بعيداً عن المنافسة. لهذا بدا لي مجيئه إلى

رصيف الكتب حيث يبسّط فوزي النجار عملاً خبيثاً مدبّراً من الشخص الأكثر دهاء في السماقيات. من هو؟ ففي كلّ مرّة زار فيها فاروق بسطة فوزي كان يحمل تحت إبطه بضعة كتب. لا يساوم على السعر أبداً. يتلو ما استظهره في البلدة دون أي تغيير أو رغبة. وسرعان ما فهم فوزي الأمر، فليس لدى فاروق ما يقوله، ولكن لديه الكثير مما يردّده. بدا له مثل دفتر عتيق مهلهل صيغت بداخله كلمات معجمية لا أمل في تغييرها. خمس ليرات أو سبع ليرات أو خمس عشرة ليرة أو عشرون أو ثلاثة لا فرق، كلّها مجرّدة من المرونة والحياة.

ولم يفكّر أن يسأله. بل إن وجود اسم مكتبة أو رقم ما على أغلفة الكتب لم يُثر اهتمامه. فالسماقيات بعيدة جداً، ووجود شخص مثل فاروق الحسن يسجّل اسم البلدة على أغلفة كتبه، لا يثير غير الضحك. هكذا أقنع نفسه بالمسألة، وربما خطر له أن يكون الحسن مجرد مبعوث أخرق من قبل آخر يريد التخفّي (وهذا ما اعتاد أن يراه دائماً ويتفهّمه). ولكن وجود مكتبة عامة في آخر ما عمّر الله، كان خارج كل حساب.

هل أصدّقه؟ تبدو الحبكة بسيطة للغاية، ومن المستبعد أن يكون بوسعه اختراع شخصية مثل فاروق، بسبب نوع الكيان المسطّح الخاوي الذي يمثّله، وبسبب ما أعلمه من حب فاروق للعزلة والعتمة والابتعاد عن الناس. وإذا ما خطر ببال فوزي أن ثمة مؤامرة وراء هذه الصفقة، فقد كان سيوقفها حالاً دون تردّد. كانت المؤامرة تعني وضعه في مطحنة الأسئلة الجنائية، وكساد شغله، وربما وأده إلى الأبد.

9

(لم يكن بوسع توفيق أن يذهب إلى السماقيات حرّاً. فمنذ أن ضاعت المكتبة، وقُتل فارس، تكاثر أعداؤه.

ومثل كتلة الروث التي تدفعها الخنفساء أمامها، تراكمت كراهية غامضة متآمرة ضده، وبينما يفسّرها لطفي الجمل في ما بعد بأن السبب هو شخصية توفيق المتسمة بالتسلّط والفوقية، والصراحة الجارحة التي تفتقر إلى البصيرة أحياناً، في كشف عيوب الذين حوله أو أخطائهم. أقدّر أنا أن السبب هو إحساس قلبي لدى أكثر من شخص بأنهم كانوا مكشوفين تماماً أمام شعاعه الروحي القوي.

ومن بين أهالي السماقيات يمكن القول إن أقرب أصدقائه، وهو لقمان لقمان، تخلّى عنه، وخاصة بعد عام 63، ولقمان كان يردّد إن توفيق لم يعد يطاق، فهو يغضب لأتفه سبب، ويجادل حول مسائل صغيرة لا تخصّ الحياة اليومية. ويقول لقمان إن توفيق كان يتعمّد وضع الناس في حيرة تجاه أيّ موضوع ليقول لهم بعد ذلك وهو يضحك إن عقولهم الجاهلة عاجزة عن معرفة الحقائق، أو متجمّدة وميتة. لا أعرف ما إن كانت التهمة صحيحة، وأظن أن لموقف لقمان من توفيق أسباباً شخصية،

أو مخاوف أمنية، فقد شهّر الحزبيون بالرجل بعد ذلك العام، واتُّهم بأنه من التروتسكيين، مرة، ومن حزب العمّال الثوري المحظور مرة أخرى. وبالنظر إلى الشائعات التي وصفت كلا الجهتين بالتطرّف والانقلابية والدعوة للثورة المستمرة، فإن توفيق وُضع في لوائح المراقبة من قبل جهاز أمن الدولة الوليد حديثاً.

ليست لديّ أيّ معلومات في الوقت الحاضر فيما إذا كان أبي كذلك، ولم أجد بين كتبه أيَّ منشور أو جريدةٍ سرّية، أو كتاب يشير إلى انتماء حزبيّ، تروتسكياً أم غير تروتسكيّ، ويبدو أنه ذكر الرجل أكثر من مرة في أحاديثه فقط، وأنه كان معجباً به، وهذا كل شيء. ولكن البلاد كانت قد دخلت في زمن التقارير، زمن انعدام الثقة، زمن الحيطان لها آذان، وبسبب ذلك فقد ضعُف موقفه منذ ذلك الحين، وفي الغالب صار معظم الناس يتحاشون زيارته في بيته، أو دعوته إلى المناسبات الخاصة. وبات معظمهم لا يريد أن يستمع إلى آرائه، حتى لو كانوا يقولون في غيابه إنه على حق. لا يعنون آراءه السياسية –فهذه الآراء كانت تستمطر العداء له، وتمنح إجازات التهرّب من رفقته– بل احتجاجاته المطلبية المتعلّقة بالعيش اليومي. وعلى الرغم من أنه كان يشعر أن العزلة مثل بيت عنكبوت، تحاصره من كل جانب، فقد رفض أن يقدّم أي تنازل، في العمل أو في القول، مستفيداً من الفراغات، في الشبكة المحيطة به، التي يستطيع أن يرى منها ما يحدث في العالم.

لكن الدكّان وحده أوجعه، إذ كان يجلس وحيداً في المساء بعد عودته من العمل، يراقب المدى الغربي من النافذة ويتمتم أحياناً لنفسه: «من عقل المعلّم إلى ضمير الدكنجي!».

غير إن إدراكه أن الزمن أخذ يُشحن بالسرعة جعله يرتبك، خاصة حين

بدأ الربّ يخِزُه مرّةً هنا ومرة هناك (هذا هو تعليقه على الإصابات الطارئة التي أخذت تتسلّل إلى جسده): ألمٌ مباغت في مفصل الركبة. شدّ عضلي في الصدر (يوحي بالذبحة). صداع نصفي يظن أنه شقيقة صاعقة. تشنّج ضاغط يمسك ببلعومه كأنما يريد أن يخنقه. وقد أدّى هذا كلّه إلى زعزعة حماسته مرات كثيرة، حين يظن أن النهاية اقتربت، وأنه لم يفعل أيّ شيء طيب يمكن أن يذكره به أحد، أو أنه سيرحل خاسراً دون أن يعلم من هم الذين دمّروا مشروع عمره.

على الرغم من أن هذه المشاغل قد أرهقته، فإن مسألة البحث عن المكتبة الضائعة ظلّت حيّةً في عقله وفي وجدانه. الراجح أنها منحته سبباً للبقاء والمقاومة، وقدّمت له غاية وهدفاً حياتيّين يقفان في وجه الموت.. وبغضّ النظر عما إذا كان متأكّداً من أنه سيعثر في يوم ما على الكتب المسروقة، أم لا، فإن استحضار الأمل وحده كان احتياطاً كافياً كي ينام كل ليلة وهو يهجس في ما يمكن أن يمنحه الصباح من الأخبار.

توفيق الذي جرّب الكتابة الروائية من قبل، كما في كتاب السفر، كان قادراً على القيام بالعمل الأكثر قوة في الخيال الروائي، وهو إدماج العناصر الواقعية، وخلطها بحصى ورمال ومياه خيالية، ثم إعادة تدويرها بالمهارة التي تخفي التفاصيل الحقيقية لصالح النص.

وحين قرأت الرواية التي كتبها وجدت أن التتبّع البوليسي للموضوع، أوصل توفيق إلى مواقع لم تكن في باله. وأهمّها تلك المعلومات المتعلّقة بمقتل فارس أبو لوز، وهي التي غذّت كما أتصوّر حماسته. وهي تفاصيل لم تكن في حسابه، ولا في حسابي أنا أيضاً.

أما العنوان الذي منحه للرواية التي ألّفها وهو «المكتبة البيضاء» فقد كانت الغاية منه مزدوجة، الأولى هي التوصّل إلى حقيقة ما جرى، والثانية

هي إنجاز تقيّة مضمونة، أو أقل كلفة مما لو عُلم أنه كان يبحث عن القتلة، في سياق بحثه عن اللصوص أيضاً.

كانت هذه هي استنتاجاتي حين عثرت على مذكّراته بعد موته. لقد عاش بعيداً عن السماقيات جسدياً، ولكنها ظلّت تعيش معه، وتشغل فكره وأوقاته طوال تلك السنوات.

مكتبة
t.me/soramnqraa

10

وجدت كتاب «بول وفرجيني» في مكتبة صغيرة لأسعد صبحي.

كان واحداً من الأسماء التي أعطاني إيّاها لقمان، وقد أرسلت له أنني أرغب في زيارته، فرحّب بالفكرة كثيراً، دون أن يسأل عن السبب بالطبع.

كان قد اشترى بيتاً في بناء جديد مشرف على طريق دمشق، وقال لي حين جلست في غرفة الضيوف التي أدخلني إليها، إن زيارتي بركة للبيت الجديد. فشكرته، بينما اعتذر مني قائلاً إنه سيغيب بضع دقائق فقط. سمعته يحادث شخصاً ما في الخارج، فرحت أتلهّى بالفرجة على الفترينة الحديدية الصغيرة المجاورة للأريكة التي كنت أجلس عليها. حينئذٍ لفت نظري الكتاب. كان محشوراً بين مجموعة من أعداد مجلّة الصياد والشبكة، وقد أخذته من هناك بسبب الفضول من جهة، والرغبة في قضاء الوقت المتبقي ريثما ينتهي أسعد من المحادثة التي يجريها. لم أفكّر في تلك اللحظة أن تكون هذه النسخة هي تلك التي اختفت من مكتبة السماقيات، وقد فوجئت بها، فقد بدا لي كأنما ألتقي بشخص عرفته ذات يوم، ثم اختفى، فنسيته، حتى إذا عاد أدركت من جهة كم كنت أحبه، وكم دنّست السنون هيئته.

من الواضح أن الكتاب سُرق أكثر من مرة، فقد عمد السارق الأول،

إلى إخفاء خاتم المكتبة بحبر المحو الأبيض. أذكر أننا كنا قد اختلفنا فيما إذا كان علينا أن نوصي بصنع ختم يخص المكتبة أم لا، وقد أجرينا قرعة، فازت بها الأكثرية المؤيّدة، ودفعنا ثمن الختم من جيوبنا، إذ اتفقنا في تلك السنوات أن يكون المال العام محرّماً على أيّ شيء عدا الكتب. حسناً، كان الحبر الذي أحضرناه باللون البنفسجي الزاهي قويّاً إلى حدّ أنه كاد أن يتغلغل داخل النصوص من بين شقوق الغلاف الذي بات عتيقاً. وهذا هو السبب في أن السارق الثاني قد اضطرّ لتغطية الحبر الأبيض بلون أزرق شديد السماكة كي يخفي أثراً ما ربما كان لا يزال يتلامح وراء الشطب، بينما بقي رقم الكتاب، مكتوباً بخط يدي، ظاهراً لم يقاربه أحد.

ولكن أحد السارقين كان قد أهمل الكتاب بحيث تمكّن أولاده من تشويه غلافه الأخير بالحبر الأزرق والأحمر الذي تعرّض في وقتٍ لاحق لاندلاق كأس ماء، أُزيلت عنه بسرعة، تاركة خلفها بقعاً مشوّهة من كلمات بلا معنى: الواقع، ويوم الغد. هذا ما استطعت أن أستنبطه من الغمامة الحبرية التي تغطي نصف صفحة الغلاف الأخير، بينما اختفت الكلمات الأخرى وتداخلت في شباك الغيمة الزرقاء الباهتة.

لم أنتبه لأسعد حين دخل إلى الغرفة، كنت أتذكّر تلك اللحظات التي اشترينا فيها هذا الكتاب بالذات، وقد اختاره كريم الزهر. وحين سألته ما إذا كانت لديه أي فكرة عن مضمون الكتاب، قال لا، وإنما أراد أن يقرأ للمنفلوطي الذي سمع باسمه من الطلاب في المدرسة، وأن يعرف شيئاً ما عن الذين يصنعون العواطف في هذا العالم.

كنت قد رشّحت الفتى في تلك السنة كي يكون من أعضاء لجنة المشتريات، آملاً أن يتمكّن الانشغال الجديد من تبديد جزء من لبدة الهموم التي تحطّ على صدره، بسبب الصراع الذي اخترعه شقيقه حليم

حول الأرض التي أورثهما إياها والده. ولكن الفتى كان ينزلق إلى عالم مقلق مشحون بالمزوّرين من كلّ الصنوف البشرية.

فوجئت أن أسعد ينظر إلى الكتاب بين يدي. بدا ناقماً في الحقيقة، وثمة ظلٌّ كئيب نافر من الغضب يكاد ينفجر من قبضته. هل كان واحداً من لصوص المكتبة؟ لا أذكر أنه كان في البلدة في تلك الأيام، ولكني لا أؤكّد هذا أيضاً، ولم أكن أعرفه في تلك السنوات، فمنذ أن أنهى خدمته العسكرية، غادر البلدة باحثاً عن العمل. وكانت تصل إلي، بين وقت وآخر، نتفٌ من تنقّلاته السندبادية بين بلدان المنطقة العربية وبلدان العالم، وسورية. وسرعان ما صار أسعد صبحي، خلال بضع سنوات من الغياب والعودة، مورد حكايات. كان يأتي محمّلاً بجعبة من المال يصرفه في مطاعم السويداء أو حاناتها، برفقة عدد من فتيان البلدة، بينما يحكي لهم عن مغامراته النسائية. أما العدّة التي افترض أنها تدهش أهالي السماقيات فكانت مؤلّفة من بدلة بيضاء، وحذاء أسود وأبيض، أو أبيض وبني، من تلك التي كان ينتعلها فريد الأطرش في أفلامه، وعطر قوي نفّاذ، وذقن ناعمة يحلقها بشفرة الناسيت الجبارة، وتسريحة شعر أسود ملبّد ملمّع بالبرينتين.

وقد تجرأت وسألته ما إن كان قد قرأ الكتاب، فتلعثم قليلاً، قبل أن يقول لي: لا. ربما كان يريد أن يزعم أنه قد قرأه، كي يمنح نفسه مشروعية امتلاكه، غير أنّ تلعثمه أكّد لي أن لديه كثيراً من المعلومات عني، وعن علاقتي بالمكتبة، وبالكتب. فهل ذكر الحقيقة؟ غير أن هذه الحقيقة لم تكن تعنيني في تلك اللحظة (وهو خطأ جسيم نجم عن غضبي واضطرابي من ذكرى النهب الذي تعرّضت له مكتبة السماقيات) بل كان يهمّني أن أعرف كيف وصل هذا الكتاب إليه، ولم أكن أقصد المنفلوطي في تلك

اللحظة (وهو خطأ آخر كما سيتبيّن لي في ما بعد) بل السرقة ذاتها، بينما كان اللغز في مكان آخر.

لم يكن أسعد صبحي ممن شاركوا في نهب المكتبة، لأنه لم يكن موجوداً في السماقيات يوم نشبت المعركة بين آل شمال وآل اللوف وأنصارهم. ولكنه كان قد سرق شيئاً آخر عزيزاً وغالياً، هو محمودة لقمان نفسها. هذا رأيي أنا. أما روايته هو، وأنا مضطرّ لتسجيلها هنا بأمانة، فإن الفتاة كانت هي التي بدأت ترسل إليه إشارات الغرام لا هو. مسحت شعرها أكثر من مرة، وقد كانت هذه إحدى العلامات الغزلية المتعارف عليها بين الشبان والشابات، وهي ترنو إليه حين كانت تنتظر دورها أمام طوالع الماء العامة في ساحة السماقيات (وهو المكان الذي تأتي إليه البنات كي يملأن المناشل التنكية، ويعدن بها إلى منازلهن)، ووضعت إصبعها السبابة بين شفتيها، وأرسلت ابتسامة خفيّة ناقصة برقية إليه. وبفضل تجاربه، ومعرفته بهذه الشِّفرات بالذات، فقد استجاب لها. كانت البنت في السابعة عشرة من العمر، وإذا كان جمال وجهها هو الذي أوقع به في البداية، فإن جسدها المتمايل الظاهر وراء فستانها الطويل، وهي تحمل منشل الماء على كتفها، سحر فؤاده. ارتجفت أضلاعه وهو يتخيّل أن هذا القدّ غير المروّض، المدوّن على صفحة بيضاء من صفحات السماقيات، المتذمّر داخل الثوب، الراقص في الطرقات، يمكن أن يكون بين يديه على فراش اللذّات. يعترف أن مخيّلته لم تذهب في اتجاه الحب، فتجاربه في اللقاء بالنساء جمّدت عواطفه تجاههن. خسر مبكراً فقه الحب. والظاهر أن المصادفات قد ألقت في حضنه بنساء معصورات مروّضات على التخاذل، لا وجوه لهن، بحيث صار يعتقد أن كل واحدة منهن تمثيل نموذجي للمرأة، وأن كل النساء قابلات للكسر. ومن المؤكّد أن نظرات محمودة الممتلئة باللهفة قد شدّت من قوة الحماسة لديه كي يأخذها، كما يأخذ نساء حكاياته.

لم يحتج إلى الخطط. فتلك السنوات كانت سنوات قحط متلاحقة، تضع الفلّاحين تحت رحمة نقطة المطر، وتدع الطبيعة تفتك بهم بلا رحمة إذا لم يكونوا قد خزّنوا مؤونة كافية لصدّ المجاعة. وفي الغالب فإن معظم فلّاحي السماقيات هم أبناء المرابعين والمزارعين الصغار الذين يصعب عليهم أن يبنوا سدوداً لمواجهة الجوع من نتاج حقولهم الضئيلة. ولهذا فإن الطريق الوحيدة المفتوحة أمامهم هي الهجرة بحثاً عن العمل.

في تلك السنوات كانت أميركا اللاتينية لا تزال تستقبل السوريين، وكانت بيروت ودمشق ملاذاً آخر، غير أن الفتاة وصلت إلى دمشق، بوساطة من أسعد.

لم أكن من قبل قد فكّرت فيه، ولم يخطر ببالي أنه كان عرّاب السفر، والمدقق في تفاصيل الهجرة، من التكاليف المالية إلى حلول مشاكل السكن في دمشق. ووفقاً لحساباته فإنه كان يأمل أن ينال مقابل كل قرش يدفعه مكافآت مشبعة من الفتاة الفاتنة في فراش عابر أسوة بغيرها من النساء. عملاً بمبدأ سمّاه «استثمار المال في اللذة».

وبطريقة ما فقد تقبّل الحرمان في السماقيات من أن يرى محمودة أو يلتقي بها، إذ أصرّت أمها على ألّا يطأ عتبة بيتهم هناك، بسبب الهواء الفاجر الذي يتكاثف حول حضوره، قالت له تلك العبارة دون حياء. ولم تتراجع عن قرارها طوال شهرين من التفاوض بينها وبينه، عبر شقيقته نجوى، السعيدة بأن يكون أخوها قد اتخذ قراراً بالاستقرار. وهي الكلمة التي تعادل الزواج في عرفها، والغريب أنه كان يخضع ويستسلم لكل شروطها دون بصيرة، أو بعمى القلب المحبّ كما قالت نجوى، بينما عرف متأخراً جداً أنه كان غباء العقل المسلوب.

وفي كلّ تلك الفترة، وهي فترة قصيرة لحسن حظ كريم، ظلّت محمودة

تنتظره في الشرفة، ويتبادلان الأحاديث والكلمات، وبينما قالت لي حين التقيت بها، بعد ذلك باثنتي عشرة سنة، إنها كانت ترى كريم مهضوماً وطيباً ويمكن أن يسلّيها، لا معشوقاً مرشّحاً لشراكة المستقبل (أظن أنها كانت تكذب، وأن الكبرياء وحدها كانت تخلق كلماتها الموزّعة على الماضي) فقد كان كريم عاشقاً يعتقد أنه يجلس أمام شرفة أحلامه، وقلّما كان يهتم بأن يلتقيا وجهاً لوجه، بعد أن أوضحت له مخاطر الظهور معاً، في أي مكان، على حياتيهما. فآل لقمان كانوا يشكّلون قوة يمكن أن تزعزع الجرأة حتى لو كانت مدفوعة بتهوّر الحب. وقد استفادت البنت من تلك الصفة العشائرية التي كانت تهيمن على ذاكرة السماقيات، بقدر ما تسيطر على حاضرها، وهي أن أحداً لم يستطع في تاريخ البلدة أن يتغلّب على شرط وضعته هذه العائلة لحماية وجودها.

كانت تحكي بصدق، ولم تكن تخاف عليه من الأذى فقط، بل تخاف على نفسها أيضاً، والمؤكّد أن أمها كانت تحتفظ في ذاكرتها بمخاوف مماثلة حين وضعت العراقيل في وجه تقدّم أسعد صبحي. بينما لم تكن لدى الرجل شجاعة العشاق، أو غفلتهم، فقد كان يدرك أخطار التقدّم في حيّ تلك العصابة النارية من آل لقمان. والأمر الوحيد الذي يمكن أن يغفر له، في سياق الحكاية، هو أنه كان راضخاً للجمال الفاتن دون أن يسمح لعقله بالتدخّل في أي تفصيل. كان مستعداً لتبذير كل المال الذي جاء به، على مطالب محمودة التي تأتي عبر رسائل أمها البرقية. وقد توقف في ذلك الصيف عن استضافة شبّان السماقيات، وقال لحسن اللوف، وهو من نصحه بمقاطعتهم، إنه لم يدرك مدى السفالة التي كان يعيش فيها إلا حين رآهم من مسافة البعد.

هكذا صار للبنت عاشقان، والراجح أن عشاقها أكثر من ذلك بكثير. فقد كانت تنضج على نار من الشهوة والجاذبية والفتنة. ولا أظن أن أحداً

من رجال تلك الأيام، استطاع أن يكتم أو يكبت آهة التبجيل للربّ الذي خلقها حين يراها. كانت تكبر ببراعة، مثل عاصفة دوّارة تشدّ إليها كلّ من يجد نفسه في محيط جاذبيتها، ثم ترميه بعيداً طائشاً في العماء. وقد سافر أسعد مسرعاً إلى دمشق، كي يعدّ المكان لاستقبال الأم والبنت، دون أن يدري أن حجره الصائب قد طاش هذه المرّة.

لم يستطع الوصول إلى محمودة من أيّ طريق من تلك الطرق التي عبّدها بنفسه. وأظهرت كلتا المرأتين عناداً في عدم تلبية دعواته للعشاء أو الغداء في المطاعم. ولم تتوقف أم محمودة عن المطالبة بالعمل الذي وعدها به قبل أن تقرّر السفر إلى دمشق. بينما راح يحاول أن يستجدي قبولها بالرعاية من قبله. وفي أكثر من مرة رفضت محمودة أن ترافقه إلى الأمكنة العامة، لا إلى المقاهي على ضفاف بردى ولا قطار الحجاز ولا مطاعم الكباب، بينما ظلّت ترنو إليه بنظرات الإعجاب ذاتها التي بدأت بها علاقتهما. وما أدهشه في ما بعد، دون أن تتضمن تلك الدهشة غير الإعجاب والمزيد من التعلّق، هو أن قرارات الأم كانت موجّهة من قبل محمودة لا العكس، كما كان يظن، وإن امتناعها عن الخروج برفقته إلى أي مكان، لم يكن خوفاً من آل لقمان أو من ثرثرات القيل والقال، بل لامتحان حبه لها، وقياس مدى عزمه على التقدّم لخطبتها. وهي النتائج الأخيرة التي توصّل إليها في تلك اللحظات التي تشبه استسلام الجنرالات. هكذا رأى نفسه وهو ينفخ هواء صدره الفاسد ويقول: «خلص، أفلست!»، بعد آخر رفض أبدته.

وفي إحدى تلك اللحظات التي كان فيها علم استسلامه الأبيض يرفرف فوق رأسه، قدّم لنفسه سلسلة من الأعذار التي يمكن أن تساعده في إنجاز مهمته: قال لنفسه مثلاً إنه لا يستطيع العيش من دونها، وقال إن الوقت قد حان كي يستقرّ فعلاً، ويبني عائلة طيبة، وينجب سلالة من

الصبيان والبنات. بل إنه صار يوبّخ شخص أسعد السابق الذي كان يسيء الظن بالنساء. ثمّ إنه عزا الأرباح الجديدة التي بدأت تأتي إليه من عمله في تجارة الألبسة، بالشراكة مع تاجر دمشقي من الميدان، إلى السعد الذي مُنح له بوجود محمودة.

الحقيقة هي أنه كان يغلق ذلك الصندوق الذي يمكن أن يمنحه حكمة الصبر، أو نصائح التفكير والتمهّل، بينما أكتب أنا إنه كان يغلق عقله لاحقاً بعواطف قلبه وحده، دون أن يسأل نفسه مرة واحدة عما إذا كانت البنت تحبه فعلاً. لم يسألها هي أيضاً، فالحَجْر المضاد الذي بنته المرأتان أصابه بالضجر في البداية، ثم تحوّل إلى لا مبالاة تفرضها الغواية الفاحشة التي كانت محمودة تظهر بها، وقد أدار ظهره لكلّ التحذيرات التي قدّمها له شريكه في العمل، أو أصحابه في لعب النرد.

دون أن يدري أنه كان يرمي نرداً في المساحة الفارغة التي أمامه، وهو الذي لا يعلم بتاتاً، كلاعب نرد ماذا يمكن أن يظهر هناك من النقاط، أقدم على الخطوة التالية المنتظرة منه بحسب برنامج المرأتين أو خطّتهما. ذهب وحيداً في البداية وطلب يد محمودة وأخذ الموافقة الفورية، ثم عاد مرة ثانية في نهاية الأسبوع برفقة عدد من أهالي السماقيات الذين يعملون في دمشق وبيروت، من بينهم يوسف لقمان، العمّ البعيد للبنت الذي كان يعمل ناطور بناية، وسلامة اللوف، وعلوان شمال وأخوه حسان، وابن عمّهما علي شمال، وخطب محمودة علناً، ولبّسها المحبس، وأساور الذهب التي طلبتها أمها.

الغريب أن كلا الجهتين لم يعلنا في السماقيات نبأ الخطوبة، ولم تقرّ محمودة بأنها كانت تخشى كريم، كما افترضتُ في ما بعد، ولا أعرف ما إن كان كريم في تلك الأثناء قد اكتشف أن حبيبته قد هجرته، ولكني علمت

أنها تزوّجت برضاها في ما بعد، ودون أن يتدخّل أحد من أهلها، ولمّا كانت لدي فكرة بعيدة عن الحب الذي ترتبط به مع كريم، فقد عجزت عن تحليل الموقف. ولم يكن بوسعي أن أخبر الفتى أي شيء عن الواقعة، وحين علمت أنه يتتبّع خطاها، في دمشق، لم أتدخّل أيضاً، إذ كنت مؤمناً بأن المحبّ سوف يعرف قريباً ما إن كان الآخر له أم لا. ولن أضع نفسي في دور الغراب. بينما لم يكن أسعد يعلم أي شيء عن الروابط بين العاشقين. وكتبا عقد الزواج لدى قاضي المذهب، ثم سافرا متزوّجين من دون أن يدخل عليها.

وما لم يكن يتوقعه هو أن تبدي ذلك العصيان المذعور ليلة الدخلة، فما إن رأته عارياً، وقد انتصب ذكره في وسط جسده المشعر، حتى انخرطت في البكاء، ثم راحت تنتحب وهي تتوسل إليه ألّا يفعل به أي شيء يمكن أن يؤذيها. ولم يصدّق ما يسمع وما يرى من أن فتاة في السابعة عشرة من عمرها لا تعرف أي شيء عن جسم الرجل، وأنها تخشى عضوه بدل أن تبدي إعجاباً به. ولكن هذا لم يكن كل المشكلة، إذ إنّها لم تسمح له بالنوم في سريرها، لا في الليلة الأولى، التي نجحت في اقتناص الوعد منه، ولا الثانية التي أقفلت فيها باب غرفة النوم قبل أن يأتي إليها. وفي اليوم الثالث ترك البيت ومضى إلى مكتبه كاسراً إجازة العسل.

كان شريكه من دمشق، واسمه هاني العابد، وقد التقى بأسعد قبل ست سنوات في أحد مقاهي دمشق، أبو كمال على الأرجح، ولعبا بالنرد مصادفة حين كان رفيق هاني العابد غائباً بسبب المرض. كان أسعد مولعاً بالنرجيلة على غرار هاني، وقد تبادلا الأحاديث في البداية حين جلسا وحيدين متجاورين حول أصناف التنباك، ثم فكّرا بلعب النرد. قال هاني إنه لم يُغلب من قبل في هذه اللعبة، وقال أسعد إنها اختُرعت لأجله،

وضحكا، وراحا يرميان النرد وهما يتبادلان تحديات لطيفة. وفي الشارع تابعا بناء صداقتهما الوليدة. الحقيقة أن كل المحن التي جاءت في ما بعد، في السنوات التالية، لم تستطع أن تزعزع ما بدأ في تلك الدقائق.

ولم تكن لدى أسعد أيّ خبرة في مسائل الأقمشة وتجارة الألبسة، فعمله في دمشق اقتصر على إنشاء المباني في عشوائيات المدينة. كانت دمشق قد بدأت تشهد زحفاً ريفياً متعباً من القحط، بينما كان هاني ينتمي إلى إرثٍ عريق من الأجداد ذوي الخبرة في كل أنواع الأنسجة. وبصرف النظر عن المستوى المتدني لمردود العمل الذي قام به أسعد في البداية، فقد قدّم اقتراحات فذة لتنشيط الشغل. وفضلاً عن هذا فقد التقى الشابّان في خصلة أخرى وطّدت صداقتهما على الرغم من أنها لا تتعلّق بالعمل، وهي عشق النساء.

كان أسعد يتقدّم بخطوات بطيئة حقاً، ولكنها واثقة بالنفس من جهة، وباعثة على الطمأنينة لدى هاني العابد من جهة ثانية. وهي الطمأنينة التي جعلته يأتمن أسعد على مخازنه ومحلّاته حين يسافر إلى أي بلد في العالم. والحقيقة الغريبة أن الشاب المبذّر العربيد الذي كان يظهر في السماقيات مجرّداً من الأخلاق (الحقيقة أنه لم يؤذِ أحداً في أيّ يوم) كان ملتزماً بانضباط شبه عسكري بالعمل في متجر الملابس في دمشق.

غير أنه ابتداءً من اليوم الأول الذي مشى فيه وراء محمودة تبدّلت حياته، بل إن طباعه نفسها تغيّرت، وحلَّ مكان الفرح المجاني بالحياة، وحبّ السهر، والاستماع إلى الأغاني، والتهريج، ونصب الشِّباك للبنات، روحٌ كئيبة مغلقة لا تعرف البهجة.. وكان هاني يقول له: «في ناس مش خرج تحبّ»، ولكن الحقيقة هي أنه لم يكن يعرف ما إن كان محبوباً، بينما بات مغرماً بمحمودة.

وحين رآه هاني قادماً في اليوم الثالث لزواجه، أدرك أن شريكه خسر هذا الشوط من لعبة الحياة، ولكنه اعتقد أنه مجرّد شوط واحد ضحل، سرعان ما سوف يتمكّن أسعد من تجاوزه، ولم يفكّر لحظة واحدة أن شريكه كان قد خسر مباراته الوحيدة التي كان يعتقد أنه سينتصر فيها لأنه يستخدم أكثر أسلحته فتكاً: ماله وجماله. غير أن محمودة كانت قد استعصت عليه فعلاً، وبدا له أن اقتحامها بالقوة لا يعني شيئاً، إذ لم يكن هذا السلوك من بين الطرائق التي يتّبعها في منهجه، بينما كان يتمنّى أن ترتمي هي في حضنه راجيةً أن يأخذها.

وفي ذلك اليوم لم يترك العمل على الرغم من أن هاني عرض عليه الانصراف مبكراً، وأحضر بدلاً من ذلك كومة دفاتر الحسابات للعمل عليها. وبسببها أو بسبب الاستعانة بها، تأخر في المكتب، وطلب من أحد المستخدمين أن يبقى برفقته. كان مغلقاً تماماً على التكهّنات، فيما لو أراد أي شخص أن يختلس حالته النفسية. ظلَّ يضحك طوال النهار، ويتبادل مع العمّال النكات المنشّطة التي اعتاد أن يلقيها أثناء العمل، بحيث ظنّ الجميع، عدا هاني العابد، ويوسف نجار الذي كان يعمل في المتجر، أنه يشتغل بفائض السعادة التي منحه إيّاها زواجه المتأخر.

ولكن كل تلك التصرّفات كانت مخصّصة في ذلك اليوم لتغطية الغلّ الذي كان يملأ صدره. أدوات لرثاء الذات الجريحة المغلوبة التي لم تستطِع تطويع فتاة مسجّلة بكتاب رسمي أنها صارت زوجته. والمفاجأة هي أنه حين عاد إلى البيت وجد أنها ظلّت تنتظر عودته دون غداء، وهي بادرة وفاء زادت من عنائه بدل أن تقدّم له العزاء والراحة، وسرعان ما اكتشف أنه لا يفهم. فأمُّ محمودة ظلّت ترفض أن تكون تحت الوصاية، وأن تمتنع عن العمل، مقابل أن يقدّم لها مقداراً من المال يساوي أجرها،

إذ كان يشعر بالحياء، والعار أحياناً، من أن تكون حماته في مصافّ العمال الذين يستأجرهم أو يشغّلهم. وقالت محمودة إنها لا تتدخّل في هذا الأمر. وإن ما لاقتاه من الفقر والحرمان يجعل أمها تتمسّك بعملها حتى الموت.

لم يكن الغداء طيّباً، إذ كانت قد أغرقت حفنة عدس في سطل ماء، وتركته يغلي حتى هرست جميع حبات العدس، وأضفت على الماء لوناً بنّياً منمّشاً بفتات من البصل المفروم، والرز، وزادت كمية الملح بحيث لم يعد ممكناً أن يأكل أكثر من ملعقة واحدة. فطلب أن تتذوّقه، وحين رأى تكشيرتها، طلب منها أن ترتدي ثيابها لأنه يدعوها للغداء في أي مطعم تريده. بدت سعيدة، وأكلت بشراهة معدية فتحت شهيّته المغلقة، وجعلته يلتهم أكثر مما يستطيع من الطعام وهو يفكّر في المحتمل الذي يمكن أن يحوزه في الفراش.

المؤكّد أنه عانى كثيراً من الصدّ الممزوج بالرعب من محمودة، قبل أن يتمكّن من تنصيب نفسه زوجاً شرعياً مكلّلاً بالدم. لم يكن مبتهجاً، لعن هذا الزواج الذي اضطرّه للزحف راجياً أن تخفض صوتها حين يقترب منها عارياً. يذعره أن يسمع الجيران صيحات الفزع بعد كل جرعة من محاولات التقرّب. وكان يلوم نفسه، حين يعود مخذولاً خائباً إلى غرفة الجلوس، على فكرة الزواج كلّها، إذ بدا له الحلّ القريب لمثل هذه التجربة هو التخلّص من مثل هذه الفتاة، وتسريحها، وإرسالها إلى السماقيات بأمان.

وعلى الرغم من أنه عاش حياة طبيعية بعد ذلك، تقبّلت فيها محمودة استحقاقات الزواج الليلية بيسرٍ ورضا، غير أنه لم يكن سعيداً بذلك. ولم يعبأ بما تبقّى من سلوكها كزوجة، إذ لم تكن للواجبات التي تؤدّيها برصانة وانضباط أيّ قيمة في نظره.

أما في نظر شريكه المحتار فقد صار يبدو ملخّصاً في الجملة الخاسرة

التي أخذ يردّدها بين أصحابه وأهله لوصف حالة أسعد: «كأنك أخذتني وجبت واحد غيري».

سألني أسعد بصوت مرتعش ما إن كنت قد فتحت الكتاب وقرأت ما بداخله؟ فقلت له بلامبالاة متعمّدة إنني أعرف الكتاب جيّداً، وأعرف كل شيء عن المنفلوطي. وبدأت أشرح له باختصار عن موجات الحزن العميقة التي زرعها هذا الرجل في قلوب الآلاف من شُبّان وشابّات العرب منذ بداية القرن العشرين، لولا أن أسعد قاطعني بإشارة من كفّه المفتوحة، وقال إنه لا يسأل عن محتوى الكتاب، ولا عن الكاتب. هل قرأت الكتاب حين كان في المكتبة؟ قلت: لا. ظهرت ملامح ارتياح على وجهه، وزالت تلك التغضّنات التي ملأت جبينه، حين أرخى عضلات وجهه المشدودة.

كان قد تصفّح الرواية مرّتَين. حدثت المرّة الأولى (وهي التي تسبّبت بكلّ ما جرى في ما بعد ذلك من أحداث) بالمصادفة حين عثر على الكتاب، كما عثرت عليه أنا، في إحدى إجازاته إلى السماقيات برفقة محمودة، بين بعض الكتب المهملة في بيت أخته التي تزوّجت من سعد الدين شمال، وقد بدأ يتصفّحه بلا فضول، وهذا ما حدث معي ولكن النتائج مختلفة، ولم تكن لديه أي فكرة عن الكتاب أو الكاتب أو المصدر الذي جاء منه. ولفت انتباهه وجود تعليقات وملاحظات مكتوبة بقلم الرصاص على هوامش الكتاب، وبسبب الفضول قرأ أول هامش مكتوب على إحدى صفحات الكتاب. (هذا الفضول الذي يجعلني أتساءل عن نوازع البشر وتصرّفاتهم الغريبة في مثل هذه الأحوال، وأظن أن الأمر يعنينا جميعاً، فلِمَ يهتمّ أحدنا بالملاحظة المكتوبة على هامش كتاب لم يقرأه بعد، أكثر من اهتمامه بقراءة المتن أولاً؟ وهل هذا يشمل جميع الناس أم أولئك الذين لم يعتادوا قراءة الكتب؟). كان يعرف صاحبة هذا الخط ذي الأحرف

المستقيمة، وقد قرأ تلك الطلبات التي تسجّلها له على شرائط ورقية كي يشتريها في طريق عودته إلى البيت. لم يكن محتاجاً إلى التدقيق أو الفحص المجهري. فطلب من شقيقته أن تعيره إيّاه. ولمّا لم يكن أحد من أسرتها يُعنى بالكتب، فقد تنازلت عنه دون اهتمام، وقالت: «خذو إلك إذا بدّك!»، فوافق، واستأذن أن يغادر البيت، دون أن ينتظر عودة زوجها.

مقابل الجملة التي تقول فيها فرجيني لبول: «ألم تتسلّق الصخور من أجلي يا بول؟»، كتبت محمودة: «ألم تتسلّق الصخور من أجلي يا كريم؟». وكانت قد وضعت في الصفحة السابقة حلقة مكسّرة الحواف حول الفقرة التي تقول فيها فرجيني: «أما أنا فإنني أحبّك هذا الحبّ كلّه، ولكنّي لا أسأل نفسي عن سبب ذلك، لأني لا أعلم أن الطائرين اللذين ينشأان في منشأ واحد، وجوّ واحد، يتعاطفان ويتآلفان حتى ما يكاد يصبر أحدهما عن صاحبه لحظة واحدة». فقرة طويلة ومتعبة، جفّفت قلب أسعد.

والمصيبة التي استلمها بيديه، هي أنها لم تكن الجملة الوحيدة المكتوبة بخط محمودة على ذلك الهامش الذي رآه. والمشكلة أنه لم يعد بوسعه أن يتوقف، بينما كان يتمنى أن يتوقف ويرمي تلك الكتلة الهشّة من الورق الأسمر الجاف بعيداً عنه، ويعود إلى بيته وقد نسي كل شيء. ولكن الأمر لم يكن بيده، أو لم يعد بيده بعد أن قرأ تلك الجملة. بل إنه ضبط نفسه في الطريق وهو يتمنى إلى حدود التشهّي لو كانت تلك الكلمات قد قيلت له هو، لا من أيّ امرأة بالطبع، بل من محمودة نفسها. وفي تلك اللحظة كان يمكن أن يبكي مثلاً لو لم يكن مسافراً في سيارة صغيرة، وبجواره راكب سمين عابس. وكان هذا الشعور هو الأكثر سوءاً وصعوبة في المسألة كلّها، وسرعان ما انتابته الرغبة في تمزيق الكتاب،

أو في إحراقه، ولا يهمّ بعد ذلك أن يكون العالم ممتلئاً بآلاف النسخ من هذا النوع، إذ إن النسخة المعادية كانت تلك التي يحتفظ بها في حقيبته اليدوية. ولكنه لم يفعل أي شيء يشير إلى أن تلك الرغبة تشكّل هاجساً لديه، أو أنها كانت على وشك أن تتحقق. بل إنه ظلَّ كل الوقت يضع يده بكلّ حرص على الحقيبة، وإنه حملها معه حين توجّه في طريق العودة. بدا كأن لديه كنزاً في الحقيبة لا يجرؤ على تركه في أي مكان. وقد لاحظ الركّاب الذين رافقوه في رحلة العودة، أنه كان يكلّم نفسه، ويهمس أحياناً بصوت شبه مسموع بكلمة واحدة قد تنزلق من بين الجمل التي يتمتم بها. ولم يجرؤ أحد منهم على السخرية منه، أو تنبيهه لما يحدث.

وحتى تلك اللحظة كان أسعد صبحي يعمل خارج إيمانه بمشيئة الأقدار، وسوف يتحوّل الأمر بعد ذلك، حين يقرأ الكتاب، أو يعرف ملابسات الكتابة، إلى غضب مدمّر حين يفكّر أنه ضحية قرن من الزمان، قرن من التدابير الغاشمة، قرن من الكتابة القصصية عن الحب والبطيخ، ولا بدّ أنه حقد على أولئك الذين بنوا المكتبة في السماقيات، واختاروا أن يأتوا بكتاب يمكن أن يمتلئ بالجمل التي تصلح لتبادل الخطابات بين العشاق. واعتباراً من تلك اللحظة بدأ يسلسل أعداءه واحداً بعد آخر ابتداء من المنفلوطي نفسه، وانتهاء بآخر شخص حصل على الكتاب وقرأ ما فيه. وطوال السنوات الماضية كان يتحاشى أن يلتقي بي، خشية أن يلفت انتباهي إلى أن الكتاب صار بحوزته. كان يتصرّف مثل لصّ هاوٍ صغير مثقل بالذنب. وفي كل مرة يعود فيها إلى السماقيات كان يحاول أن يحقّق بشكل سري في الطريق التي مشى فيها الكتاب من المكتبة، حيث سُرق، إلى بيت أخته، متتبّعاً مصيره هو في الحقيقة، فعلى ضوء انتقالات الكتاب، سوف يعرف مساحة المشكلة التي يواجهها، وعلى ضوء القراءات المحتملة سوف يعرف عدد الأشخاص الذين يعلمون سرّه. غير أنه لم يحظَ بأيّ خبرٍ

مفيد، وتبيّن له، دون أن يصدّق تماماً النتيجة، أن أحداً لم يقرأ الكتاب بعد أن نُهب من المكتبة إلى أن وصل إلى بيت أخته.

أما الوضع المحيّر فهو أنه لم يتخذ أي إجراء عقابي عنيف ضد محمودة، بينما كان يتمزّق تقريباً تحت وطأة مشاعر متناقضة من الغيرة والحسد والقهر والغضب والعجز أيضاً عن القيام بما يلزم. غير أن كونه الوحيد الذي يعرف هذا السر، وهناك احتمال أن يكون صاحباه قد نسياه، منحه راحة وسكينة خفّفتا من تأنيب الضمير تجاه تقصيره في ردة الفعل. بل إنه كان سعيداً إذ استطاع أن يأخذ الكتاب، ويمنع أحد المتطفلين من قراءته أو الاطلاع عليه، وقد خاطر بالتأكّد من أخته أن أحداً من عائلتها لم يقترب منه، وكانت هي تضحك ساخرة: «مين فاضي يقرا الكتب؟!»، قاصدةً زوجها وأولادها.

ولم يجرؤ على تصفّح الكتاب في طريق السفر، خشية أن يطلب منه أحد الراكبين اللذين يجاورانه استعارته في أيّ لحظة يتوقف فيها عن القراءة، أو يوحي بأنه انتهى من ذلك.

أما العذاب فقد بدأ منذ أن وصل إلى البيت في دمشق، حيث كان قد ترك محمودة هناك. إذ عاش لساعاتٍ وأيام وأسابيع، وهو يفكّر في الطريقة التي سيواجهها فيها بالحقيقة.

يفترض هنا أن تكون محمودة قد ظنّت أن كريم سيحتفظ بالكتاب بعد أن تنتهي علاقتهما، وربما لم تفكّر بأي شيء عن العواقب المحتملة. كانت فرصة استعارة الكتاب وإعادته، ثم استعارته وإعادته، وقد كتب كل منهما على حواشيه مشاعره وعواطفه اللاهبة، الطريقة المثالية لتحاشي وجود الرسائل الخطية التي قد تشكّل أدلة جرمية قاطعة من قبل أهلها أو أهله، ولن أنسى بالطبع أن كريم كان مراقَباً في تلك الأيام من قبل شقيقة الكبير

المتديّن حليم الزهر، وأن شكل المراقبة كان يقارب ما يفعله الأشقاء الذكور تجاه أخواتهن في حال الشكّ بأمرٍ ما. وقد كانت الهوامش بلا توقيع، ومن الصعب على الآخرين معرفة من الذي كتبها، فقد كانت تلك القصة واحدة من أكثر الكتب قراءة في تلك السنوات. وأذكر أنني حاولنا، أنا وفارس، أن نسوّق روايات نجيب محفوظ، وعبد الرحمن الشرقاوي، وتوفيق الحكيم، دون أن نوفّق بأكثر من بضعة قراء. بينما سُحب المنفلوطي نفسه، أكثر من مئتَي مرّة. كنا قد اقتنينا له «الفضيلة» و«تحت ظلال الزيزفون» و«النظرات والعبرات»، وهي أشهر مؤلّفاته المعروفة في جيلنا وفي الجيل الذي جاء من بعدنا.

وحين بدأت محمودة تغازل أسعد صبحي كانت قد نسيت الرواية تماماً، ولم يكن في بالها منها أي شيء، فقد ارتبط النص بالحب الصغير العابر بينها وبين كريم، ولكن ابتعاد الشاب إلى السويداء، للدراسة، أخمد حرارة الكلمات المطبوعة، والرسائل المسجّلة. هذا عدا أن واحدة من البنات اللواتي سُمح لهن بمتابعة الدراسة في المدينة، ستكون قد وشت به، وذكرت لها أنه يزور هناك أرملة تعيش وحدها، وربما يفكّر أن يتزوّج منها. لم تكن بيدها أي وسيلة لإجراء التحقيقات في شأنه، ولا شكّ أن شائعة انتمائه إلى الحزب الشيوعي ستكون قد مرّت في أجواء النمائم التي تسرّبت عبر تلك الفتاة، أو عبر خطاب حليم أخيه الذي اعتبر أن التجريس جزء من سياسة السحق التي يجب أن يتّبعها ضد انحراف الأخلاق الذي انزلق إليه أخوه في المجال السياسي. ولم يكن بوسع فتاة يتيمة أن تتحمّل عبء المطاردات المحتملة لزوج المستقبل، بحسب ما استطاعت أن تجمع من القصص عن ملاحقة الشيوعيين، ولم تحب أحلامهم الغريبة عن توزيع الملكية.

كان رجب لقمان والد محمودة قد توفي في المهجر بعد سفره بعامين. وهما العامان اللذان يضعهما في العادة المهاجرون من السماقيات أو من أي بلدة ومدينة في المنطقة إلى فنزويلا أو البرازيل أو غيرهما، زمناً احتياطياً، يتم فيهما جمع الثروة الصغيرة التي تسمح بجلب العائلة. مات الرجل في هذا الزمن الضروري، ولم يكن قد جمع شيئاً يمكن أن يُرسل إلى السماقيات. وقد تسبّب غيابه وموته من جهة، وروح الأم المعذّبة التي ملّت من الفقر والحاجة من جهة ثانية، في أن تصبح محمودة أكثر تطلّباً من مجرد الجلوس في شرفة وتبادل الكلمات مع الشاب الذي لم تعرف عنه الكثير. في تلك الأيام كانا قد اتفقا على أن يكون العواء، الذي كان كريم الزهر يتقن إطلاقه كما لو كان ذئباً، هو رسالة التنبيه إلى وجوده. يختبئ في الوادي ثم يتنقّل من مكان إلى آخر، مطلقاً عواءه.

وهذا التطلّب وجد استجابة قوية في شخصية أسعد المغوية: بدلته البيضاء، وتسريحة شعره اللامع الممشّط وفق آخر الموضات، وحذائه الملوّن، وقد تكون رأت صورة لفريد الأطرش أو شاهدت أحد أفلامه، ووجدت شبهاً ما بين مشيته المتعالية ومشية أسعد الظافرة.

وكان للكتاب مفعول منشّط، وقد زرع في نفس أسعد الأمل في أن يستطيع إغواء محمودة من جديد، وبصرف النظر عما إذا كان يخدع نفسه أم لا، وهي أمور لم تغِب عن باله لحظة واحدة، فقد وصل إلى بيته في دمشق وهو مصمّم على كتمان أمر الكتاب إلى حين يتمكّن من اختراع الأسلوب المناسب. وفي كل مرة كان يجلس إلى جانبها، كان يشعر أنه يزداد قوة وحضوراً، فهو الذي يحتفظ بأسرارها، وهو الذي يستطيع في أي لحظة القفز من المكان والزمان والعودة إلى تلك الساعات التي كانت ترتكب فيها هذا الفعل القبيح وتكتب هذه العبارات الشائنة.

غير أنه اكتشف أن لديه مهمة شاقة أخرى هي إخفاء الكتاب في البيت، وهذا يعني أن يكون لديه مكان سرّي خاص به يستطيع أن يضع فيه الكتاب، ويجب أن يكون المكان السرّي معروفاً من قبل محمودة دون أن يكون مرخّصاً لها بفتحه، وهي حالة سبّبت مرارةً عميقة في نفسها، إذ لم تكن الخصوصية جزءاً من ثقافة البنت، ولا من ثقافة المكان كلّه، وكلّ ما يخبّأ يشير إلى الخطيئة وارتكاب المخالفات وفساد الضمير والخوف من الخزي في حالة الانكشاف، وهي أمور أربكته في البداية، فشرح لها أن المسألة لا علاقة لها بأي خطيئة أو أعمال محظورة، بل مجرد رغبة في أن تكون له خصوصية يمكنها هي أيضاً أن تنتقي حالة مماثلة لها.

وإذا كانت قد قبلت القضية، فالسبب هو خوفها من لهجته الأبوية التعليمية الصارمة، ورغبتها في أن تتجنّب الخوض في مسالك غامضة لا تعرف المخرج منها. ولم تكن قد استطاعت التأقلم مع الجنس، ولم تعرف ما هي الغاية منه بالنسبة لها غير أن تنجب له الأولاد في المستقبل، ولم تفهم تماماً ماذا يحدث لأسعد حين يقذف بداخلها كي يبدي ذلك التأوّه، فهي لم تصل إلى ما يصل إليه قطّ. ولكن الأمر زاد في قلقها من أن يتخلّى عنها، منذ أن بدأ يلومها على الطريقة التي تنام فيها معه، أو يطلب منها أن تشاركه. وذعرت حين قال لها إنه سوف يبدأ برنامجاً تدريبياً يعلّمها فيه أصول الممارسة الجنسية.

لكنه لم يعلّمها أي شيء، وأظن أن شبح كريم الزهر ظلَّ يلاحقه طوال تلك السنوات، وربما كانت الدسيسة تأتي من أعماقه. فلا أحد يدري بسرّه سواه هو نفسه. ولكن الضعف نفسه بات يشدّه إلى الجذاذة الأخرى من وجه الحياة: أن يحوز على الحب، ومن المرأة نفسها التي صارت زوجته.

وقد حفظ، من أجل هذه الغاية، جميع تلك الشذرات المتوفّرة في

الكتاب عن الحب، سواء منها ما كتبه المنفلوطي، أو تلك التي كتبها كريم ومحمودة، وأخذ يمتحن نفسه، كما لو كان يحفظ قصيدة، ويصحح أخطاء النسيان، ويرمم الفجوات التي تحدث بسبب نقص الليونة في ذاكرته التي لم تتدرّب على حفظ النصوص منذ أن ترك المدرسة مبكراً. وكان يسعد حين يسمِّع في المساء التالي النص الذي حفظه غيباً قبل يوم، ولا يجد فيه أي خطأ.

أما محمودة فلم تفهم شيئاً مما يحدث، وإذا كانت تسمع صوته وهو يعيد تلاوة شذرات المنفلوطي فإنها ما كانت لتدرك فحوى الكلام، ولا يمكن أن تفكّر أن بعض تلك العبارات كانت من تأليفها. ولم يكن السبب خراب ذاكرتها، بل انعدام التوقّعات بالمطلق. وفي كل الأحوال فإنها لم تعشق أسعد، ولم يكن هذا جزءاً من مخيّلتها بعد أن استطاعت أمها أن تروّض الجوانب الطرية والرقيقة من عواطفها بالكلام الدائم عن لعنة الفقر. كان الفقر لعنة فعلاً بالنسبة لغالبية أهالي السماقيات، وإذا كانوا قد اضطروا للرحيل عن البلدة في سنوات القحط، فإن معيشتهم لم تتحسّن في السنوات التالية التي جادت السماء فيها بالمطر. ولهذا السبب فقد راحت معظم الأحلام، التي يمكن أن تأتي في اليقظة وفي المنام لبنتٍ في سنّها، تتمدّد داخل أسرّة الأغنياء! لا وجود في مثل هذا العالم للفقر والحاجة وطلب الرزق إذا أمكن الحصول على ما هو جاهز. وقد قضى العشق ودُفن في تراب الذكريات الجافة وحدها، إنه مجرّد ماضٍ جميل لكنه لا يطعم خبزاً. ولهذا فإن أسعد لم يكن المعشوق الذي يمكن أن يشغل الأحلام، لأنها كانت قد تخلّت عن الحلم نفسه. وفي وضعها كزوجة لم تترك ثغرة يمكن أن يتسلّل منها غضب الزوج كما لقّنتها أمها: القهوة الصباحية كما يحبها، الحمّام الساخن، الثياب المعلّقة في الانتظار، والغداء المعدّ

الجاهز في وقته، وقبل ذلك ستكون قد أوصلته إلى الباب. وظلّت واقفة إلى أن يختفي خلف حديد الدرابزين الذي يسوّر الدرج.

ومن سوء حظه أن قدمه التوَت حين عاد إلى دمشق. كان يصعد درج البناية إلى مكتبه في الطابق الثاني، حين أخطأ في حساب المسافة. قال لي إنه كان شارداً، وربما كان يحدّث أحداً ما متخيّلاً، وهي عادة بدأت تهاجم مركز الانتباه لديه، في تلك الأيام. وغالباً ما يدور الحوار حول النص الذي يقرؤه. وقد فاتني هنا أن أشير إلى أنه بدأ يشتري بعض الكتب، وربما قرأ فلوبير أو بلزاك وهو يعتقد أنهما يمكن أن يكونا قد كتبا نصوصاً شبيهة بالنص الذي كتبه برناردين دي سان بيير، صاحب الأصل الذي عرّبه المنفلوطي، لأنهما يحملان الجنسية الفرنسية فقط. ولكن مدام بوفاري كادت أن تقتله، فمن جهة قرأها وهو عاجزٌ عن المشي أو التجوّل، ومن جهة ثانية راح يتخيّل أن محمودة يمكن أن تتقمّص أدوار إيما بوفاري مثلما تبنّت من قبل طرق فرجيني، وإذا كانت فرجيني قد حافظت على طهارتها، فإن إيما غرقت في حمّى الجسد حتى أذنيها، وربما تكون شهواتها مُعدية للنساء أكثر مما يمكن لشغف فرجيني أن يفعل. وحين يفكّر بالسيد بوفاري، الصيدلاني الذي لم يستطع إشباع رغبات زوجته الجسدية والعاطفية، يفكّر أنه ربما كان مثله أيضاً. وطوال الوقت الذي أمضاه وهو يقرأ الرواية كان يشتهي أن يتمكّن من إخبار شارل عما يحدث في بيته، وراح يشتمه بصوت عالٍ وهو يرى عجزه وتقاعسه وبرودة دمه، وغرامه الرخيص بإيما.

وحين شُفيت قدمه عاد من جديد إلى السماقيات، وبدأ يسأل عن رواية فلوبير. ولكنه لم يعثر عليها، ولم يكن هذا ممكناً، لأن المكتبة كانت قد نُهبت، واختفت، ولن يعترف أحدٌ بأن لديه نسخة منها، ولذلك فإن أسعد لم يعرف ما إذا كانت موجودة في المكتبة أم لا. ولكنه لم يسألني عنها،

ولا عن المكتبة، وقال لي، إنه كان يخشى أن أكتشف أنه يمشي في مسارٍ موازٍ للمسار الذي سرت فيه (ولا بدّ أن أحداً قد سرّب إليه هذه المعلومة) وأن أعلم السرّ الرهيب الذي كان يحاول أن يعيد تركيبه، وتركيب حياته كلّها على أساس النتائج التي سيصل إليها. لكن المسكين لم يكن يعلم أن النسخة التي قرأها هي الطبعة الثانية من الكتاب، وأن طبعته الأولى صدرت بعد نهب مكتبة السماقيات، وكانت في مكتبتي بترجمة محمد مندور.

وابتداء من تلك الأيام التي لم يعثر فيها على الرواية، صار يعتقد أن محمودة تحمل في بطانتها فحش إيما، وأنه هو نفسه شارل الضعيف المسكين الذي يبذل حياته من أجل نيل حبٍّ مستحيل، وهو لا يعلم أن المرأة التي تشاركه الفراش وجدت حبها في مكان آخر. ثم بدأ يعدّ في مخيّلته صورة الرجل البديل. وهنا سوف يرتكب إحدى الغلطات القاتلة التي ستدمّر حياته. أجرى مسحاً مدقّقاً في كومة من خمسة رجال مقرّبين منه، وقد تضمّن المسح دراسة الجوانب التي تجعل الرجل جذّاباً في نظر النساء: القامة والصوت والحضور الفاعل والكاريزما الشبقية، وتوصّل بعد الغربلة النزيهة إلى أن هاني، شريكه، هو المرشّح القوي لاحتلال مكانة العاشق الفرنسي في رأس محمودة. فللرجل تلك الصفات الجاذبة التي تثير النساء، بحسب معايير أسعد بالطبع. وهي معايير يزعم أنه تمكّن من تجميعها في الزمن الأعزب، ومنها طول هاني مثلاً، وبياض وجهه، وزرقة عينيه، وهو لون نادر في منطقة الجبل، ونظراته الذابلة، ونعاسه الأنثوي المدغدغ، ونكاته المباغتة والفاحشة أحياناً (وهي النكات التي لا يستطيع أن يلقيها أي أحد سواه بفضل طريقته الظريفة الصريحة عديمة الحياء). وقد كانت كل تلك الصفات تزيد من إعجابه بشريكه وصديقه من قبل، غير أنها صارت تبدو بعد قراءة الرواية شراكاً بذيئة، ملامح مضجرة،

انحلالاً في الأخلاق. وعلى الرغم من أنه كان مدركاً لحجم الأوهام في استنتاجاته، لم يستطع أن يتملّص من حضورها، أو من إصرارها على اكتمال الصورة المتخيّلة.

وسرعان ما بدأ أداؤه في العمل يخبو، وباتت شخصيته تتناقص وتضيع في الحمّى التي انتابته، وهكذا لم يعد يشارك في سهرات المجون التي كان يعيشها برفقة هاني، وصار يغيب عن البيت في أوقات غير معتادة، والحقيقة هي أنه لم يغب تماماً، وإنما كان يجلس متخفّياً في أحد المقاهي المجاورة، بحيث يستطيع أن يراقب من يدخل إلى البيت في غيابه. ولكن هذا سبّب له متاعب جديدة لم تكن موجودة في حياته من قبل، ففي البناية ستّ شقق، ويمكن لأيّ ساكن أن يستقبل من يشاء من الزوّار والأصدقاء، وهو لا يعرف من هم الضيوف ومن هم الغرباء، من الزوّار ومن العشاق، ولن يكون بوسعه أن يلاحق كل شخص يدخل أو يخرج، ولم تكن لديه الجرأة على اقتحام شقته، ففي الداخل، وسط أحشائه، كان يقبع كائن آخر يأمره بالكفّ عن تكهّناته السقيمة القاتلة، ويهتف له أن محمودة بريئة، وأنها ستكون الآن في أحد أروقة البيت تكنس أو تمسح الغبار. فيغادر المقهى في تلك اللحظة، ويمضي إلى العمل.

ولكن كائناً آخر، شيئاً ما آخر، دافعاً ما آخر، يريد منه أن يعود، ويتّهمه بالجبن والنذالة والضعف، ويحثّه على التقدّم أكثر في تلك الطريق الصائبة التي مشى فيها. ولكن الندم لا يفيده في شيء، فلا يجسر على العودة، إما خوفاً من أن يلاحظ الخدم أو صاحب المقهى، عودته السريعة، أو اختياره للطاولة التي يمكن أن يراقب مدخل البناية من ورائها، أو خوفاً من أن يمشي نحو بيته ويكتشف أن ظنونه كانت حقيقة، وأن إيما تخونه هناك.

أما في شغله فكان يظلّ ساهماً يشرد في الفضاء، ولم يعد يعرف كيف

يدير الحسابات، فطلب من شريكه أن يوظّفا محاسباً لإنجاز الأعمال المتأخرة، ودفع راتبه من حصته. لم يكن هاني يفهم ما الذي حدث، وفي المرة الوحيدة التي سأل فيه أسعد عن حالته، لم يجد غير عينيه الممسوستين بعبوس شيطاني مرعب. شعر بأن أي كلمة يمكن أن يقولها قد تفجّر الرجل الجالس قبالته. كان في عيني أسعد شيء يشبه الجنون، أو الرغبة في الموت، وما لم يعلم به هو أن أسعد شعر أن السؤال عن حاله يتضمّن رغبة دفينة في الفحش، وأنه لم يكن يسأل بل يحقّق ويبحث عن أوقاته الفارغة.. ولهذا فقد زاد ارتيابه بشريكه. وعاد مرة ثانية ليرتكب الخطأ القاتل الذي سوف يتسبب في تفتيت العهود بينهما، حين طلب من المحاسب الجديد مراقبة تحرّكات شريكه.

لم يكن هذا ممكناً بالطبع، ولم يكن معقولاً، ولا يقوم به غير شخص فقد عقله، وهذا هو الاستنتاج الطيب الأصيل الذي خرج به شريكه في العمل حين أخبره المحاسب بالتكليف الجديد المنوط به من قبل أسعد. وبفضل الصداقة والثقة اللتين تعززتا بينهما من قبل، تجاهل الأمر، ورأى أن رسالته تتركّز في الحفاظ على مال أسعد. ولا بدّ أنه كان يعتقد في البداية أن الرجل يعاني من مشاكل في الزواج، الزواج الذي نهاه عنه، وحرّضه على عدم إتمامه، إذ كان يدرك، وهو الذي رفض أن يتزوّج حتى تلك الساعة، عواقب تلك الشراكة التي عاش مغموماً في ظلّها أكثر من ستة عشر عاماً في طفولته.

ولم يخطر بباله مطلقاً موضوع الكتب، فلم تكن من المشاغل التي تحدّثا بشأنها قطّ من قبل، بل إن أسعد نفسه كان يردّد أمام هاني، إن أكثر ما يكرهه في هذا العالم هو الكتب، وإنه درس في الابتدائي بسبب عصا أبيه، وكره المدرسة بسبب عصا المعلّم سامي، وإذا ما ذكر أمامه أن أهواء أسعد

المتغيّرة، أو أن مزاجه الناري نجم عن قراءة كتاب، فسوف يذهب به إلى العصفورية فوراً.

وبفضل سنوات الصداقة والشراكة الماضية تجاهل موضوع المراقبة، خاصة أنها لا تتعلّق بالعمل والحسابات والدفاتر، واعتبر أنها غيرة صغيرة ترتبط بالرفاق الآخرين الذين بدأ يسهر برفقتهم في الأشهر الأخيرة، بعد أن كفّت قدم أسعد عن السعي بين أرصفة المقاهي، كما قال له في ما بعد في عتاب تأنيبي رقيق. وقد وضع القضية كلها في عهدة تعب نفسي طارئ ستزول آثاره بزواله القريب.

وجود العاشق الثاني في حياة إيما أخرج هاني من استقصاءات أسعد، بعد قراءة القسم التالي من الرواية، ولكنه لم يمنحه معطى جديداً يمكن أن يجعله موضوعاً للظنون، وقد شعر بالراحة لبضعة أيام في غياب الاسم الذي يمكن أن يملأ المساحة الشاغرة من هاني، وربما قدّر أن الغريم قد يأتي هذه المرة مثلما أتى رودولف بكلام مسحوب من بطن هذه الرواية اللعينة، يهمس به في رسائل لاهبة تحملها خادمات ممسوخات، أو يتصل بها عبر الهاتف، كي يغريها بالذهاب في طريق الرذيلة وراء الكلمات المغوية. وكان على أسعد بعد هذه الاستنتاجات المدروسة أن يبدّل في التكتيكات التي يتّبعها، فمن جهة صار العدوّ غامضاً ومجهولاً ومتقلّباً في الحضور بين الكتاب والواقع، ومن جهة ثانية بات يخشى أن يكون قد انكشفت له الخطط القديمة الفجة.

وفي ذلك الوقت توقّف عن معاشرتها، وصار ينام في غرفة ثانية وضع فيها صوفا يمكن فتحها لتصبح سريراً. وكان يمارس هناك أنواعاً مختلفة من الأحلام، أهمّها وأكثرها تواتراً إلى خاطره هو الحلم بالحب. هو حلم كانت محمودة بطلته باستمرار، لقد ساعده هذا الأمر على نفيها من العلاقة الزوجية، ووضعها من جديد في سرير العشق الذي يحلم به، ويتمنّاه.

ولم تقتصر التبدّلات على هذا، فكأس العرق اليومي المعتاد بحسب التقليد الذي صنعه لحياته، برفقة حبة البندورة والخيارة والقليل من الجزر إذا توفّر، صار طعمه مرّاً، ولاذعاً، وخالياً من البهجة المعتادة. كما أن نفَسَ النرجيلة المسائي الذي كان يرافق الكأس، قد أُلغي بعد أن صار يخنقه تدخينه. ولم تعد جلسة المساء المتأخرة تحتوي أي بهجة.

ففي كل الأوقات كان عقله يعمل على رصد الإمكانات المتاحة أمامه لتحقيق مشاغله، فإما أنه كان يفكّر في طرق نصب الشراك، ومعرفة المواقع الملائمة لاصطياد العشيق، أو أنه كان يفكّر في الطريقة التي يمكن أن تجعل محمودة تحبه.

وقد زادت بغضاؤه لشارل بوفاري أكثر، ولعنه من أعماق قلبه لأنه سمح لها، بطيبته وسذاجة موقفه من الناس حوله، وسرعة تصديقه لكل ما تبتكر من الذرائع، أن ترتكب تلك الخيانات المشينة، وأن تكنّ له الاحتقار. بينما كان عليه أن يُريها أن لدى الرجل عيناً ثالثة مركّبة في ظهره، وأن لديه حاسة شمّ كلبية، وعقلاً مدرّباً على الريبة، وقرون استشعار لا قرون ثيران.

ومن حسن حظه أن محمودة لم يعنِ لها انتقال فراش النوم شيئاً هاماً، بل إنها شعرت بالراحة والأمان والطمأنينة من أنها لن تضطرّ كلّ ليلة لخلع ثيابها التحتية والنوم على ظهرها وفتح فخذيها. وبهذا الخيار المفاجئ ستكون قد نجت من الوظيفة المهلكة التي جعلتها تكره الليل.

ولكن المسألة كلها لم تكن عادلة في الحقيقة، فلِمَ يدفع رجل بريء، حتى لو كان زير نساء مجرّب، ثمن حبٍّ فاتر قديم عابر بين شابَين رخوين لم يثابرا على تمتينه؟ وقد ظهر هذا الغياب المرعب للعدالة في المشروع التالي الذي بدأ فيه أسعد صبحي يكتب لمحمودة رسائل مقتبسة جزئياً، أو بالكامل، من كتاب بول وفرجيني، ويرسلها عبر البريد إلى عنوان بيته.

وبسبب ذلك أخذ يتأخر في العمل إلى ساعات ما بعد الظهر، آملاً أن تصل الرسالة إلى بيته في غيابه أثناء أوقات عمل سعاة البريد في النهار.

ولكن أسعد لم يعرف ما إن كانت الرسائل قد وصلت أم لا. في البداية شعر بالضجر من الانتظار، ثم اكتشف أنها تكاد تكون لعبة، أو مناورة، بينه وبين محمودة. فزوجته لا تعرف من هو العاشق الذي يراسلها، ولكنها تبدو سعيدة بالكلمات. وبينما كان يفترض أن من واجبها كزوجة أن تعترف له بوصول تلك الغزليات، فقد تمنّى أن تؤخّر ذلك شهوراً، إذ بدا له أن بوسعه أن يبدأ هو نفسه في الكتابة، وهو الأمر الذي بدأ بتنفيذه في منتصف الشهر الثاني من بداية إرسال الرسائل، وقد وجد لذّة خاصة في ابتكار المعاني، وفي تأليف المشاعر. ولكن هذا لا ينفي أنه كان تعيساً، تعيساً ومحروماً يستجدي الحب من المرأة التي قرّر أن تشاركه الحياة.

والمؤكّد أن محمودة قد استقبلت الرسالة الأولى هناك، وقد كانت أول رسالة بريدية تصل إليها طوال حياتها، واستغربت أن يكون أحدٌ ما في هذا العالم فكّر أن يرسل لها رسالة. ولذلك فقد احتوت من عناصر الإثارة والارتباك ما جعلها تسرع لفتحها ومعرفة محتوياتها، بقدر ما ذُعرت منها ومن توقيت وصولها. وسوف تقرأ تلك القطع الصغيرة المبهمة من الكلمات دون أن تفهم شيئاً. إذ كانت الكلمات المفعمة بالعاطفة والشجن صادمة لها. وقالت لي حين رأيتها برفقة زمرّد الجمال وسألتها عن مصير الرسائل، إنها لم تستطع أن تتذكّر أنها قرأتها ذات يوم، فالمنفلوطي لم يعد موجوداً في ذاكرتها منذ أن غاب كريم الزهر من حياتها. والجُمل المشبعة بالهتاف الغزلي، القادمة من قبل رجل لا تعرفه، تثير سخطها وغضبها أكثر مما تشعل حماستها. وبفضل طبعها الريفي الشكّاك الحذر صارت تقرأ الرسائل ثم تمزّقها وتحشو المزق داخل أكياس النفايات، كي لا تترك وراءها أيّ أثر.

ولكنّه لم يعلم شيئاً مما تفعله، وفشل في العثور على أي أثر يدل على مرور الكلمات في البيت، ولم تظهر أي علامة على بشرة محمودة أيضاً، وهو أمر كان يتوقّع حدوثه بالطبع، أي أن يرى حمرة خفيفة على الخدّين، شروداً في فضاء التأملات، انشغالاً بالكلمات، غير أنه لم يلمح سوى الارتباك والخجل وسرعة الفرار من مواجهة عينيه. وربما كانت تكفي هذه العلامات للتأكّد من وقوعها في مصيدة العشق التي نصبها لها، ولكن تبيّن أنه لم يكن قد جرّب العشق أو الحب أو الميول العاطفية من قبل، وأن جميع العلاقات التي مرَّ بها لم تكن غير اختبارات للجسد لا تمسّ الروح أو المشاعر، وأن نساء المواخير لم يقدّمن له أيّ معلومة حسية أو معنوية تستطيع أن تساعده في التعرّف إلى علامة الحب التي تخلّفها رسائله في روح محمودة. ولهذا لم يكن يغار من نفسه، أي من مرسل الرسائل. فأفضى به هذا الأمر إلى أن يتراخى في الصياغة كلّما تقدّم الوقت، وصار أسلوبه مصطنعاً. والسبب، كما يخيّل لي، أن حبكته كانت ركيكة، وهي مجرد ترجيع واهن لحبكة المنفلوطي الرخوة.

وربما كان هذا الضعف هو السبب في أن محمودة ظلّت تتلقى الرسائل بلا عاطفة (بينما بدت نادمة على الخسارة الفادحة التي لا يمكن تعويضها أبداً من الكلمات الندية التي كانت موجّهة إليها من رجل تحترمه) وخلال بضعة أشهر لم يستطع أن يكتب كلمة واحدة من عنده، وحين نفدت العبارات من كتاب الفضيلة اشترى كتباً أخرى عن الحب، ربما اشترى كتاب رسائل مبتذلة وجده في إحدى عربات الكتب في شارع الجامعة. وسرعان ما شعر بالملل هو نفسه من الصف المدرسي الباهت لعباراتها. كان يتعلّم ببطء ولكن بقوة أن كلمات الآخرين شحيحة وممصوصة ومليئة بندوب غريبة لها رائحة خمائر عتيقة. ولم يكن أي شخص ممن يحيطون به في عمله، وفي صداقاته، يعرف أي شيء عن الكتابة والمعاني، وكانت

المراسلات المتبادلة الشائعة المأخوذة من النصوص الجاهزة هي التي تستحوذ على إعجاب الناس، بفضل الصياغات البلاغية الجزلة التي تتعمّد البراعة والتنميق وجرس الحروف الناعمة.

ومنذ أن بدأ يكتب لها الكلمات بنفسه، مستغنياً عن نقل المشاعر، بدأت تتضح له آثارها، لم يكن يدرك قيمة الكلمات الحقيقية. كان خائفاً منها كما بات يدرك، لا يحبها، وربما اعتبرها عدوّة له في أكثر الأوقات السابقة، في حين أنها حين أخذت تتكوّن في رأسه، تنمو وتزدهر في طيّات مشاعره، حين بدأت تعبر عن كل لحظة من اللحظات التي يعيشها، بات لها طعم آخر. صارت محمودة امرأة أخرى غير تلك التي تقبع في البيت في انتظار أن تنضج الفاصولياء، امرأة مضمّخة باللون، والهمسات اللذيذة. صارت الكلمات مختلفة أيضاً، وقد قشر عنها تلك البذاءة التي تبدّت في رسائل السر المكتوبة على هوامش كتاب الفضيلة، أو في رسائل التجربة الفاحشة. صار أسعد نفسه شخصاً آخر. وحين يستعيد الجمل والعبارات التي يكتبها (خاصة تلك التي يمضي الليل كله في صياغتها أو إعادة صياغتها حتى الاكتمال) يشعر أنه موجود، وأن العالم يستجيب له، ويرضخ، ويتضح أكثر فأكثر.

ولكن شيئاً لم يتغيّر هناك، ولم يعرف المسكين أن محمودة لم تعد تقرأ الرسائل البتة، فما إن يصل المظروف المغلق، وما إن تغلق الباب وراء ساعي البريد، حتى تبدأ في تمزيق الورق دون أن تنظر ما هي الكلمات الموجودة بداخله. وربما كانت واحدة من الهفوات القاتلة أن أسعد صبحي نسي أن يخرق التقليد الذي سار عليه منذ البداية، إما بتغيير لون المظروف، أو رشّ القليل من العطر، أو تغيير خط العنوان، فقد كان لبهجته بنفسه، ولوعته، وشغفه، تأثيرٌ مخدّر، أحبط حواسّه الأخرى كلّها تقريباً.

وللمرة الأولى بعد أشهر يتجدّد إحساسه بالحياة، ويستعيد أنشطته في العمل، ولا يخرج من البيت قبل أن يحلق ذقنه، ويتعطّر، ويرتدي ثياباً مختلفة كلّ يوم، ثم يمشي في الشارع كما لو كان ذاهباً إلى موعد حبّ، لا خارجاً من بيت الزوجية. ومن المؤكّد أن سكّان الحيّ الذين يعرفونه لاحظوا تلك التبدّلات الغريبة التي تتداعى واحدة وراء الأخرى في حياة أسعد صبحي. ولأنهم كانوا يحبّونه فقد محا فرحُهم به أيَّ ظلٍّ للشكّ أو التساؤلات، دون أن يكون لدى أيّ واحد من بينهم، سواء أبو كاسم صاحب المقهى، أو أجيره صالح، أو فائق الفوّال، أو محمود الحلّاق، أو رفاق طاولة الزهر في مقهى البلان أي فكرة عما يحدث لهذا الرجل داخل قفص عظامه.

ووسط هذا الابتهاج نسي محمودة تماماً، وربما ظنّ أنها تسبح في نعيم كلماته المشبعة بسخاء غير معتاد من الحب والغزل، أو ربما ظنّ أنه تفوّق على كل سلالة المنفلوطي في هذا العالم، وخلق عصراً آخر مختلفاً من كلمات جديدة ابتكرها بنفسه، ولأول مرّة يحسّ أنه حرّ من الالتزامات الحمقاء التي بذر فيها وقته، ومن طيش المراقبة العمياء. وبفضل هذا الشعور اليقيني، صار يفسّر أيّ تبدّل في سلوك محمودة داخل البيت وفقاً لأحلامه وتقديراته. فإذا اشترت بيجامة جديدة، فإن الأمر يتعلّق بمناقب الفراش، وإذا تعلّمت طبخة مختلفة، على يد أمها الخبيرة التي ظلّت تزورها، فإن الأمر مجرد وشاية بالسعادة.

وبالمقابل فإن محمودة لم تهتمّ مطلقاً لما حدث، وتابعت حياتها العادية التي تتضمن تمزيق رسالة قادمة من مجهول كل بضعة أيام، وحشوها مفتّتة في أكياس الزبالة، ونسيانها، أيضاً، بعد دقائق من ذلك. وصارت تستطيع أن تخرج لشراء احتياجات البيت، ويمكنها أن تساوم

الباعة الصغار في الحيّ. بل إنها تجرّأت ووصلت إلى سوق الحميدية برفقة جارة لها اسمها نبراس، وأخذت درساً حقيقياً في أصول الشراء، على يدها. وعادت وقد اشترت لأسعد نصف دزينة من الثياب الداخلية القطنية بنصف الثمن المسجّل على ورقة التسعير. شهق أسعد هواء ملأ به رئتيه، وقال لها: «يسلمو إيديك!». دون أن يخبرها أنه هو الذي يوزّع تلك الملابس في الحميدية.

لا أظن أن أسعد فكّر في أي يوم بكتابة نسخة احتياطية من أي رسالة، وحين أخذت نسخة المنفلوطي من بيته، لم يكن بعد قد عرف أيضاً أن كل ما أنتجه خياله من الكلمات قد ضاع في حاويات النفايات، أو لم يعد له أي أثر في حرائق المزابل التي كانت تشعلها البلدية في أطراف البادية.

11

وجدت اسمه في نهاية القائمة، مكتوباً بخطٍّ مرتبك متردّد.

لم يخطر ببالي فؤاد أبو علم قطّ، فلا شخصه، ولا فكره وأخلاقه يمكن أن يسمحا له بأن يكون واحداً من تلك العصابة. وهذا ما أنكره بشدّة، وهو يلومني بحركة من رأسه، ومن عينيه، لأنني يمكن أن أفكّر، ولو للحظة بذلك. وحين رأيت «الأم» أغضى بصره، ولم يقل لي شيئاً. هل كان يعرف شيئاً ما؟ أم هل كان يعرف كل شيء؟ لا أدري، ولكن الكتاب كان يرقد بقوة وبثقل على رفٍّ داخليّ في خزانة حائط داخل البيت العربي الذي يسكن فيه فؤاد. وحين سألته ما إن كانت هذه هي نسخة المكتبة، هزّ رأسه عدّة مرات. اعترف، وهو يرفع ذراعيه أن رواية الأم لمكسيم غوركي كانت لديه منذ سنوات، واعتذر لأنه جبن كل هذه السنوات عن إعلامي بذلك، كما لم يعرف أحد أن الكتاب لديه. فأخرجت لائحة لقمان وقلت له: «اقرأ!». وحين رأى اسمه شحب، وقال: «هذا المخلوق البائس».

يبدو أن فارس أبو لوز هو الذي قدّم الرواية له: اقرأ! قال له بلهجته المتعالية التي تشير إلى أنه يعلم أن هذا الكتاب، سيقدّم له البهجة. ومنذ أن أخذ فؤاد أبو علم الرواية، لم يظهر إلا بعد أن التهمها. كان يقرأ في النهار وفي الليل، يقرأ بلا توقف، وفي الغالب فإن الأنفاس التي يأخذها

كانت تتضمن شرب الماء وتناول الطعام، وتنفيذ بعض الأشغال الضرورية الأخرى. وبينما كان أبوه يتسامح معه، معجباً بفعل القراءة الذي يشير إلى أن ابنه صار قادراً على كتابة رسالة بسهولة، كانت أمه تضيق من وجوده الثقيل المعطّل في أنحاء البيت.

ولكن القراءة الأولى لم تكن كافية له، فأعادها للمكتبة، بحسب قواعد الإعارة المتبعة، ثم استعارها في اليوم التالي، بعد أن جعل فارس يقسم إنه لن يعيرها لأحدٍ آخر (كأنما كان القرّاء على الأبواب!) وبدأ قراءتها منذ أن استلم النسخة. قرأها هذه المرة خلال ثلاثة أيام، لا في يومين كما في المرة الأولى، وبدأ يحفظ بعض الجمل ذات الإيقاع الرنّان، ومنها على وجه الخصوص جملة الأم الأخيرة: «أيتها المخلوقات البائسة». وأطلقها في وجه الشبان الكسالى القاعدين أمام دكّان قاسم الكبير على سفح التل الشرقي. أيتها المخلوقات البائسة! ولأن فؤاد أبو علم كان طويلاً وممتلئاً باللحم والعظام، فإن أحداً منهم لم يجب، بل ربما ابتسموا له، وسأله أحدهم ماذا تعني العبارة؟ يا للهول! كاد يجنّ تقريباً دون أن يمنح السائل أي فرصة لتوضيح استفساره. الحقيقة هي أنه لم يكن يعرف بمَ يجيب، وآثر أن يعنّف الشاب الضحل بالكلام، دون أن يشرح شيئاً. إذ كيف لا يمكنك أن تفهم ماذا تعني أيها المخلوق البائس؟ وبسبب موقفه المدعّم بالعضلات، أظهرت بقية الشلّة أنها تفهم جيداً كل ما تتضمّنه عبارة أيتها...

في القراءة الثالثة كان قد فهم كثيراً من الحكاية، وقد تعاطف مع بافل فلاسوف بقوة، ولكثرة ما ذكر اسم بافل، أو بافل فلاسوف، حيث يذكر الاسم كاملاً بتفاخر وكبرياء، اعتقد كثيرون أنّه صار شيوعياً. لم يكن أحد قد قرأ الرواية قبل أن يقرأها فؤاد أبو علم، ولم يكن اسم غوركي معروفاً في السماقيات، بل إن الاسم نفسه، بلفظه الغريب الثقيل غير المناسب للّسان

هنا، قد جعله بعيداً عن رغبات القراء، حين ارتبط منذ البداية بالروس الذين كانوا يعادلون الشيوعية. فإذا شاهد أي واحد منهم صورة الكاتب، بشاربيه الضخمين المتهدلين، ووجهه الصعب ذي الملامح الفلّاحية الساخطة، فإن قلة منهم كانت ترغب في استعارة الرواية.

ومع ذلك فإن فؤاد كان قد أضحى شديد الرغبة في مشاركة بافل كفاحه. وحين قال فارس إن الأمر قد انتهى منذ زمن بعيد، لم يصدّق. إذ كيف يمكن أن يكون قد انتهى، بينما قرأ بالأمس فقط تلك القصة؟ وبدأت تتغيّر علاقته بأمه، وصار يعيد استخدام جمل بافل دون مناسبة: «لا تقلقي من أجلي يا أماه!»، وتمنّى في أعماقه أن يكون كتاب الأم ممنوعاً، ولكن فارس طمأنه إلى أن الكتاب مطبوع في سورية، ولا أحد فكّر بمنعه.

وعلى الرغم من أن التضحية بهذه الفكرة قد سبّبت له الغم، فهي تقلل من فرص التعاطف مع بافل أو العيش وفق نمط حياته، فإن الرواية ألهمته طرقاً أخرى لإعادة إحياء بافل. كان فؤاد قادراً على نشر الفرح حوله، فقط حين يكون كما هو. يستطيع فؤاد أبو علم أن يروي الطرفة عشر مرات، فيضحك من يستمع إليه كما لو كان يسمعها أول مرة. لم يكن يخترع الحكايات بل يصفّيها ويرويها من التك تك إلى السلام عليكم طازجة ساخنة كأنها خرجت للتو من فرن الإعداد الخاص به.

صار بافل هو بطل حكاياته، وعلى الرغم من التحذير الذي همس به فارس في أذنه، خوفاً من أن يُعتبر تبنّي ذلك البطل في الرواية انتماءً إلى الحزب الشيوعي، فإن فؤاد لم يأبه للأمر. لم يكن يعرف الحذر في الحقيقة قبل أن يتعرّف إلى الرواية، وبدا له أنه لن يكون أقل من بافل في أي يوم من الأيام. وإذا كانت أمه لا تشبه الأم، فإن بوسع الخيال أن يبتكر أمّاً عظيمة ومضحية مثلها.

ولا يعني هذا أن تبجيله واحترامه لأمّه قد خفت أو تضعضع، أبداً، بالعكس، فابتكار أمّ يتطلب طاعتها واستشارتها في أي عمل أو فكرة في الحياة بدا له مهمة مقدّسة تعادل مهام تغيير العالم التي بدأ يفكّر بها. والغريب أن يكون قد اكتشف وحده، دون مساعدة تربوية من أحد، أن الطريقة الوحيدة هي أن يتغيّر هو في علاقته مع أمه. وقد وطدت قناعته هذه التي تحوّلت إلى ممارسة يومية في حب الأم، علاقتها به بالفعل، وصارت تردد في أي مكان حلّت به حين يُذكر فؤاد عبارة واحدة خارجة من قلبها: «فؤاد! الله يرضى عليه!». ومن منا لا يشتهي هذا الدعاء؟!

ولأنه لم يكن شيوعياً، لم تكن لديه أسرار يبوح بها للمباحث حين اعتُقل في زمن الوحدة، ولم ينفع التعذيب والضرب في إخراج ما لم يكن موجوداً أصلاً في رأسه. ويبدو أن المحققين أدركوا ذلك، إما من شكل الاستجابة البلهاء التي واجه بها أسئلتهم عن التنظيم، أو من خبرتهم ومعارفهم التي تراكمت بفضل الاعتقالات التي نفّذوها ضد الشيوعيين. فلا معلومات سياسية أو حزبية لديه، ولا إقرار بأي شيء مما يمكن تعميمه في الحملة التي شنّتها المباحث. إذ إن فؤاد ظلَّ قادراً على تحمّل التعذيب دون أن يعترف بأي تهمة، وظلَّ يردد أقوال بافل التي كان قد حفظها في السنة الفائتة غيباً. الغريب أنهم لم يسألوا عن بافل البتة، وهو أمر سبّب غمّاً وكمداً لفؤاد أبو علم، فقد خُيِّل إليه أن على الجميع أن يعلموا سيرة ذلك الشاب، وأن ما قاله للمباحث عن سلوكه مع أمه، وسلوك أمه معه، يكفي كي يحنوا هاماتهم احتراماً لروح الكائنين الإنسانيين العظيمين. غير أنهم لم يبالوا، وربما زاد تكراره لاسم تلك الشخصية في يقينهم ببراءته من جهة، وبلاهته من جهة ثانية. فبطولات الفتى الروائي لا تهمّهم بقشرة بصل، ولا تعنيهم، ما دامت قد حدثت في بلاد أخرى. كانت البلاهة تكفي كي يفرجوا عن فؤاد أبو علم، غير أن البراءة ظلّت مريبة، وما كان وضوحها

قريباً، ففي أحد الأيام سخر محقّقٌ شاب من بافل، ومن سيرة بافل، وشتم أمه واتهمها بالعهر. كانت يدا فؤاد مقيّدتين، ولكن لم يبقَ في عقله أيّ قيد، فدقّ رأسه برأس المحقق.

أُحيل إلى قاضي تحقيق آخر بتهمة الاعتداء على السيد عمار الشوك، والتسبّب برضٍّ دماغيّ. ولكن التهمة أُسقطت حالاً، وسُحبت قضية الرضّ من القضاء بسرعة، إذ إن شخصاً ما في الأعلى وبّخ الجهاز كلّه بسبب نقل قضية معتقل سرّي إلى قضاء معلن.

لم نكن نتحدّث عن فؤاد أو غيره، فوجوده عند المباحث كان كافياً للصمت. ولكن فارس لم يُخفِ الكتاب، ولم يأتِ أيضاً أيّ موظّف من المباحث لمصادرته. لقد تمّ تجاهل الموضوع بمهارة، كي لا تعمّم حالة فؤاد أبو علم، كما أفكّر. تُركت الرواية للنسيان، وفي غياب أبو علم، أُهملت ولم يرغب أحد آخر بقراءتها ممن أغراهم فارس.

وفي تلك الأشهر مات أبوه بعد أن انفجرت الزائدة الدودية في بطنه، ولم تترك أمه أحداً يمكن أن يساعدها في معرفة مكانه، أو في تخليصه من الاعتقال، دون أن تزوره. خاطرت بكلّ شيء. استدانت المال كي تتحرّك في الجهات. زارت وجهاء المدينة واحداً بعد آخر، ولكنها لم تحظَ بأيّ وعد، فلا أحد من بينهم كان يملك نعمة الوعد. كانت الردود صريحة في الغالب، إذ اعترف معظم زعماء العائلات الكبيرة في المدينة أنهم لا يستطيعون المساعدة، وربما نهرها واحدٌ أو اثنان منهم (عرفت من هما ولكني لا أستطيع ذكر اسميهما) إذ تأتي لطلب النجدة لمن صار عميلاً لروسيا.

ظلَّ في السجن إلى أن انهارت الوحدة بين سورية ومصر. وحين أفرجوا عنه جاء إلى السماقيات مساء، ولم يعلم أحدٌ بوجوده إلا في اليوم

التالي. كان قد استحمّ وحلق ذقنه، وارتدى ثياباً نظيفة، ثم استدعى محمد الحواط وطلب منه أن ينادي أن فؤاد أبو علم صار حرّاً.

لم يأتِ سوى عدد قليل من أهل البلدة لتهنئته بالسلامة، انتظرهم طويلاً في مضافته الصغيرة، ولكن بلا جدوى، فقد جاء ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط، وبدا أنهم مستعجلون. طلب من محمد الحواط أن ينادي بين الناس أن المباحث لم تعد موجودة، وأن البلد صار حرّاً. ولكن الحواط صار يضحك.

استعار الرواية مجدداً. عاد مرة ثانية يجتمع بالناس، وفي هذه المرة كان محور حديثه مكسيم جوركي، كان يلفظ الاسم بالجيم لا بالغين الثقيلة. يحكي عن حياة الرجل وعن طفولته الشقية والصعبة، وعن شبابه ونضاله. بكى في إحدى المرات وهو يتحدّث عن فقر جوركي. وعرض صورته التي قام برسمها بنفسه بعد أن علّم تلك المنسوخة على غلاف رواية الأم. أضاف إلى النحت الأصمّ عينين، وملأ الشاربين الحجريين والحاجبين والرمشين بالشعر. كانت الصورة متقنة، وقد أُعجب بها جميع الموجودين في الدكّان، وصاروا يشبّهون غوركي بعطا الطحان، أو بسليمان الذي كانوا يطلقون عليه تحبّباً اسم البغل، ولكن فؤاد لم يؤيّدهم، وقال إن جوركي يشبه بافل فقط. كان يريد أن يجعل أولئك الذين أحبوا غوركي، أو صورة غوركي الرجل الطيب، يحبون بافل، ويحبون فكرة بافل عن العالم. فصار كلّما سألوه عما فعل بصورة غوركي، يُحضر لهم صورة جديدة، ويحدّثهم عن بافل وعن فكرة تغيير العالم، وإنهاء حكم الاستغلال، ولكنه لم يجد أي تعاون. قوبل بالصمت، أو بالاعتذار، في حضوره، وبالسخرية والضحك في غيابه. لم يكن يظهر أمامهم في أي أفق عالم جديد، ولم يكن العالم الذي يعيشون فيه يبدو أنه قابل للتغيير: مساحات صغيرة من

الأراضي المحاطة بالصخور الصمّاء. سماء شحيحة لا تمنح المطر إلا كهِبات، هناك احتمال أن يكون قد روى لهم أشكال التعذيب التي تعرّض لها في السجن، آملاً أن يحرض وجدانهم أو يلهب روح البغضاء لديهم ضد الجلّادين، غير أن الكلام أسفر عن تعميم حالة من الرعب أفضت إلى امتناع الجميع عن مجاراته في أي نشاط، أو الاستماع إلى ما يقوله في ما بعد. صاروا يغادرون المكان الذي يكون فيه، ما إن يبدأ بانتقاد الوضع. صحيح أن الرجال تغيّروا في أعلى السلطة، ولكن السجّانين ظلّوا هم أنفسهم، المخبرون هم أنفسهم، الأوراق، الغرف السرية...

غير أن فؤاد لا يستوعب شيئاً من تردّدهم وذعرهم. ثمة كسور عميقة كانت قد أخذت تشرخ كيانه، وبفضل البقية الحيّة من الروح التي كان يملكها، تمكّن من البقاء واقفاً أمام تلك المجموعة من الناس. كان شعور بالاحتقار تجاههم قد بدأ يملأ ضميره ووجدانه. وقد أدرك أن الأمر لا علاقة له بالخوف، أو بالرعب، بل بالتعب، والخيبة، والعجز.

فكان ينظر إليهم بكبرياء ويقول: «أيتها المخلوقات البائسة!».

كانت أمه تراقب حركته الخاسرة بعينين متعاطفتين، وكانت حماستها نابعة من حبها له، وإعجابها الشديد بفكرته، دون أن تكون ملمّة بأيّ تفصيل من تفاصيل الأمر، فهي لا تمانع من تغيير العالم، إذ كانت تحلم، كما قالت لفاطمة عمّتها، بأن يكون في وسعها شراء راديو والاستماع لوديع الصافي أو لصباح أو للسيدة أم كلثوم. وقد تتمكّن من شراء صاج جديد للخبز، وشراشف ملوّنة تبدّل بها كآبة الشراشف القديمة المهترئة.

ولكنهما بقيا وحيدين في عالمهما القديم، يفكّران بالأمل، يخططان للسعادة، يحلمان بأن فجراً جديداً ممكناً سوف يأتي. ولحسن حظهما فقد كانت مطالب العيش لا تضعهما أمام اختبارات صعبة. فالحياة في

السماقيات كان تسير وفق إيقاعها القديم الممتد عشرات أو مئات السنين دون تغيير. وكان بإمكان فؤاد أن يضمن طعامهما، ولباسهما، بعد أن يبيع محصول القمح والشعير والعدس أو الحمص، ويبقى لديهما بضع مئات تكفي للطوارئ طوال العام.

أما رواية الأم فإن المصادفة وحدها هي التي أنقذتها من التلف أو من النهب. فحين هوجمت مكتبة السماقيات، كان قد استعار الرواية للمرة الخمسين أو أكثر. لم يستغرق الهجوم والمعركة التي دارت حول المكتبة أو بداخلها، بما في ذلك مقتل فارس، أكثر من نصف ساعة، قل ساعة مثلاً، إذ تطلّب النهب وقتاً أطول بقليل من وقت الشجار، أو القتل.

في البداية اختلط في وجدانه الإحساس بالارتياح لوجود الكتاب في بيته، ونجاته من المصير الآخر للمكتبة، بمشاعر الخزي والعار بسبب ارتياحه، فقد قُتل فارس دون أن يعرف ما السبب ومن القاتل، بينما اختفت المكتبة كلّها، ولم يعد موجوداً أمام ناظريه غير كتاب الأم، وصورة تمثال غوركي الصخرية العمياء التي لا تحرّك المشاعر.

ولكنه أخفى الكتاب في بيته ولم يخبر أحداً عن وجوده. كان قد اكتشف في صندوق أمه الخشبي حقيبة قماشية صغيرة مخصصة لحفظ أحد الكتب المقدّسة، كانت فارغة فاستعارها أيضاً، وحشا الرواية فيها دون أن يخبر أمه. غير أن بافل جاءه في المنام، ويبدو أنه تلقى توبيخاً صارماً لا تسامح فيه تجاه خداع الأم، ولم يرضَ بالذرائع الفاسدة التي قدّمها، إذ بدت له كلّها مجرّدة من الأخلاق التي تحضّ على احترامها وطاعتها. ولفرط تأثره كاد يذهب ويوقظ أمه ليلاً، ولكنه عرف أن الأمر لن يعجب بافل فلاسوف أيضاً، حتى إذا رأى أول شعاع ضوء يظهر في عتمة النافذة، أسرع كي يراها ويخبرها بما فعل.

«هات الكتاب!» قالت له بحزم، وحين أحضره، أخرجته من الحقيبة القماشية الحمراء ثم قبّلتها ووضعتها على جبينها، واتجهت بناظريها نحو السماء وغمغمت: «سامِحنا يا ربّ!». وأعادت الحقيبة لفؤاد، وهمست: «خبّيه!».

هل تملك سرّاً تخبّئه أيضاً كما خبّأت الكتاب يا فؤاد؟ أقسم لي أنه اختبأ مثلما خبّأ الكتاب كل هذه السنوات، لم يستطع أن يهدأ بعد تلك الجريمة، صار كلّما سمع خشخشة أفعى، أو ركض حرذون، أو قفزة قطّ، أو هجوم كلب في الليل، أو خفقة أو اختلاجة أو نَفَساً أو خطوةً، ظنَّ أن وراء تلك الأصوات شخصاً ما يريد انتزاع الكتاب منه، أو يريد تخليص روحه.

قال فؤاد: خطوهم بات مرعباً، ووجودهم داهم وجودنا، وحضورهم صار يعني أن علينا أن نغيب، أو نطأطئ.

أعرف هذا، وأعرف لماذا دُمّرت المكتبة، ولكن أريد أن أعرف من قتل فارس، ولماذا قتلوه؟

فالعلاقة بينه وبين فارس أبو لوز كانت تزيد عن حجم كتاب، فإذا كان قد أمسك بيده كي يقرأ كتاباً، فإنهما بذلك كانا يبدأان حياة مشتركة خارج دفتَيه. وربما كان فارس لا يريد أن تضيع منه مرة أخرى تلك الحياة الفاتنة التي منحها له الأستاذ. تلك التي تبدأ بعد أن تغلق الكتاب الذي كنت قد انتهيت من قراءته.

12

لم يعد فؤاد أبو علم قادراً على البقاء في البلدة. يخامره إحساس بأنه مراقب، وأن أحداً ما ينظر إليه أينما ذهب. كان يرى عينيه وحدهما، كأنما تمكّن ذلك الرقيب، المراقب، من فصل عينيه عن جسده، وتركهما في الهواء حول فؤاد: في البيدر، وراء الحمارين أثناء الحراثة، وفي أغلب المرات كانت العينان وراءه، يلتفت فجأة، فيراهما وهما تفرّان إلى الإغماض. تختفيان خلف عتمة ساكنة منذرة. كان اختفاؤهما يسبب له المزيد من القلق والرهبة والحذر، إذ إن ذلك يعني أنهم باتوا قادرين على تتبّع خطاه دون أن يراهم.

وما عذّبه أكثر أنه لا يستطيع أن يفشي هذا الأمر أمام أحد، وحين بدا له أنه سرّه وحده، ازداد رعبه من العزلة والحصار اللذين يحكمان الطوق حوله. وسرعان ما تحوّل فكره إلى أنه مطارد، وأنهم لن يتركوه قبل أن يقرّ ويعترف أن الكتاب موجود لديه. وعندئذٍ ماذا يمكن أن يفعلوا به؟!

فكّر أكثر من مرة أن يحمل النسخة بيده، ويذهب إلى بيت لطفي الجمل، ويقول: «خذ، هذه هي الأم!». رأى نفسه يفعل ذلك في الحلم، وفي الحلم شعر بالراحة، بإحساس الناجي. في تلك الليلة جاء مكسيم غوركي لزيارته. كان يتوكأ على عصا، ووقف في باب الدار، وراح يقول

شيئاً ما. كان يتحدّث بالعربية بصوت أجشّ متعب وهو يلومه لأنه أضاع عشر صفحات من الرواية. ثم ركب حصاناً وأردف بافل خلفه ومضى. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها بطله وسط الحلم. لم يتخيّله من قبل بهذه الصورة.

لم يعد موضوع الرواية، أو نضال بافل، أو حياة غوركي، تشغل باله، بل حياته هو ومصيره وخوفه من أن يلقى مصير فارس. وفي أكثر نوبات الذعر صار يفكّر بتدمير الكتاب، إحراقه، بيعه في السويداء. ولكن كل فكرة من تلك الأفكار كانت تخلق مشاكلها ومصاعبها واحتمالات حدوث مفاجآت تفضح ما أراد أن يخفيه. يمكن أن تفلت صفحة واحدة من الكتاب، تطير جملة، أو كلمة، ويأخذها أحد ما إلى لطفي الجمل. وهو يعلم أن لطفي أراد إحراق الكتب، الانتهاء منها، لا نهبها، فالنهب لم يضيّع الكتب، بل وزّعها، فرّقها بين أيدي الناس، وليست لديه أي معلومة عمّن أخذ، أو خبّأ في بيته.

كان الحزن قرين الخوف، فقد انتهت فكرة بافل إلى تلك الحفرة المظلمة التي تسمى الخيبة والخسارة وفقدان الأمل. كان لطفي الجمل هو الذي يطبع عصر السماقيات تلك الأيام بكلّ تحرّكاته. يحدد كل شيء يمكن أن يقوم به أهالي البلدة فوق الأرض. استولى على أرض الشمس والغيم والمطر. أخذ التراب أيضاً. حدّد عدد الماعز والأغنام. تحكّم بمجيء الأبقار إلى بيوت الفلّاحين، فمن لا يرضى عنه لطفي لن يستطيع أن يمتلك واحدة من تلك العجول التي بدؤوا استيرادها من هولندا. وبعد انقلاب الضباط الأول في أيلول ازدادت قوة لطفي الجمل. بات يحيّره هذا الرجل بقدر ما يخيفه. فمقابل كل قفزة تحدث في العاصمة يصعد درجة في سلالم القوة.

ولهذا فقد باتت فكرة بافل مجرّدة من القوة المعنوية والروحية التي ضخّتها رواية الأم فيها. وحين كان يراقب حشود أهالي السماقيات وهم يهتفون وينشدون ويرقصون في مناسبات الأعياد التي يقرّرها لطفي الجمل، كان يغمغم مقهوراً يائساً: «أيتها المخلوقات البائسة!».

كان فؤاد حينئذٍ في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت أمه تضع أمامه كل بضعة أيام اسم فتاة من فتيات القرية كي تكون مشروع زوجة. ولكنه لم يجرؤ على تنفيذ الفكرة. قال إن عليهما أن ينتظرا قليلا، بينما كان في الحقيقة يلغي الفكرة، فقد بدا له أن بقاء لطفي صار أبدياً، وأن بحثه عن الكتب لن يتوقف لأنها سُرقت أو نهبت من مكانها، وربما أفشت الزوجة القادمة التي لا يعرفها بسرّ الكتاب، إذا ما اكتشفت يوماً ما وجوده. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن تفعل النساء.

تلك الجملة التي جرحت أمه، لم يأبه بها، وقد قالت له: «مين علّمك أنّو النسوان خوّانات؟!». كانت غاضبة وحانقة عليه وعلى الكتاب الذي قدّم له تلك الكلمات. غير أن رأيه هذا لم يكن نابعاً من المعرفة أو التجربة، بل من التكهّنات، فالوقت لم يقدّم له أيّ مناسبة للتعرّف إلى بنت وتبادل الحب. وقد أمل دائماً بتلك الفتاة ولكن دون جدوى. لم تتقرّب أيّ بنت منه، لم تلاحظه أيّ بنت، وربما كانت الشائعة التي تقول إنه شيوعي لا يريد غير أن يجعلهن عاملات في مصانع بافل قد أبعدتهن عن طريقه. وبدل أن يعتذر من أمه تجاهل القضية. لم تكن تلك هي قضيّته في تلك الأيام، ولم يدرك ما الذي تركه هناك في صدر المرأة العجوز التي كانت تنتظر أحفادها.

كل هذا كان محبطاً، وقد لاحقته تهمة الشيوعية دون أن يكون شيوعياً، وعلى الرغم من أنه لم يكن للحزب أيّ قواعد في المنطقة كلّها، فإن الجمل

ظلَّ يشنّ حملات التوعية، كما سمّاها، ضد هذا الحزب: كفّار، ملاحدة، لا يؤمنون بالله، ويتزوّجون من شقيقاتهم، خونة، يعبدون لينين وستالين، بينما أوقف فؤاد حلم بافل تماماً، بعد تدمير مكتبة السماقيات. وحين يذكّره أحدٌ ما بالرواية أو بالبطل تتردّد داخل عظام جسده كلّه رجفةٌ عنيفة، ويغمره عرقٌ مذلّ. لم يعرف هو نفسه ماذا يحدث له، لماذا حلَّ الخوف محلّ الحلم؟ لماذا حجب وجود لطفي الجديد كل تلك المخططات الإنسانية الباهرة التي كانت تشغل باله في اليقظة وفي المنام؟ لماذا صارت له عينان في قفا رأسه يراقب بها ظهره، كي يحميه، بدل عينيه اللتين كانتا تنظران إلى البعيد؟ لم يعد الوقت يسعفه كي يجد الجواب، إلا حين ظهر الجمل في بيته.

لم يكن يتوقّع زيارته. لم يرَها في أيّ أفق. إحساسه الوليد بالخطر لم يقل له إن لطفي الجمل يمكن أن يفعلها، فبقدر تقدُّم الحكم في ترسيخ قوّته، كانت مهام الجمل تتسع وتزداد. وقد علم أنهم جعلوا فرق الحزب في دائرة القرى المحيطة كلّها تحت سلطته، بعد محاولة الانقلاب التي شارك فيها سليم حاطوم. قالوا إن الجمل استطاع الخروج من القاعة التي حاصرتها قوات الانقلاب، وإنه جمع عدداً كبيراً من أعضاء الحزب وهتفوا في الشارع ضد الانقلابيين. كانت السماقيات تروي الحكاية كما حكاها لطفي الجمل. رفعوا الأعلام على سطوح المنازل.. فكّر منذ أشهر بعيدة أن الجمل صار بعيداً. وصارت سيرة المكتبة من الماضي المنسيّ.

وفي الداخل قال الجمل بلهجة مسمومة خالية من الودّ: «كلمتين وردّ غطاهن يا فؤاد أبو علم. شو هي الكتب يلّي عندك من مكتبة السماقيات؟». فكّر في نفسه، ليس الجمل ساذجاً، ولا يطرح الأسئلة دون أن يكون جرّبها. فالسنوات الأربع التي مرّت على استلامه للقيادة علّمته كثيراً، ولهذا فإنه

يريد أن يقول له إنه يصيد الحجل طائراً، وفي داخل أعماقه كان يرتعد. لا تنفكّ أيام الاعتقال تراود ذاكرته، تذهب مخيّلته دائماً إلى ما هو أكثر فظاعة أيضاً، مما يحتمل أن يكون قد سمعه عن السجون الجديدة التي افتتحها حكم البعث. خشي أن ينكر، وخشي أن يعترف، وخشي أن يماطل، وخشي أن يقرّ. إلى أن وجد أمه تدخل فجأة إلى المضافة. تذرّعت بالشاي الذي كانت تحمله على صينية من النحاس. قالت للجمل: أهلا وسهلا، ولكنها لم تقل له إنه لا يوجد في البيت غير الشاي. جلست قريباً من لطفي ولم تنظر ناحية فؤاد. وحين رشف الجمل أول رشفة، سألت ما إن كان الشاي طيباً، فشكرها بتمتمة مرتجفة. قالت له إنه لم يزرهم طوال السنوات الأربع الماضية كلّها. وسألت لماذا؟ فغمغم الجمل بكلمات غامضة. قالت أهلا وسهلا، ثم وجّهت كلامها لفؤاد: «أيّ شي بدّو يّاه لطفي لا تتأخر عنه يا فؤاد!» قالت بلهجة صارمة خالية من الظلال. قال لها فؤاد إن الجمل يسأل ما إن كان لديهم كتب، فنظرت إلى لطفي، طأطأ رأسه، ثم استدار نحوها وقال همساً: «سؤال يعني. سؤال عابر بس»، فصارت تهزّ رأسها، ثم قالت: «في عنّا.. بالغرفة الجوّانية في صندوق، وجوّات الصندوق في كتاب ملفوف بخام أحمر اسمه كتاب الحكمة، إذا بدّك تاخدو، فيك تروح تجيبو من الغرفة!». جمد الجمل في جلسته، خيّم صمتٌ فارغ خالٍ من الودّ في المكان، وغمغم لطفي بعد ذلك بصوته الراجف: «عفواً يا خالتي أم فؤاد!». قالت بلا ودّ: «ما عنّا كتاب غير هذا!»، فنهض لطفي واستأذن في الذهاب، لحق به فؤاد إلى باب الدار يودّعه، وحين سمعت صرير الخشب وهو يغلق همست لنفسها: «سامحني يا ربّ!». ثم ألحقت لطفي الجمل الذي كان يمشي في الزقاق خارج المنزل: «أيها المخلوق البائس!».

في ذلك اليوم تذكّر فؤاد أن اسم الرواية هو الأم وليس بافل أو غيره،

تذكّر أنه لم يتحدّث مع أمه منذ زمن، وأن الرعب من السجن أو الاعتقال مرة ثانية قد بلّد مشاعره، كأنه لم يكن يراها، كأنما كان وحده في هذا العالم، وفي تلك اللحظات ازداد تعلّقه بالكتاب، وقد وجد أن بوسعه أن يعيد قراءته بطريقة أخرى لا ترى البطولة في الخارج بل في الداخل، لا يرى نفسه هو البطل بل أمه. لم يعد بالوسع فعل أي شيء، لقد فات الأوان. سرقت السنوات القليلة الماضية منه كلّ تطلعاته وآماله وعنفوان شبابه. ولم يكن يرى غير نفسه. وحين رأى، كان كل شيء قد سُرق منه.

في الليل حين كان قلقاً عاجزاً عن النوم، لم يجد من يخاطبه غير نفسه، ولم يجد ما يقوله لنفسه غير: «أيها المخلوق البائس!».

13

تك تك. فتحت الباب، ووجدت أمامي راضية الحلبي نفسها. لم أصدّق ما رأيت. فمن يعرف من هي راضية يستطيع أن يخمّن هول المفاجأة التي واجهتني، سأقدّم في ما بعد جرداً موجزاً يلخّص علاقتنا. أما في تلك اللحظة فقد حيّرتني ابتسامتها. كانت تخفي لغزاً. هذا ما يمكن أن يخمّنه أيّ شخص يرى تلك المرأة وهي تبتسم. ولأني أعرف راضية فقد خمّنت أنها تحمل لي شيئاً ما خطيراً في تلك الحقيبة الجلدية السوداء المركونة بجانب الحائط، إذ قالت: «شو المكافأة يا شاطر؟!».

لم يعد بوسعي تقديم أيّ مكافأة لراضية من النوع الذي اعتدت تقديمه، فالبروستاتا من جهة، وآلام الظهر التي تهدّدني كلّما حاولت العبور إلى حقل آخر غير حقل الكهولة، كانت قد وضعت تحذيرات تلجم أيّ رغبة لي فيها. الحقيقة هي أن الكلام عن الرغبة مجازي في الغالب، فالرغبة براضية، ليست أكثر من ميل فكري موروث من الماضي القريب أو البعيد. ولهذا فإن تقديم المكافآت لها سيكون مجازياً أيضاً.

«ها؟!» قلت لها وأنا أمشي وراءها. فتدخل مرفوعة الرأس، وهي تهزّ ذيل شعرها الأسود الذي بدأت تتسلّل إليه شعيرات رمادية خجولة من الشيب، وحين رأيت شعرات بيضاء في قمة رأسها أيضاً وهي تسبقني إلى

غرفة الضيوف، قلت لها: «بدأت تلحقين بي يا راضية!»، فالتفتت نحوي وقالت: «وأنا راضية». ذكاؤها وإجاباتها المختارة كانت تجعل منها ناطورة كلام. وإذا كنت من المعجبين بها، وبأجوبتها السريعة، فليس السبب أنني عشقتها ذات يوم، بل هو تلك السعادة التي تمنحها لي (ولكل من يستمع إليها) وهي تجيب أو تردّ على أي سؤال أو تحرّش إجابة مكتملة، كأنما أُعدّت في رأسها منذ ولادتها، بحيث لا يبقى من بعد الجواب، أو الرد، أو التحذير، أي فسحة أو أي ثغرة يمكن النفاذ منها إلى المزيد من التقدّم نحوها.

وبالرغم من متعة الجواب فقد كانت كاذبة، إذ لم تكن، ولن تكون، راضية قطعاً عما وصلت إليه بعد سنوات الهدير والصخب التي عاشتها. أذكر أنها همست في أذني ذات يوم بينما كنا نائمين معاً: «عندي جمر جوّاتي!» وذلك ردّاً على ملاحظتي التي أبديت فيها إعجابي بسخونتها في الفراش: «ورح يبقى هيك كلّ عمري!». وكانت تؤمن أن حماستها العملية في الحب، ليست مجرد إشراقات للعمر، بل هي قوة داخلية تجلّلها براعة تبحث عن اللذة. لا تموت الدوافع البشرية في البحث عن اللذة في رأيها بسبب عدد السنوات، بل كانت تقول إن اللذة نفسها لا تموت أبداً، «إذ إنها مثل الموسيقا يمكن استعادتها والشعور بها بعد زوالها، ولا تنتهي إلا إذا متنا نحن». قالت إن لحظة الموت نفسها يمكن أن تكون لذيذة، وكما هي عادتها أضافت بلذّة: «تعرف؟ سأخبرك بذلك في وقته!».

كانت تخطط في تلك السنوات كي نبقى معاً، بزواج أو دون زواج. ما كان الأمر يهمّها، وقد استطاعت أن تحمي نفسها بالزواج من رجل يعمل في البناء، أظن أنه معلّم في بناء الحجر البازلتي، وربما كان قادراً على نحت تلك الحجارة الصلبة وتشكيلها كما لو كانت عجينة. والراجح أنني

رأيت كثيراً من الأبنية التي نحت حجارتها، وبناها بنفسه في أكثر من مكان. غير أن ذلك العمل أنهك جسده. كان يأتي إلى البيت مساءً، وقد تيبّست عضلاته، فيأكل، ويرتاح قليلاً، ثم يمضي إلى النوم. ولسبب ما لم ينجبا أولاداً، وقد رفضت أن تقول لي لماذا، ورفضت أن تحمّله المسؤولية عن ذلك، كما قالت إنها هي أيضاً خصبة مثل حقل من الذرة البيضاء. لا أعنى بمثل هذه الأمور، ولكن كلا الأمرين عملا في خدمة أوقات الفراغ التي لديها، ولم ألاحظ في أي يوم أن لدى نجيب أي اعتراض على وجودي في البيت. ولم يغضب أيضاً حين يأتي ويجدني جالساً أشرب الشاي، أو القهوة الحلوة التي تجيد راضية قراءة خطوطها في الفناجين بعد شربها، كان يغتسل ويأكل، ويسألني: «كيف البصّارة؟». في الغالب كنت أجد لديها توقّعات طيبة، ولم يحدث أن فشلت في حساب زمن السعادة. وكانت تذكّرني بها حين نكون معاً في الفراش.

ولكني لم أستطع أن أعرف ما إن كانت قد بادلتني حباً بحب، فقد بقينا معاً أكثر من ست سنوات، دون أن يتكلّم أحدنا مرة واحدة عن الحب، أو عن الزواج. كلانا كان قد وجد لدى الآخر حاجته القصوى، ويبدو لي أن الإشباع كان سبباً في عدم التطلّب.

تلفّتُّ حولي بعد أن جلست. فتركتني أتأمل التبدّلات التي طرأت على الغرفة (سوف أرى أن البيت كلّه قد تبدّل عمّا كنت أعرفه) إلى أن قالت وهي تهزّ رأسها، كأنها توافق على فكرة خطرت ببالي، إن ما فعلته طبيعي، مسحت من المكان كل ما يذكّرها بنجيب. قالت لي إنها لم تفكّر بتخطّي الذكريات حين بدّلت عفش البيت، فقد كان عتيقاً ولم يعد يصلح للبقاء. لكن لا يمكن الدفاع عن فكرتي، كما لا يمكن دحض فكرة راضية. فاكتفيت بالقول إنها تفكّر في الأشياء التي تتمنّاها فقط. فالتفتت نحوي

معاتبة. لا أدري لماذا قلت لها ذلك، إذ إن راضية ما كانت في أي يوم تكره نجيب، ولكنها لم تحبه أيضاً. اعتذرت منها فوراً، وقلت لها إنها جملة طائشة فقط.

المهم هو أن بوسع راضية مساعدة من يحدّثها على التملّص من مآزقه في حضورها، وهكذا أسرعت تخرج من الحقيبة كتاباً عتيقاً مجلّداً بورق التجليد الأزرق الذي كان الطلاب يغلّفون به كتب المدرسة أو دفاترها. مدّته نحوي وقالت: «تفضّل!».

كنا قد اشترينا ثلاثية نجيب محفوظ أولاً، وكان هذا هو قصر الشوق. كان هذا الكتاب مشهوراً هنا بسبب وجود مكان له الاسم نفسه قريباً من مرقب سنان في الجهة الجنوبية من اللجاة، ولا بدّ أن كثيرين من الذين زاروا المكتبة أيام فارس لفت انتباههم الاسم واستعاروا الكتاب بسبب الفضول. كان الكتاب منتفخاً، وقد زادت سماكة أوراقه لكثرة الاستعمال (أقصد القراءة بالطبع) واتسخت أطرافها التي تمسك بها الأصابع لتقلبها. كان الناتج يبعث على السعادة، فحتى لو قُرئ الكتاب مسروقاً، فإن المنفعة حاصلة. غير أنني سألت نفسي بينما كنت أقلّب الرواية بين يدي: «ترى بمَ فكّر أولئك الذين تبادلوا استعارة الكتاب وإعارته وهم يعلمون أنه آتٍ من إرث مكتبة السماقيات؟». فسارقو هذا الكتاب، لم يمسحوا اسم المكتبة المسجّل على الغلاف، ولا رقم التسلسل. هل يعني هذا أننا صرنا تاريخاً؟

لم يكن حال بين القصرين والسكرية مختلفاً عن شقيقتهما، غير أن راضية لم تكن معنية بهذا الأمر، بل بالكتاب الرابع لمحفوظ وهو رواية السراب.

كانت قد وجدت الكتب في منزل إبراهيم عثمان. ويبدو أن زوجته كانت قد قررت أن تبيع مكتبته أخيراً، وقد تذرّعت لراضية بأن السبب هو

ضيق المكان، من جهة، وحاجتها للمال من جهة ثانية (تقول راضية إن صباح، وهذا هو اسمها، تكذب في كلا الأمرين). ولكنها لم تجد شارياً يمكن أن يحمل المكتبة كاملة. لهذا بدأت تبيع الكتب على دفعات. وقد أوقعها سوء الحظ بين يدي بائع كتب جوّال كان يريد أن يشتري الكتب بحسب وزن كل منها. كانت صباح تعيش وحيدة في البيت الذي ورثته عن زوجها، ولم تفكّر ببيع الكتب طوال الأشهر العشرة التي مضت على وفاته (المعروف أنه انتحر). غير أن السبب كان في مكان آخر، كان مختبئاً خلف الصمت. لا صمت الزوجة، بل صمت الميت حين كان حياً. ففي الظلّ، في واحدة من الزوايا المهملة كان قد خبّأ الكتاب. وحين وجدته صباح استعادت تاريخاً من الحياة، من حياتها ومن عمرها، من عذابها ومن حيرتها. فمنذ ست سنوات توقّف عن النوم في فراشها. لم يقل شيئاً، بل أدار ظهره لها، ثم لم يعد حتى ساعة موته.

في البداية صدمها صمته، أذهلها اندحاره المفاجئ، وانقلابه نحو الداخل على الفراش. صار ينام قبل أن تنام إذا شعر أنها تميل للسهر، يدّعي أنه متعب، ويتثاءب كقط، ثم ينسلّ هارباً. أو يتأخر في السهر حين تبدي أي نعاس وميل للنوم. نامي! يقول لها، ثم يسرع في تقديم دبلوماسي لطيف: «تصبحين على خير». تلك إشارة قاطعة ونهائية تقول لها أن تغفو بلا أمل.

كان الجنس بينهما احتفالياً من قبل، فقد أتقن إبراهيم شغله في الفراش، ولم يستعجل في أي يوم، وكان ينتظرها إذا تأخرت، أو رغبت في بضع دقائق. ولم يأتِ في أي يوم وحيداً. فماذا حدث؟

شلَّ قراره المفاجئ وعيها تقريباً، فلم تجرؤ على اتخاذ أي مبادرة، بحيث تظهر أنها راغبة في الجنس. لا لأن ذلك الفعل اختصاص ذكوري

تعترف به النساء جميعاً، وإنما لأنها عجزت عن الاستفسار، والأرجح أنها خجلت أن تسأله لماذا. استعادت تاريخ النساء في الأرض، وقالت لنفسها: «اصبري يا مرة». وفي الشهور التالية كانت تنتدب كل مرة تفسيراً مناسباً لحالته. ربما كان حزيناً لفقد والديه المتواتر، ربما. فقد مات أبوه في حزيران، أي بعد الحرب بثلاثة أيام. أذكر التاريخ جيداً، وأتأمل أننا بينما كنا نعزّيه بوفاة والده، كان إبراهيم عثمان ميتاً في الحياة. وقد لحقت أمه بأبيه بعد شهر واحد. ولكن موت الوالدين يمكن أن يعطّل النشاط بضعة أيام، أو أسابيع، ولكن ليس أشهراً. وعليها أن تبحث عن أسباب أخرى. كانت كل ليلة تشمّ رائحة ثيابها قبل النوم، وتشمّها بعد النوم. أخذت تستحمّ كل يوم أيضاً، تغسل كل جسدها بالصابون، أو تفرك جسدها بليفة خشنة تحِتّ بها كلّ ما يمكن أن يكون سبباً في تشويه لحمها، حتى صار جلدها شفّافاً تظهر تحته أحشاءها. التهب باطن فخذيها، وتحت إبطيها، وجانبي عنقها. ولكنه لم يعد يرى، فأخذت تجرش بأسنانها صباحاً وظهراً ومساء حبات الهال آملة أن تتمكّن الرائحة العطرة من طرد احتمال العفن.

ماذا يمكن أن تفعل؟ كنت أريد أن أقول إنني لا أفهم النساء أحياناً، بل إن الحقيقة هي أنني لا أفهمهن في الغالب، فلو كنت أنا الذي أكتب القصة عن صباح، فإن لدي افتراضات لا حصر لها تتعلّق بطبيعة المرأة، لا بطبيعة هذه المرأة فقط.. غير أنني لا أفهم لماذا صمتت، لماذا رضيت، لماذا لم تعترض ولم تسجّل لدى إبراهيم أي ملاحظة؟ لم تقل له: «شو في؟». لم تقل له: «ليش هيك؟!». لم تقل له: «هل أنا خرقة؟ تمثال من الطين؟ مجموعة وحل؟». لم تقل أي شيء. وقالت راضية إنها لم تفهم الموقف أيضاً، وهي امرأة. ففي كل المرات التي قابلت فيها صباح، أو رافقتها، وهما رفيقتان منذ الصغر، وقد انتقلتا إلى المدينة معاً تقريباً بعد

زواجهما، كانت صباح تبدو أكثر صرامة وحزماً في حضرة الرجال. كانت تلقي العظات بلا حساب بين النساء أيضاً عن طريقة التعامل معهم. وتقسم راضية أنها حلّت أكثر من قضية زوجية ببراعة حكيمة كان الانتصار النهائي فيها للمرأة.

غير أن إبراهيم زرع مشكلة عويصة وصعبة ولا حل لها. وهي أنه لم يُظهر في أي يوم نفوراً أو تأفّفاً أو ضيقاً، لم يخطُ خطوة واحدة في البيت أو في المحيط الاجتماعي الذي يعرفانه كلاهما، خارج النطاق. بل إن الابتسامة ظلّت هي رسول العلاقة بينهما، ظلَّ الرضا والقبول يدعمان وجوده في البيت. كيف يمكن للمرأة أن تصدّق هذا الودّ؟ وانصرفت شكوكها بالطبع إلى أمرين: أحدهما هو أن يكون قد بدأ علاقة جنسية مع امرأة غيرها. وهذا هو الشك الطبيعي الذي يمكن لأي امرأة أن تفكّر فيه. وعندئذٍ بدأت حملة تحرٍّ دقيقة وواسعة في المدينة بحثاً عن المرأة المنافسة البديلة. والغريب هو أنها حقدت عليها لا عليه، كرهت شخصها وصارت تفكّر كيف أو ماذا ستفعل بها حين تعرف من هي. ومنها طرق عنيفة ووحشية تماماً. ولكنها لم تقل أي شيء لراضية. هذا هو السر الغريب الذي لا أعرف فحواه. لقد عاشت واستمرت وواجهت وحيدة قصة زوجها. وحتى حين فشلت في العثور على أي طرف خيط يمكن أن يساعدها في اكتشاف الحقيقة، لم تستسلم ولم ترضخ ولم تبدّل موقفها. كانت تعتبر زوجها بريئاً بالطبع، وكانت المرأة المجهولة هي التي خرّبت علاقتهما، وتحرّشت به، وأغرته، ونامت معه.

وفي إحدى المراحل اعتقدت أن تلك المرأة «خطّت» له، وأن الخطّ يتضمن لجاماً لمنعه من الاقتراب منها، دون كراهيتها. في البداية لم تكن مقتنعة بهذا التفسير، ولكن استمرار إبراهيم في سلوكه، جعلها تقرّبه من

اليقين. لم يكن لديها غيره في تلك المرحلة، فالثقة بزوجها كانت تقودها لتحييده والرأفة به وتبرئته. ولكنها حين قرّرت اللجوء إلى أحد الشيوخ الذين يفكّون الخطّ، ذهبت إلى هناك وهي تضع رجلاً أمامها ورجلاً خلفها، لخوفها من ألّا تعثر على الجواب. وهو ما حدث بالفعل. لم يجد الشيخ شيئاً. كانت الصفحة بيضاء. لا توجد امرأة أخرى. ولا أحد من الجان كان قد تدخّل في شأن علاقتهما الجنسية.

ولم تنفع كل التعاويذ (دفعت ثمنها ألف ليرة أي ما يعادل راتب موظّف لأربعة أشهر) التي كتبها في تغيير سلوك إبراهيم، لا تلك التي شربها مع الشاي، ولا تلك التي أُقحمت في وسادته، ولا تلك التي هُرست وخلطت وأعطيت له في منقوع قمر الدين الذي كان يحبه. ولا شك أن صباح كانت حزينة بسبب الفشل أكثر من حزنها على خسارة الألف ليرة لدى شيخ الحجابات الضائعة، إذ إن عدم وجود المرأة وضعها في حرج جديد. فالمذنب في أي قضية تواجهنا يخفف من آلامنا، يقمع حيرتنا، ويحرّك لدينا حسّ المواجهة والتحدي، ويمكن أن يحفّزنا لفعل ما، لتحرير الحيرة أو لتدبير الوسائل أو لتمرير المسائل، وذلك بحسب ما يمكن أن نقدّر قوّته أو ضعفه. أما غيابه فقد أحبط صباح تماماً. وبدل الكراهية أو الحقد تجاه إبراهيم الذي كان يدير لها ظهره، شعرت بالشفقة. وهو شعور ينمّ عن الضعف من جهة، والتفوّق من جهة ثانية.

مصاعبها الأخرى نجمت عن مواقفه اليومية، فقد ظلَّ إبراهيم هو إبراهيم: يحضر القهوة في الصباح، ويشرب فنجانه الأول قبل أن تستيقظ، مثلما كان يفعل من قبل، ثم يشرب معها فنجاناً آخر حين تستيقظ، ويغادر إلى عمله في ورشة إصلاح الإلكترونيات، وحين يعود ظهراً يتناولان وجبة الغداء، وينام القيلولة القصيرة، ثم يستيقظ ويخرج للمشي عند العصر. لم

يتغيّر أي شيء في طريقة ضحكه، أو في استعادته للنكتة. ظلَّ إبراهيم هو إبراهيم، يقهقه ويصفّق بيديه ويقول آآه لأغاني محمد عبد الوهاب، وقد يغني مقطعاً ما برفقته حين تذاع له أغنية في الراديو.

وإذا كان هذا كله شكلاً للحياة العادية من قبل، فقد غدا تلك الأيام فاجعاً. لم تعد تصدّق أنه هو نفسه. إذ لا يمكن أن يدير ظهره لها في الفراش، ويصبح شخصاً غريباً في الليل، ثم يعود صباحاً لتقمّص أدواره. وصارت تسأل نفسها: من هذا؟ سواء حين تنام وترى بلادته الليلية القاحلة المتكرّرة، أو حين تشاهد نشاطه النهاري الممتلئ.

وحتى ذلك الوقت كانت تعتقد أنها تجاريه في تصرّفاته آملةً أن تتمكّن في وقت قريب من فكّ أقفال اللغز، لكنها صارت تكتشف يوماً بعد يوم أنها لا تستطيع فعل شيء، وأنها، وهذه هي الداهية في الأمر، تستسلم للقدر. هل كان قدراً؟ أعتقد أن بعض الناس يصنعون أقدارهم بأنفسهم، ومن غير المعروف ما السبب، ولا أقصد قدر العمل أو النجاح، بل الأقدار التي تتصف بالتراخي والاستسلام تجاه ما يقرره الآخرون لحياتهم. ومن هذه الزاوية فإن استسلام صباح لقرار إبراهيم الغامض لا يُفهم البتّة، ونحن مضطرون لمعالجة الأمر من زاوية وحيدة، وهي الزاوية التي اقترحتها راضية: «ماذا تستطيع المرأة أن تفعل؟». وهي فكرة مستمدة من أقدار النساء كافة، لا من قدر وسلوك امرأة واحدة مثل صباح.

ولأنها آمنت بالقدر فقد اختارت أن تتحرّك بداخله، لم تفكّر بالطلاق قط، فتلك فضيحة لا تتحمّلها، وحافظت على سر العلاقة أيضاً، فلم تُفشِ أمر إبراهيم أمام أي مخلوق، لا امرأة ولا رجل. ثم قررت ذات يوم أن تنتقل إلى غرفة أخرى من غرف البيت، واتفقت مع إبراهيم على هذا الأمر، على أن يجري التكتّم حوله. ووعد كل منهما الآخر بأن يكون حذراً في تناول

هذا الموضوع إذا ما صادف أن تحدّث أحد ما عنه (وكان هذا محتملاً حين تتداول النساء النكات عن شخير أزواجهن) بين الأصدقاء، وأن يردّه إلى الشخير ذاته في حال انكشف بطريقة ما.

والغريب في الأمر هو أن صباح بدأت أيضاً تتواطأ مع الوضع. وعلى الرغم من استنكار راضية لهذا السلوك، فأنا أجده طبيعياً بناء على القرارات السابقة التي اتخذتها تجاه سلوك زوجها. أما الأسباب فإن من الصعب التكهّن بها، عدا سبب وحيد هو أنها كانت تخطط كل الوقت، وتنتظر، ما يمكن أن يساعدها على معرفة السبب. وحين سألتُ راضية عمّا إذا كانت صباح قد حاولت لمس ذكر إبراهيم، كي تتأكّد من قدرته على الانتصاب، إذ من المحتمل أن يكون قد أصابه عطبٌ ما يخجل الزوج من شرحه، قالت: لا. وقد فكّرت أن القيام بهذه التجربة صعبة، وربما مستحيلة في ظلّ تكوّر إبراهيم على نفسه أثناء النوم، لكن الفكرة الأكثر عظمة هي أن صباح نفسها ما كانت لتُقدِم على هذا التصرّف لسببين: الأول هو كبرياؤها. والثاني هو خشيتها على كبرياء زوجها. فماذا لو اكتشفت أن عجزاً ما أصاب ذكورته فجعله يبتعد عن أي تجربة زوجية فعلاً؟

كانت تلك واحدة من المفارقات، فالطبيعة نفسها تُكره المرأة على احتقار الرجل الذي يرفض عروضها العاطفية أو الجسدية. فكيف يمكن لها أن تتقبّل إعراض زوجها عنها؟ وكيف يمكن أن ترضى بإهماله لها، وتجاهل وجودها؟ وإذا كانت قد استسلمت للقدر، فلمَ أرادت أن تتستّر على ما يحدث؟ وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تبقى نصف الليل قلقة، تنظر إلى جثمان الرجل النائم بجانبها، وتتأمل تقاطيع لحمه، وتشتهيه، ولا تقوى على لمسه. وفي كل ليلة كانت تتحدّث إليه في سرّها: «ليش يا إبراهيم؟» أو «شو صار؟! ولك قول شو صار منشان أعرف ساعدك،

ووقّف بجانبك!». ولكن إبراهيم كان يغطّ في نومٍ عميق ليلاً، ويغرق في صمت متجاهل غريب نهاراً.

أودّ أن أوضح هنا أن كل التفاصيل التي ستُذكر مستمدّة من الأحاديث التي دارت بين صباح وراضية بعد أن مات إبراهيم.

فقد أتاح لها انتقالها إلى غرفة مستقلة أن تمعن التفكير في مشكلتها بهدوء أكثر. وأن تتجوّل في حياة إبراهيم، وفي حياتهما المشتركة على مهل.

لم يكن إبراهيم يعاني أي مشاكل نفسية طوال السنوات التي مضت على زواجهما، قبل أن ينتقل ذلك الانتقال الخطير في الفراش، فقد عُرف عنه أنه كان مستقيماً ونزيهاً في أعماله. ويصعب على أي أحد أن ينال من سمعته كفنّي في تصليح الراديوهات الكبيرة التي بدأت المدينة تشتريها حديثاً بعد انتشارها في البلاد. وقد اكتسب شعبية في مجاله، فالراديو غدا في يومنا رفيق الحياة، بينما تتسلل المسجلّات إلى حقوله ببطء وقوة، وهذا كله أمر يمنح الفنّيين ومصلّحي تلك الآلات قيمةً ومكانة لدى معظم الناس. وإذا كان الفنّي خبيراً مثل إبراهيم حسني عثمان فإن الزبائن يتكاثرون حوله. الحقيقة أنه كان يبقى أحياناً للتاسعة مساء في محلّه، بينما يغلق سوق المدينة كلها بعد مغيب الشمس. ولا نعرف ما إذا كانت هذه المواظبة تهدف إلى زيادة الدخل، وهو أمر طبيعي في أوضاعنا المزرية التي يضطر فيها معظم الناس للقيام بعملين لتوفير احتياجات بيوتهم، أو ما إذا كان يهرب من وضع ما في البيت.

يهرب؟ قالت راضية إنها حين ذكرت هذه الكلمة أمام صباح، بهتت وتغيّر لون وجهها. في العادة يكون اللون الأصفر الشاحب هو الصفة الغالبة على بشرة المرء في أحوال الارتباك أو اضطراب المشاعر أو الخيبة. غير

أن وجه صباح اكتسى لوناً أقرب للون الدخان، وغاصت عيناها في عبوس سوداوي حانق: «يهرب مني؟ ليش أني جربانة؟!».

وفي تلك اللحظة فقط أدركت راضية أن سؤالها أو استنتاجها في الحقيقة، كان أبله. ومن الحماقة أن تقول لشخصٍ ما إنه كان ذات يوم بغيضاً في نظر آخر، فماذا لو كان هذا الآخر هو الزوج؟

ويمكن الاكتفاء من هذا الأمر، ويبدو أن الرجل قد تعرّض لموقف مختلف تماماً لا يمكن توقّعه بالمرّة، ففي أحد المساءات اختطفته عصابة سلب، بعد أن سطوا على غلّته اليومية كلّها. وقد بقي لديهم بضعة أيام قبل أن تلقي الشرطة القبض عليهم. الحقيقة هي أن خطأ تكتيكياً قد ارتُكب من قبل أحد عناصر العصابة أفضى إلى إنهاء عملية الخطف.

لا تعنينا هنا إجراءات الشرطة، فالرجل لم يُبدِ أيّ امتنان لعملية المداهمة التي تمّت، بحسب تقرير مخفر المدينة، وخرج من هناك وقد التحف بالصمت. ولكنه لم يقل شيئاً لزوجته، لا عن تفاصيل الاختطافِ، ولا عن عملية التحرير. وفي إحدى المرات سخر من حديثها عن مهارة المحقق الذي اكتشف مخبأ العصابة. وأنا أميل هنا، إلى أن من بين أفراد تلك العصابة أحد عناصر الأمن، إذ لم يعرف أحد من أبناء المدينة اسم أي شخص من بينهم، وقيل إن الشرطة راعت سرية التحقيق، كما عملت على عدم الكشف عن الأسماء خشية النزاعات القبلية كما رُوِّج في حينها. وهذا يعني أيضاً أن القضية لُفلفت وكُتمت ولم تصل إلى قصر العدل.

وعلى الرغم من هذا كلّه، أعتقد أن صباح لم تبدأ بالميل لجعل الرواية سبباً في تجميد مشاعر إبراهيم إلا بعد موته. (وهي مفارقة عجيبة.. إذ لم يخطر ببالها أن تلك العصابة قد تكون دمّرت رجولة إبراهيم حتى الموت) فإذا كانت بضعة خطوط، مكتوبة في حجاب ومحشوّة داخل وسادة،

قادرةً على تغيير طباع البشر، فلم لا يفعل الكتاب مثل ذلك؟ ولكن كيف يمكن أن تكون قد اقتنعت بمثل هذه الاستنتاجات إذا لم يكن في حياة زوجها تفاصيل تقبل التشابه بين أسرته وأسرة لاظ؟ فمن التحريات التي أجريتها في البلدة، تبيّن لي أن إبراهيم لم يكن متعلّقاً بأيّ واحدٍ من أبويه، وربما كان أكثر ميلاً إلى والده الذي بدأ مبكراً في تمثيل آل عثمان، وكان يتحدّث عنه بتبجيل خاص، ويقلّد حركاته أثناء الكلام، أو يعيد أقواله دون أن يسندها إليه. وثمة الكثير من الحكايات التي لم أسمع بها من قبل عن حسني عثمان. ومنها أنه جرَّ ضبعاً من وعر الزبدة إلى ساحة المدينة قرب قصر نجمة. وقلّما تسمع مثل هذه الحكايات، ولكن أكثر من شخص في الحيّ الغربي أكّد لي أن قصة الضبع حقيقية وأن الأولاد، ومنهم من بات شاباً اليوم، ركبوا الضبع بينما كان فكّه مغلقاً بلجام من الحديد. تبدو الحكاية خرافة، أما شيخ كار الخطّاطين في البلدة فقد روى لي أن لحسني عثمان شعراً طويلاً يصل إلى أسفل الرقبة، يجدله في جديلتين على عادة الفرسان، وشاربان ضخمان كان يشمّعهما بشمع عسلي، ويخطر بهما في شوارع المدينة منتعلاً حذاء أبيض، وسروالاً من الحرير، وجبّةً سوداء من الجوخ طُرّزت حوافها بأشكال نباتية من خيطان قطنية ملوّنة. المرجّح أن الجبّة صُنعت في الشام، أو في حمص كما قال لي نوح ابن سلمان عمّ إبراهيم؟ وقد اشتهر أنه كان يمشي بينما يقف صقر صياد على أحد شاربيه. ومن المشهور عنه أنه كان الوحيد من بين أهالي المدينة الذي تجرّأ وزرع الخشخاش في أرضه. وعلى الرغم من أنه تمكّن بالفعل من حصاد محصول ممتاز، فإن النوع لم يقنع أحداً من أبناء البلدة. ولكن ذلك لم يردعه، قبل أن تمنع دولة الاستقلال زراعته.

المهم أن مثل هذا الرجل كان مثالاً لدى إبراهيم، وقد حافظ طوال

الوقت على بندقيته التي حارب بها في الثورة السورية، وفي فلسطين حين كان متطوّعاً في جيش الإنقاذ. وهي حكاية كنا نسمع بها من نسائهم اللواتي تزوّجن شبّاناً خارج آل عثمان. وقد ورثها إبراهيم عنه، ووضعها في بيته، وقالت راضية إنها شاهدتها مرات عديدة أثناء زياراتها، معلّقة في صدر غرفة الضيوف، ولكنها لم تعد تراها في ما بعد، وربما كانت بعض أجزائها مصنوعة من الفضة أو من الذهب.

أما قصة عثورها على الكتاب، فسببها الفضول لا الشك أو الريبة كما قالت راضية، ولكنها لم تفعل ذلك حالاً، أي بعد موته مباشرة، بل في ما بعد، وإليكم الأسباب والمقدّمات هنا: ففي إحدى المرات لاحظت أن إبراهيم كان يتعمّد إخفاء كتاب ما يقرؤه حين تقترب منه. وبفضل لطفه فقد كان ينفّذ الحركة نفسها بكثير من الحذر، إذ يخترع سؤالاً يوجّهه لها، ويغلق الكتاب بسببه، وغلافه الأول إلى الداخل، أو يتمطى، أو ينهض ويذهب لشرب الماء. حركات مصطنعة لم يتقن القيام بها أمام امرأة فطنة مثل صباح. ولكن من الصعب أن أعرف لماذا ربطت بين الكتاب وسلوكه تجاهها. هل هي الحاسة السادسة؟ لكنها لم تستطع الوصول إلى النسخة المعنية، ولم تكن تعرف ما عنوانها. وربما أخذتها الظنون إلى موضوعات أخرى. وحين استفسرت منها راضية، بعد أن طلبت منها ذلك، فيما إذا كانت قد بحثت عنه، ردت بلا. كانت «لا» زجرية ترفض مجرد أن يكون شخص ما قد فكّر فيها، أو شكّ بأمرها، أو ظنّ أن من الممكن أن تتجسّس على زوجها. لكن الموت يعفي من الذنوب. موت إبراهيم جعلها في حلٍّ من أي التزام تجاهه أثناء حياته. هذا ما حدث، وهو يكشف جانباً سرّياً آخر من طبيعة صباح (هذا أحد الاحتمالات)، أو أنه يخبئ سرّاً لا نعرفه (احتمال آخر). فسكوتها طوال السنوات الست التي مضت على

هجرة إبراهيم لفراشها كان سببه إحساسها العارم بكرامتها الشخصية، وأن مجرد التفريط بهذا السر يعني أنها قد تكون عرضة للقيل والقال، ولهذا فقد فضّلت الصمت، وكان يمكن أن تظلّ صامتة طوال عمرها لو لم يمت إبراهيم. ومن غير المعروف ما الموقف الذي يمكن أن تكون قد اتخذته حيال الرجال. راضية قالت إنها لم تعد تعبأ بهم بعد موت زوجها، وربما بدأت تخشى أن تلتقي بواحد آخر ممن يديرون لها ظهرهم. أو أن يكون قد دخل في مرحلة عجز في الوقت الذي دخل فيه إبراهيم إلى تلك المتاهة. ولكن العرّافة لم تؤيّدها في ذلك. إذ لم تجد في سلاسل الفضاء أي كوكب يمكن أن يسلب الذكورة. أما راضية فقالت لها ضاحكة: «بكّير بعد. لكن جاييهن يوم». غير أنني لا أصدّق هذا الكلام، أو أن عليّ القول إنني لم أصدّقه، ورحت أبحث في الجوار، وبين المعارف والأصحاب (معارفهما وأصحابهما) عمن يحتمل أن يكون البديل الذي اختارت صباح أن يشاركها الفراش. الحقيقة أن بوسع المرء أن يشكّل كتلة هائلة من الريبة إذا ما استسلم للفكرة. الريبة كتلة ثلج تتدحرج بلا رحمة ما إن نترك لها الحرية. ولكن ضخامة كتلة ثلج الريبة عطّلت الفوائد التي يمكن أن تُجنى من الفكرة. ومن غير المعقول بالطبع أن تكون صباح قد عاشرت ذلك العدد من الرجال! لقد أحصيت ثمانية من المقرّبين، ثم قلّصت العدد بغربلة حذرة تعتمد على مسافة القرب ووسامة الشخص إلى اثنين...

تبيّن لي أن منصور منصور كان أحد أكثر أصدقاء إبراهيم قرباً من صباح، ولكني استبعدته فوراً حين علمت أنه متديّن لا يلبس الزيّ الديني، كنت أعلم سلوكهم الطهراني القائم على تحريم الجنس تقريباً خارج القواعد الملزمة. ولدى منصور بالذات تاريخ من العناية بالقيم والتابوات والمحرّمات ما يمنع عنه شبهة من هذا الطراز. غضبت راضية حين علمت

أنني أجريت هذا المسح، قلت لها إنه مجرد مسح عقلي افتراضي، فزاد غضبها، وقالت إنه دليل على خراب العقل. ولكن الحقيقة هي أن منصور منصور لم يفكّر البتة بصباح كامرأة للفراش، ولا يمكن أن يخطر بباله سوى أمر واحد، وهو كيف يتمكّن من إقناعها، أو إقناع إبراهيم، بالانتساب إلى جماعته الدينية.

كانت تلك هي المعلومات التي ذكرها أمامي رجل اسمه رعد الشيال، وكان صاحباً لمنصور طوال السنوات الماضية. كان رعد بعثياً جديداً، ولكنه كان صاحب ضمير نزيه، قال لي إنه تخلّى عن صداقة منصور، ولكنه لا يمكن أن يحكي عنه غير ما يمليه الضمير. مكتبة سُر مَن قرأ

كان يكفي أن يذكر تلك الصفات كي أعلم أن صباح نفسها لا تتجرأ على التحرّش برجل من طراز منصور. لكن القصة هي أن الحكاية لا تكتمل هنا، ولكني لا أعرف من الذي يقاوم المضي في تلك الطريق: الروح أم الجسد. أما مطالب الجسد فهي قاسية ولا ترحم ولا تساوم ولا تتردّد في مطلبها، وغالباً ترى أنها ملحاحة ومتطلّبة ولا يهمّها الأخلاق والأقاويل والعادات، وإلا لمَ قُتل العشّاق في الأسرّة؟ ومنذ سنتين فقط ذُبح شاب اسمه ن غ من قرية المنارة فوق جسد المرأة التي يقيم معها علاقة، كان يعلم شدّة المواجهة، وخطر أهل المرأة. هل مات بسبب رغبات الجسد أم بسبب دوافع الروح؟ آه، ليتني أعلم!

وهذا ما يغضب راضية التي تعتبر أن صباح ذاتها ترفض ذلك. فإبراهيم لم يخنها، ولم ينظر نحو امرأة أخرى غيرها، وقد ظلّت طوال الوقت تنتظر ذلك التغيّر المأمول الذي ترجوه، تنتظر خلف ظهر الرجل. وبدل أن تذهب إلى رجل غيره، مضت إلى أشغال الإبرة والخيط. فتعلّمت التطريز لدى خيّاطة حلبية تسكن مع زوجها الرقيب في الجيش في حيّ الجلاء.

كانت في البداية تخرّب في المساء ما طرّزته نهاراً، ثم تعيد في المساء تخطيط رسوم جديدة، كأنما تنتظر أحداً. غير أنها لم تعد تفعل ذلك في ما بعد. يبدو أن الشغل نفسه بدأ يستهويها، وقد أحبّت رسومها الجديدة، ولم يعد ممكناً تدمير المشاهد التي تطرّزها بخيوط اللون. صارت الألوان والأشكال هي الهدف، وصارت صباح المرأة التي تنتظر مخيّلتها كل يوم كي تبتكر شكلاً جديداً منها.

في البداية كان يرى حولها الخيطان والأقمشة، ثم بدأ يرى الأشكال والمطرّزات، ثم أخذت الدائرة تتسع وتكبر، صارت صباح جزءاً من أكوام المطرّزات، ثم بدأت تبني أكداساً فوق أخرى، وبعد سنة من العمل كانت قد أنجزت تلّاً من المطرّزات التي تغلغلت في غرفتها واستقرّت في كل مكان.

ولكنها كانت بلا معنى، فمثل تلك المطرّزات لا تهمّ أحداً، فكلّ امرأة وكلّ بنت من بنات المدينة، أو الأرياف، كانت لديها مطرّزاتها، وفي كل بيت تقريباً يمكنك أن تجد رسوماً على الوسائد أو الشراشف أو أغطية الأواني، والمصابيح. كانت صباح وقتئذٍ تبتكر فقط. أو كانت تقطع وقتها، تمزّقه، وتحوّله إلى كتل من القماش والخيطان فقط. دون أي هدف آخر. حتى إن أشكالها لم تكن أشكالنا، لا الحيوانات التي نعرفها، ولا الأزهار، ولا أوراق الشجر.

والغريب أن إبراهيم لم يبدِ تجاه أعمالها أي ملاحظة، لم يعجب بها، ولم يعترض على انشغالها بها، كأنه لم يعد يرى، أو كأنه بات يعامل كل ما يخصّها بالطريقة ذاتها، يدير ظهره ويغفو. وكانت صباح قد قالت لراضية، إنه لا ينظر نحو عينيها حين تخاطبه، بل إلى أذنها مثلاً، أو إلى خصلة في شعرها. ويحتمل أن يكون مذعوراً كلّ الوقت من أن تفهم أيّ تقرّب من

قبله، أو أيّ لطف، أو أي بادرة تتضمن اللمس أو الهمس، كدعوة مبطّنة للفراش. وقد اختار بعزيمة لا تكلّ التجاهل والانسحاب الكامل، وهو مستعدّ للتوقيع على استسلام كامل.

ولم ينشغل البتّة من أنه، في الأشهر الأخيرة، لم يعد يجد في بيته مكاناً للجلوس، صارت الممرّات مجرد زواريب ضيّقة تتكدّس على جانبيها أقمشة تخفق فيها أشكال لا حصر لها. لكنه لم يشتكِ في أي يوم. يمضي في نزهته داخل البيت غير راغب في النضال تجاه أي قضية، ما دام قادراً على الحركة بين الغرف. وبدا مثل روح هائمة محطّمة لا تريد شيئاً من هذا العالم. بينما راحت صباح تنسى وجوده يوماً بعد يوم. صار وقت الطعام هو وقت اللقاء بينهما، «إبراهيم!» تناديه، «تعال كلْ!»، فيأتي صامتاً مطأطئاً يجلس ويبدأ الطعام. في البداية كان يعبّر عن رأيه في مذاق الطبخ، ثم أقلع عن ذلك حين وجد أن الحياة يمكن أن تستمر دون غمغمة الإعجاب، وأن كل شيء يمكنه أن يخمد مطالب المعدة. صار يأكل صامتاً، وبسبب ذلك، صار صوت طحن الطعام بين فكّيه يسبب لها ارتعاشاً عنيفاً في أحشائها. وبسبب حيائها، لم تقل له شيئاً. كانت تخشى أن يجرحه طلبها أن يمضغ طعامه صامتاً أيضاً. فصارت تضع له طعامه وتتذرّع أنها شبعانة، أو أنها فقدت الشهية بسبب كونها تذوّقت الطبخ كثيراً.

وفي سياق آخر تنفي راضية أن يكون الرعب الذي عاشه إبراهيم سبباً في حالته، فقد عاد إلى البيت مسرعاً، مسرعاً فقط، حين بدأت المحاولة الانقلابية التي نفّذها سليم حاطوم في المدينة، والسبب، لم يكن الرعب، كما قد يُخَيَّل لأي أحد (وبالطبع فإن صباح كانت مذعورة تماماً قبل وصوله) بل مجرد الرغبة في الأمان من مواجهة الأحداث المقبلة، في حين أنه لا ناقة له ولا جمل في الصراع الناشئ بين ضباط الحكومة. لكن

صباح التي بدأت تستعيد الذكريات بعد انتحار إبراهيم، فكّرت كثيراً أن تكون تلك اللحظات سبباً في ارتخاء عموده، أو تقلّص أوعيته، أو تشتّت تفكيره. فقد وصل إلى البيت وهو يرتعش، ولم يستطع السيطرة على خوفه وارتجاف أضلاعه على الرغم من فناجين الزعتر واليانسون التي سقته إياها، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقول لها بلغة الإشارة إن العالم قد انتهى، أو إن عالمنا نحن في هذه المدينة قد حُكم عليه بالدمار. لماذا؟

والحقيقة التي عرفت عنها شيئاً في ما بعد هي أن إبراهيم كان شديد الحذر في ما يتعلّق بالعلاقة مع السلطة، وهو حذر شربه تقريباً مع حليب أمه في العصر الحديث، إذ إنني حين تقصّيت الدائرة المحيطة به، اكتشفت أن أمه كانت بالفعل من تلك النساء اللواتي يعشن في وكر. كانت تخشى على أبنائها من الطير، وتدرّبهم على المشي بجانب الجدران، بعيداً عن أي خطر. لا سياسة بالطبع في البيت، لا سياسة بالمطلق.

كانت أميّة تماماً، فقد منعها أبوها، هي وأختيها الأصغر منها، من أن يتعلّمن في المدارس. لم يكن بحاجة إلى الذرائع في تلك الأوقات وتلك الأمكنة التي جاءت منها. فهي ابنة اللجاة، حيث كانت المدارس للذكور وحدهم، بسبب قلّتها، وحصرها في القرى الكبيرة وحدها. ولم يكن الآباء يحتاجون لأكثر من كلمة لا، فيما لو طلبت إحدى البنات أن تتعلّم في المدرسة. كان ذلك هو زمن الخوف. الخوف من الطرق الخالية. الخوف من قطّاع الطرق. الخوف من الذكور الشرسين كالدبابير. الخوف من سوء السمعة. وقد حفر ذلك الخوف حفراً عميقة في روحها، وفي تفكيرها.

وحين تقدّم حسني عثمان لخطبتها (لم يكن هو بل والده الذي رآها أثناء تشييع زعيم آل السمار)، لم تكن هي التي وافقت، بل والدها أيضاً، وحين زُفّت إليه كانت في السادسة عشرة من عمر حبيس بين الجدران

الحجرية لشهاب الدين سلمان، وقد نقلت حبسها، أو وكرها، معها إلى بيت الزوجية. كان العالم عدوّاً، أو كان الخارج، أي كل ما يدبّ خارج سور البيت، مجرّداً من الآدمية. وحين سمعت أن نصري العباد قُتل في شوارع المدينة برصاص الجيش الذي اقتحم المدينة إبان حكم الفرنسيين، آلت على نفسها أن تمنع أولادها من السياسة. هكذا كان نبأ موت نصري أو سليم أو محمد أو علي ينتقل بين الناس المختبئين في بيوتهم خوفاً من مجنزرات الجيش التي تطلق نيرانها على الناس. وبقدر ما كرهت القتل، آلت على نفسها أن تجنّب أولادها هذا المصير الذي كانت السياسة وحدها تؤهّلهم له. لا سياسة يا حامد في هذا البيت! قالت لزوجها تاجر الأقمشة الذي لم يكن يأبه لشيء عدا عمله. صار يهزّ رأسه، غمغم داعياً بالرحمة لروح نصري الذي كان صديقاً للعائلة. ووعد أن يشارك في إبعاد الوحش عن المكان. كانت العزلة عن أحداث البلاد نوعاً من المادة الحافظة التي تجعل الحياة طيّبةً، معقولة، بلا منغصات.

وقد كان إبراهيم سعيداً بهذا الغلاف المحكم الواقي الذي حماه من أن يحيد عن الطريق المرسومة: كان عمله يتطلّب منه الجلوس لساعات في المحل، وكان هذا سبباً للبهجة في حياته. وقد صار محلّه الصغير ممتلئاً بكلّ أنواع أجهزة الراديو الضخمة، ولم يعد يُرى هناك في الزاوية، إلا إذا ناداه أحدٌ ما من الباب فيما هو يدخل إلى المحل. وفي المقابل كانت يده وعقله وعدده الصغيرة والكبيرة، وجهاز اللِّحام، هي التي تشغل كل المساحات الفارغة في تفكيره. ولهذا رفض أن يعمل وكيلاً لقطع غيار الراديو، أو للبطاريات التي تزوّد الأجهزة بالطاقة، سيأتي كثير من الناس، فكّر في نفسه، وسوف يثرثرون كثيراً، قال، ومنهم من يتشجّع كي يفلت الكلام.

وإفلات الكلام بدا مرعباً له، إذ غالباً ما يكون موجّهاً لنقد السلطة، وما تفعله السلطة، وهو يضعه في مأزق فظيع. إذ إن السكوت عن تلك الرذالات التي قد تقال في محلّه يعني أنه راضٍ بها، متواطئ مع قائليها، أما إخبار الأمن فهو وشاية سافلة لا يمكن أن يقوم بها. لهذا كان عليه منعهم من التردّد على محلّه، أو تقليل عددهم. هذا ما قاله لصباح حين لامت امتناعه عن قبول عرض العمل الذي قدّمه له تاجر الجملة في دمشق. فقالت: «كل شاة معلّقة بكرعوبها!»، قال: «هذا عند الله!».

وفي تلك الأيام لم يكن قد تعرّض بعد لحادثة الاختطاف، ولا أعرف ما إن كان لديه حدس داخلي عميق منذر، وإمعاناً في التخلي عن أي فكرة محتملة يمكن أن يشتمّ منها أيّ عميل أمني رائحة المعارضة لا سمح الله شارك في مجموعتين للعب الورق، لم يكن أي واحد من المجموعتين يعرف أحداً من المجموعة الأخرى. كانت هذه حيلة تفترض وجود عميل ما في كل مكان، وهكذا سوف يصل اسمه مرتين إلى الجهات الأمنية، ويضمن أنه آمن من الملاحقة.

ولكن ذكريات صباح عن الذعر من السلطة لا ترتبط تاريخياً ببداية انتقال إبراهيم إلى الجانب الآخر من السرير. ولهذا السبب لم تكن لديها هي أيضاً أي أحقاد ضد السلطة الحاكمة، ولم تعبأ بالتغيّرات التي تحصل في أعلى الهرم كل بضعة أشهر أو كل سنة، لا يهمّ، وإذا ما سُئلت ماذا أو من تختار للحكم كان جوابها شعبياً بامتياز: من يأخذ أمي يصبح عمي. فلا هي ولا زوجها اهتمّا أدنى اهتمام برأس الهرم أو بأي ضلع من أضلاعه، وكانت صراعات الضباط التي يثرثر بها لاعبو الورق في سهرات الطرنيب والليخا والكونكان تشبه ألعابهم في كثير من النواحي، فهذا الضابط

يرمي الآخر ببنت الليخا، وذاك يطرنب برَيّ الكبة، والثالث يحسم لعبة الكونكان. ولكن إبراهيم ما كان يعبأ بالضحايا، فالمهمّ هو أن يدير في فمه أغنية فيلمون وهبي الشهيرة: «خربت عمرت حادت عن ظهري بسيطة». كانوا يسخرون في الحقيقة من الضباط الذين يُقتلون أو يُنفون من البلاد حين ينقلب عليهم رفاقهم، تصل النكات التي يخترعها المتخصصون في صناعة التنكيت بسرعة إلى المدينة وتهبط بين لاعبي الورق، فتصبح مادة للضحك والانشراح، بينما يكون دم أحد الضباط وجماعته قد أريق على النطع.

ولهذا ليس بوسعي الادعاء أن إبراهيم فقد رجولته بسبب الذعر، بل ليس بالوسع القول إنه فقد الرُّجولة، إنها عملية تأجيل، أو استنكاف، أو تخلٍّ بارد ومسالم عن الجنس. صارت راضية تسخر مني حين قلت لها هذه الأفكار، وسألتني ما إن كنت أؤمن بها، فقلت: لا. قالت: إذاً؟!

لكن إبراهيم لم يكن يستمع إلى الراديو، وحين يكون في البيت يهرب بعيداً عن صوته إذا ما استمعت إليه صباح. وربما كانت يتقبّل أن تحكي له مسلسلاً إذاعياً، بينما يرفض سماع الأخبار. ويرفض أي تعليق عنها في البيت، ويوصي أصحابهما القلائل بعدم النقاش في هذا الشأن. وعدا هذا فقد كانت حياتهما طيبة جداً. كان يقدّس وقت الغداء، فيغلق المحل ويأتي في الموعد دائماً. يأكلان معاً، ثم قد يمارسان الجنس بعد الغداء، وهي رغبته، بينما قد يمارسان الجنس صباحاً، بعد الاستيقاظ من النوم، وهذه رغبتها هي. كانا يجعلان من تلك الرغبات مناسبة للفكاهة، إذ قد يزوّر أحدهما التوقيت ويدّعي أن الدور له، فيكسب مضاجعة زائدة حسب الزمن الذي يحبه. يسخران من النسيان المزعوم، دون أيّ لوم.

ما لم تلاحظه هو فتور همّته في هذه المسألة، صار يسمح لها بتجاوز

العدد دون أن يراهن على أي شيء. ثم صار يعلن إفلاسه مرة بعد أخرى من الظهيرة. ينسحب بهدوء قطّ. يخلق كومة من أحشاء الراديوهات المقتلعة من علبها الخشبية، ويكدّسها على طاولته استعداداً لفكرة أن تأتي صباح للتحقّق من انشغاله. «لكنني مثل الغشيمة ما انتبهت». قالت لراضية، ثم ذكرت لها أنها لم تسأله أيضاً لماذا يغيّر عادته، وربما كان هذا ما شجّعه على متابعة الدرب إلى النهاية.

لا صلة بين الاحتمالات والحقيقة، وهذا ما توصّلت إليه صباح بعد موت إبراهيم، لم يعد بوسعها حمل تلك السلّة المهلكة من الظنون، واكتشفت أنها أرادت أن ترتاح من ذلك منذ زمن، وأنها فكّرت أكثر من مرة بماذا ستفعل إذا ما مات إبراهيم. نعم. هذه هي الحقيقة، وحتى لو كانت تتضمن شيئاً، بل أشياء، من القسوة وانعدام الرحمة، كما قد يفكّر أي شخص يقرأ هذه المعلومة، غير أن صباح فكّرت بالفعل بذلك، كأن حدسها العميق كان يقول لها إن الرجل بات يودّع هذا العالم، وإذا كانت لم تتوقّع انتحاره، فقد كانت ترى موته. كان يتضاءل أمامها مثل قميص، بحيث لم تعد بحاجة لأي حدس كي تعرف أنه يموت. المحزن، لها، أنها فكّرت بأشياء ستقوم بها بعد موته. وحين انتحر، أدركت أنها كانت محتاجة إلى موته كثيراً، لا كي تحيا من بعده، بل كي تعرف.

بعد شهر تقريباً من نهاية العزاء، بدأت تتفقّد البيت. كانت الخزانة لا تزال مقفلة، كما تركها، لم تكن محتاجة إلى الوقت، فالوقت المتاح، بعيداً عن الرقابة أو الخشية من أيّ مفاجأة، كان كفيلاً بمنحها أكثر من فرصة للعثور عليه. ومع ذلك فإن قلبها كان يدقّ بعنف، وقد تملّكها رعب، وكانت يدها ترتجف، ولا تستطيع السيطرة على الرعشة. وفيما كانت تبحث أخذت تدعو الله أن يعمي بصيرتها، وألّا تجد المفتاح في أيّ مكان.

حيّرني موقفها الغريب المتواطئ مرة، والهارب مرة.

وقد وجدته. صحيح أنه كان مخبّأ بطريقة ماكرة، ولكنها وجدته ملصقاً في قاعدة درج الطاولة، بغير أيّ علامة.

أتخيّل أنها كانت تذهب مباشرة نحو الكتاب، هذا ما أريده في الحقيقة، وقد كان الدافع الأكثر حرارة في لحظتها تلك. ما الكتاب؟ وما الذي يمكن أن تجده هناك؟ وحين عثرت على رواية السراب لم تُعِرها أي اهتمام، وتابعت البحث والتفتيش. أولاً لم يكن العنوان لافتاً. ثانياً كانت ظنونها تذهب نحو موضوع آخر. «فكّرت أنّوعَ بدوّر عن حلّ» قالت لراضية. كان في الخزانة رزمة الرسائل التي تبادلاها حين كانا مخطوبين. لم تفتح الرزمة، فلا جدوى من الذكريات. ولم تنظر في ألبوم الصور أيضاً، إلا حين ارتابت بوجودها هنا في المخبأ. ولكنها لم تعثر على أي صورة مريبة، واعتقدت أنه قد وضعه هنا للتمويه فقط. وحين توصّلت إلى يقينها من أن الكتاب الذي كان يخبّئه هو «السراب» قالت تخاطبه: «سراب ها؟ سراب؟ ليش أنا سراب ولا لحم يا نذل؟!». غير أنها حين قرأت الكتاب بدّلت رأيها. تكدّست الشفقة مثل كتلة من الشحم فوق مشاعرها، ولا أعرف الآن ما إن كانت قد قرأت كل ما كُتب على هوامش الرواية، إذ إنني أستبعد أن تكون هي التي كتبت تلك الملاحظات المتهدّجة الناحبة المشبعة بالبلاء. أبداً، فتلك هي كتابة رجل لا امرأة، فالرجال وحدهم من تدوسهم سنابك العجز أو الفشل، بحيث يبدو، وقد بدا هذا من الملاحظات فعلاً، أن العالم كله يعادل لحظات الانتصاب القادرة على ولوج فرج امرأة. ولست أدري ما إذا كانت صباح قد فهمت تلك الوسوسات المفلسة التي يخطّها القلم على الهوامش، وكانت قادرة على المغفرة والصفح عن ذلك الرجل الذي لم تفده الشكوى والأنين في تصحيح أي شيء:

«يا ربّ!».

«أيّ بلاء هو هذا؟!».

«لا يمكنني إلا أن أكون مهزوماً».

«كلنا في الهواء سوا».

«اليوم أنهيت عقودي مع الربّ».

«لماذا تفعل ذلك بي؟».

«ربّي! ربّي!».

من كتب هذه الملاحظات المريرة؟ هل هو إبراهيم؟ ولماذا كتبها إذا كان قد اختار أن يتخلّى عن معاشرة زوجته بكامل رضاه؟ أم أن شخصاً آخر كان قد أعاره الرواية دون أن يمحو عن هوامشها ملاحظاته وتعليقاته؟ أم أن العنوان أغرى إبراهيم فأخذ الكتاب دون أن يعلم صاحبه؟

ويبدو أن صباح أعادت قراءة الرواية أكثر من مرة. فالخطوط التي وُضعت بقلم الرصاص تحت بعض الجمل التي يصف فيها كامل رؤبة لاظ حالته، كانت مزدوجة، خطوط متعرجة تدل على أن أحدها وُضع قبل الآخر، إذ لا مبرر البتة لتعليم الجملة مرّتين في قراءة واحدة.

هل كانت القراءة هي التي دمّرت إبراهيم؟ أم أنها كانت مجرد صورة تكرر حالته؟

هل قرأ الرواية قبل أن يمضي إلى صمته، أم العكس؟ لم يدوّن أحدٌ من القرّاء في أي صفحة من صفحات الكتاب أيّ تاريخ.

كان انتقال الكتب، من السماقيات إلى المدينة، يمثّل لغزاً آخر ظلَّ مؤجّلاً طوال الفترة التي انشغلت فيها بشؤون إبراهيم وصباح. بينما كان شغلي كله ينصبّ على محاولة فهم سرّ ذلك الاختفاء المبهم، المهم بالنسبة إليّ إنما كان معرفة مصير الكتب التي اختفت من المكتبة. ومن

التحقيقات التي أجرتها راضية، تبيّن لي أن عدداً من تلك الكتب قد بيعت في السويداء. أما الأمر السعيد فهو أن راضية قبِلت أن تساعدني في المهمة. وعلى الرغم من أنها حذّرتني قائلة: «لا تفرح!» فقد أملت أن الزمن كفيل بحلحلة العقد. هذا ما أعرفه عن الزمن والمشاكل.

14

حين اكتشفت أن ذلك الكتاب كان بحوزة كمال الفهد ضحكت، نعم، لا يحتاج من يعرف من هو كمال الفهد إلا لتأمل المصائر العجيبة التي تقرّرها قوة ما في الأرض أو في السماء، حين يعرف أنه استولى على كتاب طه حسين «قادة الفكر» من مكتبة السماقيات، فالرجل بدا لي دائماً نوعاً من الخلطة غير المتقنة من الصلصال الفاسد، والطين، والزبل المخلوط بالتبن.

وحين كنا فتياناً كان يقول لي: «استنّى وشوف وين رح يصير كمال!». ولا بدّ أن الفهد ظنّ أنه حين عثر على هذا الكتاب (ربما مجرد نظرة إلى العنوان) قد اعتقد أنه وجد كنزه، أو أنه اللقية البعيدة التي كان يحلم بها من أجل إنارة طريق المستقبل. لا أسخر من الرجل، فمن الواضح أنه قرأ الكتاب أكثر من مرة، إذ إن هوامش النسخة التي اقتنيناها لمكتبة السماقيات، قد امتلأت بأربعة أنواع من الملاحظات المكتوبة بأقلام مختلفة: رصاص وأحمر وأخضر وأزرق. أرجّح أن الملاحظات المكتوبة بالقلم الرصاص هي تلك التي كتبها حين قرأ الكتاب في المرة الأولى، ومن بينها ملاحظة أعادها أمامي في ما بعد: «لا يمكن أن يكون أعمى»، وأنا قلت له: «لماذا؟». لم يُجب، ثم قال: «إذا كان أعمى فعلاً فأنا أعتقد أنه كتب هذا الكتاب لأنه

أراد أن يكون أحد هؤلاء». لم يكن كمال الفهد يعلم شيئاً عن طه حسين، ولم يسمع ما قلته عن أن للرجل عشرات الكتب في الأدب والتاريخ، إذ إنّ ما كان يهمّه حين عثر على الكتاب هو أن يضمن لاستنتاجه فاعلية أكيدة تسهّل أمر قراراته التالية.

اللافت أنه قرأ الفصول الأولى بسرعة في البداية، وقد ترك ملاحظة ساخرة عن أرسطاطاليس بالذات، ولكنه توقف مأخوذاً بذلك الفصل القصير الذي كتبه العميد عن الإسكندر المقدوني. كانت صورة الفارس الشاب المشبع بالنزعة التوسعية قد أخذت لبّه. لم يقدّر تلك الحركة الفكرية التي كان للإسكندر الفضل في انتشارها العالمي، كما قال العميد، بل كانت الفتوح العسكرية من جهة، والرغبة في خلط الناس بالناس من جهة ثانية هما اللتان أثارتا إعجابه، وعلى الرغم من أن كمال الفهد، قد هُزم في النهاية، فقد بقي يجلس في ظلّ الإسكندر، وقال لي حين زرته بعد خروجه من السجن: تخيّل أنه في ليلة واحدة، وفي خيمة أو اثنتين، أولج عشرة آلاف يوناني أيورهم المنتصبة في فروج عشرة آلاف امرأة فارسية. ثم أشار بيده معجباً. «هذا الفاتك!». ولكني لم أصدّق أنه لا يذكر من الكتاب غير هذه المعمعة الذكورية، بل كان يهرب من ذكرى أخرى عايشها هناك.

كان أكثر ما يهمّني هو معرفة من أين حصل على الكتاب؟ سألته وأنا أحاذر أن يفهم من كلامي أي إشارة إلى أنه كان حاضراً في معركة السماقيات. ولكن كمال أجابني للمرة الأولى، ربما، في تاريخ معرفتنا جواباً مباشر: «أخذته بنفسي». قال لي إن الفضول دفعه للدخول إلى المكتبة التي لم يزرها من قبل، حين رأى كيف اندفع كثيرون غيره، إلى الداخل فجأة، وقال إنه وجد الكتاب متروكاً على حافة النافذة الحجرية. كانت الكتب الأخرى مبعثرة في المكان، عارية مجردة من كل ما فعلتموه

أنتم من أشكال الحماية. كانت مبعثرة مثل قتلى. هذا ما تخيّلتُه، ولم يكن بيدي أن أفعل شيئاً، وحين رأيت الكتاب هناك، أدركت أنه الشيء الحيّ الوحيد الذي استطاع أن ينجو من الدمار، وكان يناديني، فأخذته. ولماذا لم تقل لي إنه عندك؟ فقال: «كنت ستحرمني من أفضل سنوات عمري».

لا أستطيع تكذيبه، وقد حمل معه الكتاب إلى البيت فعلاً، وتركه هناك بين دفاتر عتيقة كان يحتفظ بها من أيام الدراسة، والراجح عندي أنه باشر بقراءته مصادفة بعد تلك الحادثة المشينة بسنوات، وأن القراءة هي التي شدّته إلى الموضوع لا العكس. ويمكن أن تكون هي التي ساهمت في تعزيز أحلامه الرعناء القديمة التي كان يدّعي فيها أن الله خلقه كي يصبح شخصاً عظيماً، ومن المحتمل أنه قرأ الكتاب مرّاتٍ محاولاً تنضيد آماله باستنتاجات مناسبة. ولهذا لم يهتمّ باستيلاء شبّان آخرين على مراكز قيادة الحرس القومي وحزب البعث في السماقيات. لم يكن يطمح إلى أيّ مكان هنا، وأعتقد أنه كان يسخر في نفسه من صراع الذباب على حبة السكر (هذه هي التسمية التي أطلقها على القادة في البلدة) فنبرة طموحه تتجاوز مجرد الحصول على الحشف، ولم يعد يرضى بتلك الاستعراضات الفولكلورية الساذجة. وحين هنّأ لطفي الجمل بأمانة الفرقة الحزبية، قدّم له نصائح مجانية كمعلّم: لا تتباهَ، ولا تقسُ على الناس، ولا تستعجل في الأحكام! وغير هذا. تلا عليه تلك التعليمات مستنداً كما عرفت في ما بعد إلى قوة الكتاب الذي قرأه بكلّ ذلك التعلّق. ولم يكن بوسع لطفي فعل أي شيء، فاكتفى بالاستماع إلى كمال، وهزّ رأسه، وهو يشتمه في سرّه.

كان كمال الفهد ينتمي لعائلة أبو قوس الصغيرة، ولكنه ادّعى في أوائل عام 64 أن عائلته تنتمي لآل الفهد. أعتقد أنه حصل على بعض المستندات التي تفيد أن أبا قوس هم في الأصل من الفهود، وهي أحوال ليست بعيدة

عن التركيبة القبلية للعائلات هنا، وثمة الكثير ممن يشتغلون في اكتشاف الرزم العائلية التي تعينهم في الوجود الاجتماعي. ثمة الكثير من التنقّلات التي يضفي بها الناس على وجودهم مظلّات كبيرة، ولكن كمال كان أكثر أبناء جيله قدرة على شمّ الطرائد، إذ كان يرى بعيني الكلب المدرّب أن معين الفهد، المعروف باسم الباشا (الذي صار ابن عمه الآن بعد أن بدّل نسبته) يصعد سلّم السلطة قفزاً في دمشق. فقرّر أن يسافر إلى دمشق. هذه هي الأخلاق التي تليق بكلب صيد. وقرّر ضمن ذلك أن يزيل العثرة التي تقف في دربه: فسخ خطوبته على فاطمة ابنة عمه، باع قطعتي أرض واشترى خمس قصبات في حيّ التضامن الملحق بمخيّم فلسطين، ثم قرر أن يسافر إلى دمشق. كان عمره خمسة وعشرون عاماً. ولم يحمل معه غير حقيبة صغيرة وضع فيها ثيابه، وبدَلاته الداخلية، وجوربين، أحدهما مثقوب عند إبهام القدم.

كنت أعرف فاطمة أيضاً، وقد درست عندي في المدرسة ثلاث سنوات، ثم أخرجها أخوها. وكنت ألتقي بها مصادفة في الطريق، فنسلّم ونتبادل السؤال عن الحال، أو أراها في الأعراس. وحين تزوّجت صارت صديقة فضة زوجتي، ولكنها اختفت تماماً بعد فسخ الخطوبة. ولم أستطع معرفة رأيها بما فعل كمال. تخيّلت أن لا أحد يعرف كيف يأتي نصيب البنات، ويبدو أن حرن كمال أفاد فاطمة، كما فكّرت، إذ خُطبت لشاب من آل العنب من سكّان مدينة السويداء، وأخذها خلال أيام. ولكنها لم تسعد. حبس الشاب فاطمة في البيت تقريباً، لا أعرف ما إن كان السبب هو الغيرة المفرطة، أم الشكوك المرضية، أم احتقار المرأة، ولكنه طلّقها بعد عام، وعادت إلى البلدة. وحين خرج كمال من السجن خطبها وقبلت به، وتزوّجا. هل هذا هو النصيب؟

لا هذا ولا ذاك، فالحركة اللئيمة المستهترة التي قام بها كمال الفهد

تسبّبت بطفح اجتماعي عابث جعل البنت عانساً بعد ذلك، فلا أحد ممن علموا أنها كانت خطيبة الفهد، أراد بعد ذلك أن يقترن بها، إما لأن الشائعات تحدّثت عن علاقتهما الغرامية سابقاً، أو لأنها هي التي كانت ترفض خطّابها الجدد، بعد تجربتها الخائبة.

كان معين في تلك السنوات إحدى كلمات سرّ الدخول إلى العالم الجديد بعد انقلاب 63: أي مؤسسة أو شركة أو منشأة أو فندق أو كازينو أو ملهى ليلي أو عربة فلافل أو غزل البنات، تعرف أن الله حقّ إذا وصل صوت الباشا الكبير إليها. وقد عرف كمال الفهد هذا منذ أن ركب باص السكانيا الضخم، وحدّث الراكب الذي يجاوره في المقعد عن قريبه. شعّ وجه الرجل، واسمه رسمي العابد، بحسب ذكريات كمال عنه، وصفّق بيديه صفقات تحية، وراح يعدّ على مسمع كمال خصال الباشا الكبير، وقدراته وبطولاته التي لا تُعدّ. ثم أشار بإصبعه كأنما يريد أن يستمهل كمال، ويطلب أن يحكي حزمة أخرى من سيرة الباشا. وكلّما كان الرجل يمعن في مديح الباشا، كان كمال، كما أتصوّره، يضحك في سرّه، وقد تخيّل نفسه معلّماً في منزله، يتلو عليه جملاً من فلسفته.

وقد عرفت أنه اشترى كتباً عن تاريخ اليونان، وربما كانت اسبرطة قد ملأت خياله بصورة المدينة القوية التي يقودها رجل مثل قريبه الباشا. هذا هو تصوّري المسبق، لكن الحقيقة هي أنه كان يتخيّل نفسه هو قائداً لها، ولا بدّ أنه رأى في الباشا مجرّد مطيّة يمكن أن يستغلّها، إذا عرف كيف ينضد أولوياته. ولهذا فإن الابتسامة كانت مترعة بالخيال المنتعش بالرغبة في تنقيح مسار السيد الباشا.

لا أعتقد أنه حمل الكتاب معه إلى الباشا، إذ كان يضنّ به، وربما اعتقد أنه يملك النسخة الوحيدة الموجودة في العالم، وقد يكون عرض عليه

صورة الإسكندر كما كتبها طه حسين، والراجح أن الباشا لم يقرأ أي شيء من الكتاب، فلا أثر له هنا، أقصد لا ملاحظات تشير إلى وجوده، ولكن الصورة المترعة بفيض من الانتصارات، التي أنعشها كلام الفهد، ستكون قد انطبعت في اللاوعي، ونفخت وجوده. وخاصة أن لصورة الإسكندر نفسه تعديلات طافحة بالتأملات ذات الطابع الروحاني مكدّسة دون ترتيب في كلام كثير من المتديّنين. لا أعرف ما إذا كان ذلك الرجل قد اقتنع بكلمات كمال الفهد، ولكن المؤكّد أن كمال كان مؤمناً بكلماته، وأنه حين تمكّن من الوصول إلى عرين الباشا، كان ممتلئاً باليقين أن الأحلام حقائق. صار يتصرّف بوصفه وريثاً، يمشي كما لو كان أحد القادة المشهورين، ولديّ صورة له، في ساحة فكتوريا، وهو يخطو واضعاً يده داخل سترته على غرار نابليون.

منذ البداية عمل مرافقاً للباشا، وهناك احتمال أن تكون قامته الطويلة الممتلئة، إذ يزيد طوله عن مئة وثمانين سنتيمتراً، وجهامة رأسه، فهو يشبه البغل تقريباً من حيث الملامح: وجه طولاني، بأنف ضخم، يخرج منه بخار كثيف حين يتنفّس في الشتاء، وشاربان كثّان يملأان المساحة العريضة التي تفصل أنفه عن شفته العليا، قد كانت سبباً في الموافقة على تعيينه في هذا العمل الميداني. وقد رضي به كتنازل مؤقّت عن الطموح، وصار يظهر للباشا مواهبه وخصاله بالقطارة. والراجح عندي أنه لم يقدّم نفسه من اللحظة الأولى كقريب، بل كرسول.

ومنذ اليوم الأول لفت نظره الحشد الواقف خلف الحاجز الحديدي الذي يقطع الشارع بعيداً عن منزل الباشا في شارع الروضة: «بعوض» قال معين وهو يراهم بطرف عينه، بينما كان كمال يقطر الأفكار داخل رأسه، من هؤلاء؟ ولم يقفون هناك؟ وماذا ينتظرون؟ وإذا كان لم يجد جواباً،

فمن الصعب على قروي قادم من اللجاة مثلاً، أن يتخيّل ما الذي يمكن أن يطالب به مدني يقف على حاجز الحديد قرب منزل أحد أركان السلطة. ولهذا بدأ في تشكيل مطالب أولئك الناس بحسب ما يمكن أن يسعفه به خياله.

أمضى تلك الليلة ساهراً يفكّر: بمَ يمكن أن يدشّن الطريق التي ندب نفسه لها؟ كان الباشا قد خصّص له، كابن عم، وابن السماقيات أيضاً، غرفة صغيرة في الجانب الخلفي للبيت «القيلّا» كما سمّاها كمال، يلحق بها مطبخ وحمّام وفسحة صغيرة تطلّ على الحديقة أيضاً. وكان يسمع هناك أزيز حشرات الليل، وصمت المدينة وأضواءها التي تخترق السماء من حوله. ولكن كل تلك التأملات لم تنفعه بشيء، ونام محروماً من الإلهام. ولا بدّ أنه رأى تجمّعاً آخر أو حشداً واقفاً خلف الحاجز في الصباح التالي، وفي هذه المرة تجاهل المجموعة، لأن الباشا لم يقل «بعوض»، وربما نسيها تماماً بسبب انشغاله أثناء النهار بمرافقة الباشا من مكان إلى آخر.

كان الكتاب بحوزته بالطبع، وكان يقرأ فيه كل ليلة، ويتابع بعينيه وبعقله خطط الفكر، وهو يعتقد أن القراءة وراء القراءة وراء القراءة سوف تدفع ينبوع الخلق إلى التكوّن، وإيجاد الحلول لمشاكل الناس الذين يقفون بعيداً.

ما يلوم نفسه عليه أنه لم يجرؤ على الاقتراب من الحاجز إلا بعد أكثر من ثلاثة أشهر. كان قد اعتاد المكان، والشارع، ونظام الحرّاس، وصار بوسعه الحديث مع الباشا بلا كلفة، وهناك بعض الأسئلة السرية التي أجاب عنها بخصوص تفاصيل تجري في السماقيات بين بعض الأشخاص. لا أعرف ما إذا كنت موجوداً في لائحة الاستفسارات التي يريد الباشا النبش فيها، وقد أنكر كمال أن يكون قد وشى بأحد، وإنما كانت مجرد معلومات

عامة ليس فيها أي خصوصيات، وكانت تهدف لحلحلة الجفاء وتقريب المسافة. وما يندم بخصوصه، أنه لن يرى حاجات أولئك الذين أهملهم، وقد رحلوا يائسين قبل شهرين مثلاً، وحين مشى على الرصيف، مساء، ووصل إلى حيث كان يحتمل أنهم وقفوا ينتظرون، تخيّل أنه هو الواقف هنا، وأن السيد الباشا الأفندي الآغا البيك يمرّ بسيارته وحرسه مبتعداً عنه، كأنما هو جيفة أو خرقة منسية. على الرغم من كل المظالم التي تُرتكب في السماقيات، لم يكن مشهد اللامبالاة الفاتر المصحوب بنبرة الازدراء الذي أبداه معين الباشا، ينتمي إلى أي لحظة من لحظات السماقيات. نعم، كانت تعجّ بالمظالم طول الأبد، غير أنها كانت تخلو من هذه الحقارة العليلة التي رآها.

***

في ذلك الصباح كان رجلٌ واحد يقف في البرد (البرد يصاحب الحكي عن البؤساء دائماً) ولم يتحرّك من مكانه، على الرغم من أنه رأى الرجل الضخم القادم نحوه من جهة منزل الباشا، بل إنه مشى بضع خطوات، ثم توقف حين رأى اليد اليمنى لكمال تطلب منه ذلك. تحدّثا قليلاً، سأله كمال عن اسمه، وعنوانه، وسجّل ذلك في دفتر صغير، ثم أخذ منه ملف أوراق محشوّة في مصنف كرتوني باهت.

تضمّن اللقاء أيضاً وعداً مسنوداً بمشيئة الله أن تُحَلّ مشكلة الرجل، وطريقة للتواصل، ثم مضى كلٌّ منهما في طريقه.

وفي ليل ذلك اليوم قرأ أوراق الملف ببطء، ورقة ورقة، وحين أكمل القراءة، رماه على الكرسي، واستلقى قليلاً. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل. كان قلقاً وعاجزاً عن النوم، وقد شعر أنه شطح قليلاً خارج المسار، إذ ماذا يمكن أن يفعل؟ ولمَ لم يبقَ في مكانه؟ وفي

إحدى اللحظات شعر بالأسى من أن تكون قضية عابرة، قادرة على كبح طموحاته الكبيرة، أو دفعها إلى الهامش. كانت هذه الفكرة بالذات أول خاطرة تزعزع مكانة الكتاب في نظره. وقد أعاد قراءة صفحات كثيرة منه في الهزيع الأخير من الليل ببطء باحثاً عن جملة أو عبارة أو كلمة مفتاحية يمكن أن تساعده في مهمته (سمّاها الإنسانية). (ربما كان في تلك الليلة قد وضع تلك الدوائر البيضوية حول كثير من الكلمات في فصول الكتاب. هل قلب الصفحات فقط؟ أم قرأ بتمهّل؟) وهو يتساءل «كيف يمكن أن يحلّ مشكلة عالقة لشخص عاجز فقير بلا سند؟». لم يفكّر بالمجد قطعاً، وهذه خصلة تحسب له، ولم يفكّر بنفسه أيضاً، إلا قرب الفجر، حين أدرك أن التدخّل في أي قضية يتطلّب قوة سلطة، بينما هو لا يزال بلا أي سلطة. وحين فكّر في من حوله وجد أن احتمالات العثور على نجدة ضئيلة. لا يمكن مفاتحة الحارس، ولا المرافق البديل الذي يناوب عنه أحياناً، إذ لم يستطع أن يثق ببديل، أو أنه كان يرفض في أعماقه أن يضطر لاستشارة بديل في حين يفكّر بنفسه كمعلّم.

وحين ركب في المقعد الأمامي لسيارة الباشا، في الصباح، كان الملفّ يرقد في غرفته داخل درج مقفول، بينما كان مزاجه بلا ضوابط.. ظلَّ جالساً مثل عمود، وتذرّع أن ظهره يؤلمه قليلاً (كان يؤلمه قليلاً بالفعل بسبب القلق والسهر والأسئلة المحيّرة). ويبدو أن أحداً لم ينتبه لارتباك حركاته، ولا لمزاجه النكد، حين لم يتكلّم أثناء الطريق! كان الباشا يقرأ في أوراق بين يديه، وكان السائق خاملاً، يقود السيارة دون حماسة.

في ذلك الصباح فقط أحسّ أن آماله في الكتاب بدأت تخبو، ربما كان إحساساً بالخيبة، ولم يعد متحمّساً للوصف الأولي الذي جعله يقول إنه بئر أفكار. وهو مجاز ركيك في الأصل، إذ كان اليومي الذي أطلّ برأسه

لأول مرة يتحدى الكوني، كان العيش يرفس الفكر والفلسفة، يمدّ لهما لسانه، ساخراً من ضحالتهما في التفكير به. شعر بالغيظ، بالغيظ فقط، دون أن يسمح للخيبة أن تزعزع العلاقة بينهما. وطوال الوقت المتبقي من نهار العمل، وهو نهار يمضيه في شرب الشاي، والمشي المكوكي، أو سرقة غفوات مستعجلة، أو التمطّي كالهرّ في غرفته، راح اليوم يفكّر ويردّد في ذهنه أسماء: أفلاطون، سقراط، أرسطوطاليس، الإسكندر، كيف يمكن أن يساعدوه كي يحقق العدالة لذلك الرجل المظلوم الذي سُلب حقه؟ كانت كلمة العدالة تتسلّل إلى ضميره لأول مرة، وشعر بأن لها طعم الملح، هكذا قال، ملح يمكن أن يكوي حلقك وأنت تذكرها. لم أفهم شيئاً من هذا التهويل الذي يقوله كمال اليوم، فقد كانت العدالة غائبة دائماً في هذه البلاد وليس لها أي طعم، ولم أستطع أن أسأله ما إن كان شعوره مرتبطاً بساعات الهزيمة اليوم، أم بأيامه السابقة، فالظاهر أنه هو نفسه كان ضحية لغيابها، بحيث تركت في نفسه مثل هذا الشعور. وعلى أيّ حال، فإن الأفكار كانت تتأخر في الوصول إلى عقله. كان كمال الفهد، وصل إلى الشهادة الإعدادية لاهثاً، وقال لنا حينئذٍ إنه لن يستطيع متابعة طريق العلم الوعر المؤلّف من الكلمات ومسائل الحساب. الحقيقة هي أن الجغرافيا هي التي كانت تنهكه.

وبسبب قلة معرفته بأي شيء ممكن في المدينة التي جاء إليها حاملاً غايته وحدها، فقد أُحبط تماماً. ومن المحتمل أنه شعر بالندم على ما فعل، لا لأنه لا يريد أن يساعد الرجل، بل لأنه خاف من أن يعجز عن تقديم العون. فما العمل؟

والراجح أنه أمضى بضعة أيام مزعزعاً، وبدا المصنّف الكرتوني بأطرافه المهترئة ولونه الباهت المبقّع بزيت وحبر وشحطات قلم مثيراً

لليأس. وازداد شعوره بالإثم كلّما طال الوقت، وتبدد زمن الوعد الذي قدّمه للرجل. أيام وسوف ترى أن المشكلة انحلّت. ولمّا لم يجد في متاهة رأسه فكرة جديرة بالاحترام فكّر أن يحاول تجربة الباشا، الحقيقة هي أنهما كانا يتبادلان الأحاديث أحياناً في الحديقة، أو عند المساء إذا أراد معين أن يتريّض قليلاً في أرصفة الحيّ. ولكن الحديث الحميم مع معين بات مستحيلاً، كان الرجل قد أصبح بعيداً عن أي حميمية ممكنة تشبه الكلام بين صديقين، وما كان كمال يريد أن يمتحن الأمر بأي صورة، خوفاً من انكشافه، بينما كان الودّ الوحيد الذي تمكّن الباشا من تمريره هو سؤاله: «كيف حال العجوز؟»، ولم يعرف كمال ما إن كان يسأله عن أمه أم عن أبيه، ولكنه قال: «بخير يا باشا»، وكان متأكّداً من أن الجواب أقفل كل الاحتمالات الأخرى.

ما الحل؟ الأمر بسيط للغاية، هكذا قال إنه وجده بعد أسبوع: «يمكن أن نلجأ لمساعدة الباشا دون علم الباشا». قال كمال إن الجملة وردت هكذا في الحلم، لقد رآها مكتوبة على جدار مرة، ثم رآها مكتوبة على صفحة كتاب. وفي اليوم التالي كان يزور الدائرة المعنية، ويعرض الأوراق المستعصية التي يوصي الباشا بتسهيل أمر صاحبها، وإذ به يجد أن التوقيع المستعصي باللون الأزرق أضحى موجوداً في أسفل الأوراق البيضاء.

سهولة الحل الذي أُنجز بسرّية أيضاً (وقد بدا له أن الكتمان جزء من انضباط الموظّفين المطيعين)، كان طريقه نحو السقوط. نعم، كانت تلك هي بداية النهاية، لا لمشروعه الشخصي الذي ظنّ أنه يمكن أن يحققه بالتقرّب من شخص مثل معين الفهد، بل لمشروع البقاء نفسه. إذ إن فرح ذلك الرجل الذي أمضى سنوات راكضاً متسوّلاً على أبواب المسؤولين راجياً حلّ مشكلته، بدا مثل تعويذة الحياة المنتظرة. وسرعان ما نسف

كمال بيده كل أفكاره عن الأمجاد الشخصية، وهو يرى أن بمقدوره أن يصنع مساعدة ومعروفاً لآخرين.

يدّعي كمال أنه استطاع حلحلة عشرات المشاكل العالقة، وقد اكتشف أن معظمها تعرقلها عوائق بيروقراطية سببها الفساد أو الخوف. دون أن يفكّر أنه كان يقفز فوق البيروقراطية مستفيداً من الخوف. أقنع نفسه أن الأهداف السامية يجب أن تتخطى الإجراءات الإدارية التي ينفّذها أولئك الموظّفون الصغار الذين يبطئون حركة البلاد كلها. إنهم هم البعوض الذي يمتص حيوية الناس هنا (رداً على معين). ولذلك لم يعد يرحم أي موظّف يتباطأ في تنفيذ ما يطلبه منه، إذ كان يصل فوراً إلى مديره (وهو شخص سيكون أكثر معرفة بصلاحيات الباشا، وأشد ذعراً من سلطتها) ويطلب معاقبته.

ولكي يبعد الشبهات عن نفسه، تجاه الباشا على الأقل، نقل محل سكنه إلى حيّ باب مصلى. وقد أتاح له السكن الجديد (الذي لم يعره الباشا اهتماماً لائقاً، وإنما اكتفى بسؤاله لماذا تريد أن تنتقل، ثم لم ينتظر الجواب كعادته) أن يزيد حجم المساعدات، فتحوّل بيته الصغير، حيث استأجر غرفتين ومطبخاً صغيراً على سطح بيت عربي، إلى مركز «خدمات إنسانية». هذا هو التعبير الذي اختاره لتسمية ما كان يقوم به، ولا بدّ أن اسم معين الفهد كان يتكرّر في معظم دوائر الدولة، لقاء تحقيق تلك الخدمات، ولكن كمال ما عاد يهمّه من الأمر سوى ما يتحقق، نوع من المكيافيلية المطلقة التي استعارت العبارة الشهيرة التي كنا نختلف حول تطبيقاتها أحياناً، الغاية تبرر الوسيلة، صار يقول لي. كان يعرف أن الغاية لا تبرر الوسيلة، ولكنه حين يضع ما حققه من فوائد للناس المساكين الذين تطحنهم آلة دولة عديمة الرحمة، يقبل بالمبدأ دون شروط، بل إنه استخدم

نظام الإجراءات (أي التخويف بسلطة الباشا) لردع أولئك الذين فكّروا أن الخدمات لم تكن مجانية.

صعوده السريع، وسط الحاجات المحققة، روّج لشخصه في كل مكان، كان اسمه وحده هو الذي يُذكر بين أصحاب القضايا. داخل متاهات القصر العدلي، أو أروقة المحاكم، أو وسط أزقة الفقراء، أو بين أصحاب الحاجات الذين أخذوا يتناقلونه مثل تعويذة مضادة للنفاق والرياء والرشوة. وكانت المسافة بينه وبين معين الباشا تتقلّص وتصغر لتصبح مجرّدة من الوجود الشخصي له. لم يعد محتاجاً إلى التذكير باسمه. وصار هو نفسه سلطة حضور. قامته الطويلة، صوته الجهوري، جملته الأمرية، التي لا تتضمن أي كلمة رجاء أو استعطاف أو لباقة. صرامته وحزمه. كل ذلك زاد في تبسيط كل شيء، وبالمقابل فإن تحرّكاته زادت أعباءه المالية. كان بيته في الحيّ لا يخلو من الزوّار حين يكون هناك، وكان عليه أن يقدّم لهم الشاي أو القهوة أو العصير أحياناً أو الفواكه المتوفّرة. وقد ظهرت النتائج في رصيده المالي، وهو راتب شهري لا يزيد عن مئتي ليرة، كان يتلاشى قرب نهاية الشهر.

وكان سعيداً بهذا كلّه، وصار يعتقد أنه ما دام قادراً على منح السعادة لغيره من البشر، فإن العالم قابل للإصلاح، وإن البشر أنفسهم، وبضمنهم موظّفو العراقيل في دوائر الدولة، يمكن أن يكونوا طيبين ومخلصين في تأدية عملهم. واللافت أنه كان صارماً إلى حدٍّ بعيد، ولم يقبل أن تُنجز أي قضية بنصف ما تستحق، فنصف الحقيقة تعادي الضمير وتفتقر للنزاهة، ومن ثم كان قد وضع حجراً صارماً على الرشوة، وهدّد أولئك الذين وضعوا ليراتهم على طاولته بالمحاسبة أمام القانون.

وعلى كل حال فإن أحداً لم يُشِر أمامه، ولو مرة واحدة، من بين

أصدقائه (وقد صاروا كثيرين) إلى أن ما يفعله يتضمن خطأ أخلاقياً يسلب لبّ الفضيلة التي يزهو بها، وقد يحطّم شرفه الشخصي.

لكن هل كان جرذ شكوك ينبش في تلافيف عقله كي نراه يخفي الحقيقة عن المرأة التي أحبها. كانت رباب ابنة علي التاجر الذي هاجر من السويداء إلى دمشق منذ منتصف الخمسينيات واستقر للعمل، وقد نالت الإعدادية فقط، ثم تركت الدراسة، وبينما يدّعي كمال أن والدها، ووالدتها أيضاً، أرغماها على ذلك، فإنها لم تكن تستعيد ذكريات المدرسة بأي نوع من الحنين، ولا أعرف لِمَ كان كمال يتهم والديها. فحين لم تكن قد ارتبطت بكمال بعد، كانت تسخر من الكتب ومن المدارس والمدرّسين، وتعتبر أن الجلوس على مقاعد الخشب عقوبة يفرضها الكبار على الصغار لتركيعهم بشكل مبكر، وتدريبهم على الطاعة، بينما يكوّمون معلومات لا قيمة لها.

وفي الحي تعرّف إليها بسبب قرابة بعيدة تربط آل التاجر بأبي قوس. كلاهما، علي وكمال عرفا أن نسب نساء يجمع بينهما، عمة فلان هي خالة علان، أو شيء من هذا القبيل، وهناك رأى رباب. وبفضل ذلك اللقاء استنتج أن القلب وحده يقرّر شراكة العمر، معلناً رفضه لكون النصيب، وهو أمر شبيه بالقدر، هو ما يحدّد في نهاية الأمر حصة أي رجل من النساء أو العكس بحسب ما يؤمن الناس هنا. وربما كان يدافع عن نفسه بسبب انفصاله عن فاطمة التي لم يحبها.

ويزعم كمال أنهما تحدّثا عن الكتب، ومن غير المؤكّد هذا الكلام، ولكنه حدّثها عن الكتاب، في زعمه أيضاً، وقد اهتمت به، وقرأت بعض الفصول، ولكنها لم تستطع المتابعة، بسبب أعباء البيت التي كانت تشغلها، (هذا ما تذرّعت به) ويبدو أنها وعدته بمتابعة القراءة في ما بعد، فاشترى لها

نسخة خاصة بها من المكتبة (كانت نسخته هي النسخة الأصلية في رأيه، أما باقي النسخ فهي التقليد) آملاً أن يكون وجوده الدائم بحوزتها محرّضاً على القراءة. لكنها لم تقرأ منه شيئاً، عدا العنوان واسم المؤلّف، وربما أثارت سيرة العميد فضولها واستغرابها وإعجابها من أن يكون بوسع رجل فقد بصره منذ الطفولة إنتاج أفكار تستطيع السيطرة على كمال الفهد. هذا هو مصدر الاهتمام الوحيد بالكتاب، بينما كان كمال ينتظر قراءة أخرى، لم تحصل. وقالت له إن الحياة لا تحتمل تلك المتاعب التي حدّثها عنها، وأفضل ما يفعله البشر هو زيارة سوق الخضار، وشراء اللحوم النظيفة، وارتداء ملابس أنيقة.

كانت حماسته في الأعمال العامة (خدمة الناس كما كان يسميها) قد طمست هدفه الكبير قبل ذلك، بينما أوقد الحب، أو العاطفة الجديدة، ذلك الهدف من جديد. وحين تبيّن له أنه أفرط في التفاؤل، صار يستعين بالشعر لترطيب خيبته قائلاً: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. تلك كانت مجرد نسمة جافة عابرة، أما الرياح التي دمّرت سفينته فقد جاءت من الطريق ذاتها التي سار فيها.

الواقعة كما رواها نصار أبو ليرة:

«ما كنت أعلم شيئاً عن التفاصيل، ولا كان لديّ ذرّة من الشك أن الباشا معين الفهد، هو الذي أوعز لمرافقه الطيب كمال أن يقدّم تلك المساعدات التسهيلية للناس الواقعين في مآزق إدارية أو قضائية، أو مأسورين ضمن المصاعب التي يخلقها قاضٍ فاسد، أو موظّف نذل باحث عن الرشوة، أو ينفّذها ضابط متسلّق حصل على المنصب الجديد بقوة المسدس أو عصب القرابات. وفي هذا المناخ الموبوء الذي تجتاحه هذه الوحوش البشرية ظهر الباشا كمخلّص، مطرٌ صافٍ خالٍ من الشوائب والأعطال

الدنيئة التي خذلت الناس، روح مشحونة بالتعاطف وحب الناس، كما أخبرنا أكثر من شخص ممن قدّم لهم المساعدة.

في تلك الأيام كان عدنان أبو ليرة، أخي، شبه مقعد، بعد أن تفاقم احتكاك الرصاصة، التي أصابت وركه واستقرت فيها منذ أن كان جندياً في جبهة الجولان، بعظامه. أعتقد أن جندياً إسرائيلياً هو الذي أصابه بقناصة. هل كان يلعب ويجعل منه دريئة للتدريب؟ أم كان يقصد إيذاء الجندي؟ لا نعرف بالطبع، ولا نعرف أيضاً من الذي وضع إشارة ضرب حمراء أمام اسمه لإخراجه من سجل الإصابات القتالية. ولهذا لم يعالج على حساب الدولة، بل تُرك كأجرب، وأحيل إلى التقاعد، لانتفاء الصلاحية العسكرية. وطوال سبع أو ثماني سنوات، راحت زوجته تحمل أوراقه، وصور عظامه المكسورة من مسؤول إلى آخر، من باب إلى باب، تشرح حاجتهم إلى النجدة، ولكنها لم تحظَ بأيّ دعم. بدت مثل شحّاذة، متسوّلة ترجو وتتوسّل، وتستمع إلى من ينهرها وهي تبتسم كي لا تقطع الطريق على الأمل. إلى أن سمعنا ببرنامج المساعدات الذي يقدّمه الباشا.

لم تصدّق هدية، زوجة أخي، ما يقال، كان العالم الأرضي الذي رأته وخبرته وتعرّفت إلى البشر الذين يعيشون في أرجائه، فاسداً نتناً مسكوناً بغيلان مخاتلين لا يرحمون، إلى أن ذهبت ورأت وسمعت بنفسها ما يقوله ذلك الممثّل الذي يتحدّث باسم الباشا، وإلى أن لمست وعاشت وجرّبت ماذا يمكن للشهامة أن تمنح للمحتاجين».

مصادفة قدرية مدمّرة، أم سياق طبيعي يذهب في اتجاه النهاية؟ لا يهمّ، فالنتيجة كانت واحدة، وهي أن معين الفهد كان غاضباً بسبب وضعه في الدعوة دون مشورته، وقد بدا النسق الطويل الذي بلا نهاية، حين اصطف الأقارب وأهل الحيّ، والفضوليون من أبناء المدينة، والشحّاذون

والقرباط الذين كانوا قد خيّموا قبل يوم واحد في الحواكير الغربية وزعران الساحة وقسم من العتّالين الذين بلا شغل لمصافحته. وفي الداخل، بدا له الوضع أكثر سوءاً. كانت القاعة مزدانة بأعلام الدولة والحزب، وقف جميع الحاضرين (يعتقد كمال أن عددهم أربى على الأربعين شخصاً) وصفّقوا طويلاً. سمع زغرودة امرأة، وخرج ولدان يحملان باقة ورد، وقدّماها له. لاحظ معين أن الجميع كانوا يرتدون ثياب أعياد، لكنه لم يفهم المعنى حين بدؤوا يلقون كلماتهم: كانت كل خطبة، وقد بدا له أنه في متاهة خطابات لا نهاية لها، تقدّم نقيعاً من الألغاز الغريبة. جملاً صعبة ومتحجّرة من عصر الولاة. أشعار مستعارة. بعض تلك الكلمات معجونة عجناً بالمداهنة. بعضها الآخر ثرثرات عن الوطن. كتل صماء من اللغة التي سوف تكون طريقنا إلى راحتنا. ولأنه لم يفهم شيئاً فقد بدا له أنه مدعو إلى حفلة مجانين، نقباء تفاهة. أغاظه وجوده كأحمق في المكان، وجلوسه كنصب في صدر القاعة، وصمته المهين أمام الخطابات المتتالية. ثم اعتقد أن واحداً من رفاقه في القيادة نصب له شركاً، أو أراد أن يمازحه بتعديل ثقيل الدم منهك وبليد. أما حين بدؤوا يتحدّثون عن براعته في كسر القواعد، وتحطيم الغرور، واختراق الفساد، فقد أخذت عظامه ترتجف. ليست مزحة، همس لنفسه، وقد حان وقت النهاية إذاً، وما يشهده هو مسرحية الختام.

ما رواه نصار أبو ليرة:

«كنت قد اطلعت على جميع الكلمات التي أراد المشاركون في تكريم الباشا أن يلقوها في حضرته، أجرينا بعض التعديلات الضرورية لجعل النصوص نظيفة تماماً من أي شطط أو انحراف سياسي أو تقني عن الخطوط التي نعرفها، وقد ساعدني سلمان الفخر وعصام النهر في ذلك.

لا أعرف لماذا بدا غاضباً، فكلّ الكلمات كانت تقدّم جردة تحيّات

لشخصه، لأعمال الخير التي قدّمها للناس، بينما كان مصرّاً على ألّا يبتسم، وأن ينظر إلينا نظرات غريبة مثقلة بالحيرة. وقلت لمرافقه إننا كنا نستطيع تأجيل الحفل لو كنا نعلم بمشاغل الباشا، فقال: ليتكم لم تولدوا أصلاً! لم أفهم ما هي العلاقة بين العبارتين».

كان كمال هو الخاسر الوحيد في حفلة النفاق، فالرجال والنساء الذين قدّموا التحية لمعين الفهد، استطاعوا الوصول إلى التفاح والبرتقال والهريسة التي قُدّمت لتكريمه، بينما أخذ الباشا رزمة الكلمات المذهّبة، وغضبه من الموقف الذي لم يستطع فهمه حين صار في البيت وشرح له ضابط في المخابرات ملابسات الموقف كله.

أتخيّل أن الباشا كان في لحظة من لحظات الجنون، بسبب ما حدث، وراح يفكّر: لي الشعر وخطابات الولائم ولك دفاتر الشيكات (لا شيكات ولا بنوك ودفاتر في ديرتنا)؟ لك رزم النقود ولي حزم المدائح، لك الخزائن ولي فراغ الحقائب.

كان معين الفهد قد أيقن أنه تعرّض لواحدة من أكثر أعمال الاحتيال خسّة ودناءة في تاريخ الناس. لم يسأل عن الحكايات التي أُنجزت، ولا همّه حساب الأمجاد الذي حصل عليه من لعبة المحسوبيات القذرة، إذ إن حسابه البنكي كان فارغاً بينما يرفل قريبه النصّاب في مجد من المال، وها هو ذا فضلاً عن ذلك يتهاوى من باشا القوة والحزم والرهبة وعدم التهاون مع أعداء الثورة، إلى مجرد صانع حسنات صغير يجري خلف رشوة من هنا، أو كلمات مداهنة من هناك. لكن المشكلة الكبرى التي تعترضه في تلك اللحظات هي أنه يستطيع أن يهدم هذه المدينة كلها، لكنه يعجز، كما لو كان قد قصّ أحدهم جناحه عن المسّ بأعراف قرية. هذا هو الإفلاس الذي انزلق إليه أيضاً، إذ إن آل الفهد في السماقيات لا يستطيعون أن يروه

يدمّر ابن عمه، هذه عطالة عشائرية تسرق منه رغبته في قلع هذا المأفون من الوجود. فما العمل؟ ولكن ما الذي جعلك تتخلّى عن المجد وتذهب إلى القاع؟ ماذا تريد من هؤلاء الرعاع الغشّاشين التافهين الذين يركضون وراء إرث صغير أو يتقاتلون على مساحة متر من التراب؟ ماذا أعطوك يا نذل غير ما أعطيتك؟

أمضى كمال سنتين في السجن بتهمة استغلال الوظيفة لتلقي الرشوة، وطُرد من العمل، وحُرم من كل التعويضات المالية، وبعد شهر فقط من سجنه، فسخت رباب الخطوبة، ويبدو أنها استخدمت عبارات قاسية في رسالة الإعلام التي بعثت بها إليه في سجنه. ومما يمكن اقتطافه منها الكلمات والعبارات التالية: لم أصدّق أنني أحببت لصاً. أكنت تنوي أن تنجب أولاداً بالربا وأكل المال الحرام؟! صار إيماني بالله أشد وأقوى لأنني أدركت أنه أنقذني من البلاء. ربَّ أخٍ لك لم تلده أمك.. وهكذا: سلسلة من التوبيخات المفرطة التي تتضمن أحياناً اقتباسات من الكتب أو الشعر الذي يشي أن وراءه يد التآمر. فالباشا (وهو «الأخ» الذي لم تلده أم رباب) لم يستطع أن يكتفي بالإحالة إلى القضاء، وهذا هو الإجراء العلني الذي يستطيع مجابهة العائلة به، إذ إنه سوف يترك أمر كمال للعدالة. بل كان نزوعه إلى الانتقام، وإلى التدمير، لا توازيه سوى رغبته في معرفة المكان الذي خبّأ فيه كمال الأموال التي جباها من أعمال الاحتيال والمحسوبية التي نفّذها خلال سنتين. ولمّا لم يعترف كمال في منظومة التحقيقات التي تراوحت بين السين والجيم، واستخدام الكرباج والدولاب والضربات بالكهرباء (لا بسبب شجاعته بالطبع أو قوّته الجسدية، بل بفضل براءته وقوّته الروحية) فقد أقنع رباب أن تحاول استخلاص المعلومة بالحب. ولكن عبثاً، فقد استمر كمال في إنكار أن يكون قد أخذ قرشاً واحداً لقاء

الخدمات التي قدّمها للناس. كان مزهوّاً وهو يقدّم المطالعة النهائية الطاهرة عن رسالته المقدّسة، بقدر ما كان شاعراً بالخزي من التهمة الشائنة التي وُجّهت إليه. هل ارتاب بشأن رباب؟ في البداية: لا، غير أنه بدأ يضجر من ذلك السؤال، ويقسم لها إنه بريء من تلك التهمة، وإنه لا يمكن أن يمدّ يده لسرقة أولئك الذين كان يساعدهم بكلّ ما استطاع أن يستخدمه أو يسلبه من السلطة، بينما كانت رباب قد انخرطت في لعبة التحقيق والتحري التي أقنعها بها الباشا، وكانت تزداد كرهاً واحتقاراً لذلك الانحطاط الرخيص، إلى أن أدركت بنفسها أن خطيبها مفلس، رعديد، تافه، جازف بسمعته وحياته ومستقبله من أجل حفنة من رماد الرحمة الكاذبة.

خرجتُ من بيته ولم أعد أضحك أو أسخر. لم يعد كمال، كمال الفهد، ولا كمال أبو قوس أيضاً، بل مجرد قطعة من اللحم النيء الميت الذي فقد كل شيء.

خذ الكتاب معك، قال لي، ربما نفع شخصاً آخر غيري!

مكتبة
t.me/soramnqraa

15

في الصفحة التي كُتب فيها عنوان قصة تشيخوف «صاحبة الكلب الصغير» من مختاراته التي ترجمها فؤاد وسهيل أيوب، قرأت جملة وحيدة مكتوبة بالحبر الأزرق السائل: «كل إنسان يحفظ وجوده الشخصي في الخفاء». اعتقدت أن الجملة لحاتم غزال في البداية، إذ كنت قد قرأت الكتاب في نهاية الخمسينيات، أي بعد أن بنينا المكتبة بعام واحد. وها قد مرت اثنتا عشرة سنة قبل أن أراه مرة أخرى. نسيت من القائل، فأعدت قراءة القصة. ووجدت أنها للكاتب الروسي المعروف. غير أن العبارات التي كُتبت في نهاية القصة كانت لحاتم بالتأكيد وفيها يكتب تعليقاً على الخاتمة التي أنهى بها الراوي قصة الحب بين ديمتري غوروف وآنا سيرجييفنا هكذا: «ولكن ما الذي سيحدث؟ لا الزمن ولا الموت ولا أي شيء يستطيع أن ينهي ما بدأ بينهما. ليس الحب الحقيقي شيئاً عابراً، أو حدثاً آنياً. هو خالد كالشمس، كالأرض، كالنجوم». ثم يكتب بعد ذلك بسطر في الفراغ: «كان على الكاتب أن يقول إن كليهما كان يدرك بوضوح أنهما لن يصلا إلى الخاتمة، فليس ثمة خاتمة في الحب. أما الموت فليس نهاية للحب».

كان تشيخوف أقل من حاتم تفاؤلاً بهذا الشأن، صحيح أنه مدّد قصة

الحب بين غوروف وآنا إلى زمن غير محدّد، ولكن القارئ يشعر أنهما سيصلان آجلاً إلى نهاية ما لحبهما. وما علمته هو أن قصة الحب التي ربطت بين حاتم الغزال ونجوى أبو حديد مضت في سبيل آخر مختلف عن السبيل الذي مضى إليه بطلا تشيخوف.

تعود ملاحظات حاتم إلى عام 73 أي بعد دمار المكتبة بعشر سنوات، وكان قد خرج من السجن قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة أشهر. بينما كانت قد مرّت سنتان على موت نجوى.

غير أن الكتاب لم يكن لدى حاتم طوال تلك السنوات، وقد انتقل بين أيدي كثيرين إلى أن وصل إليه. ويبدو أن تلك القصة قد أوجعته كثيراً حين قرأها، فقد جرّب حباً مماثلاً للحب الذي ربط بين قلبي غوروف وآنا، لكنه حين التقى بنجوى أبو حديد لم يكن قد سمع بتشيخوف، أو بقصة صاحبة الكلب الصغير. وقد تعارفا في مناخ العمل. ففي داخل مكتب صغير من إحدى دوائر الدولة (لن أسمي المديرية حرصاً على سمعة كل منهما)، كان ثلاثة أشخاص يعملون وراء طاولاتهم: حاتم الغزال، ونجوى أبو حديد، ووفاء برغل. وقد كان حاتم متزوّجاً من ليلى ابنة نواف شمال من الحارة الجنوبية، من السماقيات، بينما كانت نجوى زوجة موظّف في البريد اسمه كريم (لا أعرف ما نسبته). أما وفاء فلم تكن قد تزوّجت بعد. وكما يحدث في كل مجموعة تضم ثلاثة أشخاص شكّلت المرأتان حلفاً لم يتضمن أيّ عداء.

والأمر المحيّر هو أن الحب بينهما بدأ بلحظات من الخصومة، والنفور. فقد كرهت نجوى صمته المتواصل في غرفة العمل، وتقاعسه عن المشاركة في أي حديث يجري بينها وبين وفاء، سواء كان الكلام عن اليومي، أي عن أسعار الخضراوات ومواد التموين، أو كان عن الرواتب

الضحلة، أو كان عن مسائل الوجود العامة كالصدق والمحبة والبخل والشجاعة وغيرها. وهي أحاديث تتخلل ساعات الفراغ التي تطول أحياناً حتى تغطي ثلاثة أرباع الدوام المقرر. يظلّ حاتم صامتاً، يشتغل في الدفاتر، أو يقرأ في كتاب ما. أعرف حاتم جيداً، فصمته لم يكن ناجماً عن الكسل كما فكّرت نجوى، بل عن بل عن ركود في الخيال يجعله عاجزاً عن ابتكار الكلام بشكل مفاجئ. ينغلق أفق الأحاديث في رأسه. يتوقف دماغه عن المعرفة وعن المشاركة وعن التذكّر. يصبح أميّاً. رأساً خالياً من المعرفة أو العلم أو الخبر. هذا ما يحصل عادة، أما في حضور النساء فإنه يغدو بلا أي مذهب أو اتجاه أو قوة. وفي كل مرة يحتاج إلى مَن يدلّه أو يحرّضه أو يخلق له مناسبة للحديث. ماذا يقول؟ كل مرة كان يسأل نفسه، فيما زميلتاه تتحادثان، عن أيّ موضوع يمكنه أن يتحدّث؟ وهل ستتقبّل أيٌّ منهما حديثه؟ ألن تسخر منه إحداهما، أو كلتاهما؟ ربما سخرتا منه بعد خروجهما من الدائرة.. وهكذا يولد في داخله زوبعة من الافتراضات السوداء التي تجعله يختار الصمت.

كانت نجوى هي الأكثر حنقاً من ذلك الصمت، وأطلقت عليه اسم الصنم، والدب، والأخرس، والفسوة، وكانتا تضحكان كلّما ذكرتا أحد تلك الألقاب، وأضحت كلماتٍ للسرّ بينهما، حتى لو كان حاتم موجوداً. هل عرف؟ بالطبع كان يعرف أنه المقصود بأي اسم غريب يتردد في الغرفة. غير أنه آثر أن يتجاهل الأمر، إذ اكتشف ببصيرته أنه يساعد في التخفيف من الرقابة، كما أنه لم يجد، كالعادة، ما يمكن أن يستخدمه في الرد من الكلمات. وبفضل المهارة والحذر معاً، استطاع أن يأخذ منهن ما يريد من الفرجة، دون أن تلاحظاه. إذ إن اختيار الصمت لا يعني كبح العين. تلك كانت النافذة الوحيدة التي يسمح لها بالتجوّل بين أولئك الذين لا يجرؤ اللسان على النطق أمامهم. يتجوّل بحذر ثعلب، بقوة عيني صقر،

خاصة إذا كان يراقب النساء، ومنهن نجوى. سوف يذكر لها في ما بعد كل التفاصيل التي لا تعرفها عن ساقيها مثلاً، نمشة نمشة، أو يعدّد لها المرات التي نظّفت فيها ساقيها من الشعر، سوف يحسب لها أيضاً كم عدد الوبر الذي لم تستطع عجينة السكّر أن تنتزعه، لون التنّورات التي تلبسها واحدة واحدة، عدد الثقوب الصغيرة في جوربيها، مما سوف يجعلها تشهق من الرعب والخدر والشهوة.

وهكذا مضت أكثر من أربعة أشهر دون أن يتبادل الثلاثة أكثر من صباح الخير، أو مهام العمل الأخرى. ولكن المرأتان أدركتا قيمة وجود الصنم يوم تغيّب في أول إجازة. لم تشعر كل منهما أن الطاولة التي يجلس إليها حاتم كانت فارغة، بل جوفاء. كأن وجوده الصامت كان ضرورة لحياة مستقرة. بل إن المرأتين بكتا في اليوم الثاني شوقاً إليه. وراحت نجوى تعدّد مناقبه كما لو كان قد صار في عداد الأموات. وبسبب الشوق على الأرجح ذهبت إلى الديوان كي تعرف متى تنتهي إجازته متذرّعة بطابور الملفات التي أهملها. وعادت وهي تشهق من الغضب لأن أحد الموظّفين شتم الغائب واصفاً إيّاه بالسماجة. أنكرت وفاء التهمة أيضاً.

سوف يعود من إجازته، وسوف يجد في انتظاره ترحيباً مدعّماً بقطعة حلوى، قال لي إنها كانت كعكة بيتية محشوّة بالتمر.

بعد ذلك بعدة أيام وجدا نفسيهما (حاتم ونجوى) فجأة يحاولان الخروج من الغرفة معاً. وعندئذ اصطدما عند الباب، حاولت نجوى التراجع في اللحظة ذاتها التي تراجع فيها حاتم، فأعادا الاصطدام أيضاً، وعندئذٍ سارع حاتم محاولاً أن يخرج قبلها، في حين فكّرت هي أيضاً بذلك، وعندما اصطدما للمرة الثالثة، ماذا يمكن أن يفعل أيّ شخص أو أيّ شخصين في مثل هذه الحالة؟ بالنظر لطباع حاتم فقد كان عليه أن يعتذر

ويتوقّف عن أي حركة، وبالنسبة لطباع نجوى فإن المتوقّع هو أن تضحك، وهو ما سارعت لفعله. لقد تخيّلت أنها تصطدم بصنم. أضحكتها القصة كما قد ترويها لوفاء، غير أن ما لم يكن في الحسبان هو أن يضحك حاتم، أن يضحك الصنم. وبفضل المصادفات ضحكا معاً. جرّ الضحك ضحكاً آخر. وحين نظر كل منهما في وجه الآخر ازداد ضحكهما. قهقها بجنون، كأنما كانا وحيدين في هذا العالم. وقالت له في ما بعد إنها في تلك اللحظة اكتشفت كم كانت تحبه، وقال لها إنه في تلك اللحظة عرف أنه يحبها. كان الضحك مفتاحاً.

أمضى ذلك النهار كله يفكّر بها، لم يستطع أن يتخلّص من الصورة المتحرّكة التي ظلّت مطبوعة في مخيّلته: تقدُّم، تراجع، ثم اصطدام. كانت يده قد حفّت بجانب ثديها في لحظة الاصطدام، ولكن الخجل والخوف والارتباك أفسدوا معناها. لكن الأمر تبدّل في لحظات الاستعادة: نعومة اللمسة، وطراوة الثدي، وامتلاؤه، وصوت اليد وهي تحفّ بالقماش العازل. كل ذلك تأجّج في مخيّلته مقدِّماً امرأة خيال ساحرة. لم يستطع إخفاء اضطرابه، وهو اضطراب تختلط فيه اللذة بالفرح بالخوف والقلق من أن تكون نجوى قد ظنّت أنه تعمّد لمس نهدها في تلك اللحظة.

لا بالطبع، كان محتاجاً إلى أن يرى ما يحدث على ضفتها. على الرغم من كل التبكيت الذي مارسته، بكلّ ما تستطيع من قوة أخلاقية ونفسية، لكبح السعادة التي اعتبرتها مشبوهة ومعيبة، فإن محاولاتها كانت تتداعى وتنهار أمام الحقيقة التي تندفع من الأعماق. إذ لم يعد حاتم يغيب عن المخيّلة، تراه في القميص وفي الثوب وفي صحن الطعام وفي الوسادة. اعتقدت في البداية أنها مجرد أوهام ناجمة عن مشاهدة أفلام السينما العاطفية التي كانت تواظب على ارتيادها، مصري أو هندي، اعتقدت أنه

يشبه شكري سرحان مرة أو رشدي أباظة، ثم اكتشفت أنه لا يشبههما البتة، وأنه أكثر وسامة وجاذبية، وأن مشاعرها لا تأتي من الصالة المظلمة، بل من فتحة الباب المضيئة.

ولم تكن في أي لحظة قد فكّرت قطّ بالمحرّم، نسيت أنها متزوّجة، وحين كانت ترى زوجها يتنقّل في أرجاء الشقة، تعتقد أنه مجرد شخص تعرفه، أو زميل أو رفيق درب، وحين تعود إلى الواقع كانت تحسّ أنها سوف تختنق، وأن العالم من حولها ضيق ومعصور مثل خرقة. ثم بدأت تعتقد أنها تجنّ، فمثل هذه المشاغل لم تجد في أيّ يوم طريقاً إلى عقلها، ولا عرفت من أين تأتي في الأصل، أو كيف يدبّرها عقلها أو خيالها. ولامت نفسها أكثر من مرة على الاستهتار الفاضح الأحمق المجنون بالقيم التي آمنت بها.. لم تكن العلاقة بينها وبين زوجها سيّئة، كانت علاقة زوجين عاديين طيبين، لم تكن جامدة ولا متحرّكة. لم تكن هي التي اختارته، ولكنها وافقت على الاقتران به، وعاشا معاً. لم تكن بينهما أي مشاكل، ولكن لم تكن بينهما أيّ علاقة مثيرة يمكن استعادتها، أو التغنّي بها. لا يفطن الأزواج عادة إلى العادي المهمل في الحياة إلا حين يظهر المدهش. هذا ما حدث. فمشاعر نجوى التي ألهبها التلامس المباغت بحاتم، والانكشاف المفاجئ لمشاعرها تجاهه أمام نفسها، أظهر حقيقة الرجل الآخر الذي تقطن معه في بيتٍ واحد.

فمنذ اليوم التالي على حادثة الباب، تبدّل كل من حاتم ونجوى، هكذا اعتقدا، بينما كانت الحقيقة تقول إنهما عرفا من هما. كان حاتم الآخر ذلك اليوم، قد حلق ذقنه، ومشّط شعره، وارتدى أفضل ما عنده من ملابس، ومسح حذاءه، وتطلّع إلى وجهه في المرآة خمس مرات قبل أن يخرج من بيته. وحين دخل إلى المكتب، فاحت رائحة عطر قوي كان قد اشتراه من أمام الجامع الأموي في دمشق قبل أشهر، بحيث لم يكن بوسع

المرأتين إلا أن ترفعا رأسيهما وتنظرا إلى تلك الناحية التي يفوح منها العطر. في العادة كانت نجوى تعلن نفورها من تلك العطور الثقيلة التي يبيعها الجوّالون أو باعة العربات أمام الجامع الأموي، خاصة أن المئات ممن يزورون ضريح النبي يحيى من أهالي المنطقة، يشترون عطورهم من هناك، فلم تكن نجوى تحتاج إلى من يقول لها ما نوع ذلك العطر، فقد عصف برأسها الصداع المشهور الذي كانت تطلق عليه اسم صداع عطر الحميدية. ولكن لم يخطر ببالها غير الضحك، بل إن وفاء ضحكت أيضاً، فقد بدا حاتم متبجحاً بعطره الثقيل المباغت، متعجرفاً بهندامه الفاسد، إذ إن قلّة التجربة، والزمن الطويل الذي أمضاه داخل شرنقة الوقت الضائع من الحياة الرتيبة، جعلاه شبه أمي جاهل في مسائل الهندام. (سوف تقول له إنها شعرت بالفرح لأن زوجته لم تنتبه لذلك).

لم تخفِ المرأتان ضحكاتهما، وقالت له نجوى إن لون البنطلون البني لا يتناسب مع القميص الرمادي. قالت إنه يجب أن يرتدي قميصه الأبيض. ثم عضّت شفتها، وقد اصطادت نفسها، قبل أن تصطادها وفاء، وهي تتذكّر أن لديه قميصاً أبيض. وقالت لحاتم في ما بعد إنها لم تفكّر لحظة واحدة في العواقب التي يمكن أن تترتّب على تدخّل من هذا النوع في الحياة الشخصية لآخر. قالت إنها اعتبرت أن الأمر يخصّها هي لا زوجته، ولا وفاء، ولا أيّ امرأة أخرى في العالم.

لكنّه لم يكن قد انتبه إلى مستوى التدخّل، أو إلى طبيعته. وشعر بالخجل من المعايير المستعجلة التي وضعها للغزل، فقد فضحت انعدام الخبرة لديه. لم يكن هذا يهمّه من قبل قطّ، ولم تكن تعنيه تجارب الشبّان من أصحابه حين يروون مغامراتهم. صحيح أنها كانت لذيذة، ومضحكة، وفيها الكثير من الخيال الجامح، أو الحقائق المتبّلة بالخيال، لكنها لم تكن

تشغل باله. ينساها حالاً، كما لو كانت مجرد قطعة من الحلوى التي يمكن نسيانها بعد أول شربة ماء. وفي كثير من المرات كان يوجّه لوماً أخلاقياً صارماً لرفاقه من المتزوّجين الذين يتشدّقون بمغامرة، أو يخططون لأخرى، وكان نقده يتناول الجانبين الروحي والجسدي لدى أولئك الأصدقاء، رغم أن الصرامة والحزم كانا يركّزان على تلافي الانحطاط الروحي، وضبط الرغائب الجسدية، أو كبحها وإسكاتها.

وطوال السنتين اللتين مضتا من عمر زواجه لم يرَ امرأة بعين الرغبة قطّ. ولم يكن للدين أيّ علاقة بذلك، إذ لم يكن متديّناً البتّة، وكان يشرب العرق في المناسبات، ويسمع النكات البذيئة، ويقهقه لها، ويتمنى لو كان يستطيع أن يحفظها ليعيدها أمام مجموعة أصدقاء لا تعرفها، وكل ذلك لغايات بريئة تماماً من الهوس الجنسي المرافق لمثل تلك المحفوظات لدى بعض الرجال الذين يعرفهم.

ولكن كل هذه المواقف اختفت وتلاشت في ذلك اليوم. لم يتحرّر منها، ولم يتحلّل من ارتباطه بأي مبدأ. لا. لقد نسيها جميعاً ببساطة. كأن ولادته قد حدثت بالأمس أمام باب غرفة المكتب، وعلى حافة الثوب الذي يضمّ ثدي نجوى. حدث إذاً تفكير معكوس قادر على قلب المفاهيم التي يعتنقها، وهو يحدث دون تخطيط، أو دون أن يكون له أثر فاجع لدى شخصية متمسّكة بثوابت التقاليد مثل حاتم. ولمّا جلس على كرسيه، كان قد قطع الشوط الطويل الفاصل بين حياتين. كانت نجوى الآن مركز اهتمام عينيه. لم يعد يرى السجل الذي بين يديه حتى إنه كتب اسم أحد المراجعين خطأ: «اسمي شاهر مش ساهر» قال الشاب الواقف أمام الطاولة. «صحيح، متأسف!» قال برويّة محاولاً أن يخفّض طبقة الصوت إلى حدوده الدنيا، ومن حسن الحظ أن التصحيح لا يحتاج إلى المحو، أو إلى كتابة ملاحظة بالقلم الأحمر.

وباعتبار أن نجوى تحضر معها كتباً للقراءة، وهو لم يرَ عنوان أيّ كتاب لأنها كانت تغلّفها بجريدة كي لا تتلف الغلاف، فإن بحثه ابتدأ من ذلك اليوم عن الكتب. كانت معضلة بالطبع، بالنسبة لشخص لم تكن القراءة أو المطالعة (كما كان المدرّسون يحبذون الدعاية لها) من اهتماماته. بل إنه كان يعجب من أولئك الذين يستطيعون أن يجلسوا ساعات طويلة أو قصيرة وهم يتابعون ما كتبه آخرون، أو أن يدفعوا جزءاً من دخلهم الشهري الضئيل لشراء كتاب أو أكثر. وربما كانت كراهيته للكتاب ناجمة عن ذلك الغضب الداخلي المتأجج في أعماقه من نجوى التي تستفزّه بتلك الهوايات المقلقة. لماذا؟ ما الهدف؟ وحتى ذلك اليوم من النقاش الحامي بينه وبين نفسه كان انشغاله بالكتب مجرّداً من المضمون. لم يكن بباله أن يقرأ أي كتاب، فهو لا يعرف ماذا يقرأ، ولم يكن من اللائق أن يسأل نجوى وإن كان في السؤال فرصة لتبادل الحديث، عن القراءة. لقد شعر من البداية أنها تسبقه في هذا الشوط، وأن عليه أن يركض في المضمار دون مساعدتها.

في الأيام التالية تذكّر مكتبة السماقيات، وراح يروي لنجوى ووفاء قصتها. وبفضل العناصر المشوّقة التي تحتويها القصة، فقد ذُهلت المرأتان من التفاصيل. يوماً بعد آخر كانت سيرة المكتبة تزيد قرب نجوى من حاتم، فلم يعد يشغله أمر في الدنيا قدر أمر المكتبة، وحكاية المكتبة، وماذا حدث هناك. وحتى ذلك الوقت لم تعنه الكتب التي ضاعت قطّ، بل كيف ضاعت، فضياع الكتب بات أمراً منتهياً محسوماً، ولكن مغامرة ضياعها هي التي تشدّ انتباه نجوى وقابلية الاستماع لحكاياته. وبهذا الدافع عاد للانخراط في الحكاية. الحقيقة هي أنه شعر بالخجل حين كانتا تسألان وتستفسران عن بعض المجريات، واضطر، كي لا يبدو جاهلاً، للزعم أنه

يُغفل بعض تلك الأمور بسبب النسيان. كان يؤجّل الأجوبة كي يجدها لدى من يمكن أن يصل إليه من أبناء السماقيات الذين تركوا البلدة ورحلوا إلى المدينة في موجة التوظيف التي افتتحها حزب البعث كي يغري الناس بالانتساب إلى صفوفه. غير أنه لم يأت إلى بيتنا ولا مرة، وإنما استعان بلقمان لقمان، وكان كريم الزهر يعمل في وزارة العدل في دمشق. ماذا قال له لقمان؟ الغريب أنه قدّم له كل ما يعرف عن المكتبة، وأرسله إلى فاروق التاجي. وبينما كان قد أنكر وجودها تماماً في تحقيقات الشرطة وضبوطها، كان فاروق متحفّظاً. أبدى برودا سمجاً في حثّ ذاكرته، حكَّ رأسه، وهو يخلع الحطّة البيضاء والعقال ويعيدهما غير مرتّبين. أعرف حركات فاروق الهوجاء، طريقته في إحباط السائل، أو تعطيل المحادثات. غير أنه لم يكن يعلم ما هو الدافع الذي جعل حاتم ينقّب في تاريخ المكتبة وماضي السماقيات، وهو دافع لا يمكن كبحه أو ردعه. إنه الحب. ولهذا بدت استفساراته الموجّهة إلى حاتم عجفاء جوفاء بلا طائل. لم يرتدع الشاب عن أسئلته، وخاصة أن فاروق التاجي كان زوج عمته، وبسبب عمله الجديد سائقاً في مديرية التربية، فقد استأجر غرفتين في حيّ الخضر، وأحضر زوجته معه. ولكنه ظلَّ متكتّماً وخائفاً من عواقب فتح القضية على شغله الجديد.

وبينما كانت الحكايات لا تكتمل لديه، كانت نجوى قد أضحت متطلّبة أكثر فأكثر، وهي تريد أن تعرف مصائر الكتب، وقصة المكتبة، وعلاقة البشر بها. فتسأل عن كل كلمة أو كل تفصيل أو كل معلومة، وتطلب الاستفسار عن الغائب من بينها. ولكن من أين يأتي لها بكلّ تلك المعلومات بينما كان مصدره يتكتّم ويأبى أن يقدّم له التفاصيل؟ وهو لا يجرؤ أن يقول لنجوى شيئاً عن المصدر، أي عن فاروق التاجي.

وفي ذلك الوقت كان التبادل العاطفي يكبر بينهما. وقد بدأت به نجوى نفسها، حين أحضرت في أحد الأيام لحاتم حصّة من «العرائس» التي كانت تتناوب على لفّها وإحضارها إلى المكتب هي ووفاء من أجل تناول طعام الفطور الصباحي. كانت مفاجأة له. أدهشه أن يكون محل انشغال المرأة أثناء الغياب، وبقدر ما كانت اللقمة سائغة ولذيذة، كانت حواشي التفكير المحيطة بها أكثر لذّة، فسعادته بالفكرة نفسها هي التي كانت تحرّك شهيته، وطربه بأنه بات يشغل خيال هذه المرأة الفاتنة، وكانت الخلطة التي حُشيت بها العروس مناسبة للكلام عن فوائد الزيتون، والخضار، والزعتر، خاصة أن الكلام في السياسة بدأ يشكّل خطراً في ظلّ الصراع على السلطة بين الضباط الذين يقودون البلاد. لم تكن ثمة حاجة لدى أيّ من الموظّفين الثلاثة في الغرفة لتذكير الآخرين بضرورة تجاهل ما يحدث وحسب، بل كان كل منهم يدرك أن أيّ انحياز غير مدروس أو غير منظّم أو غير عقلاني مع ضابط ضد ضابط آخر قد يكون مدمّراً في حال خسارة من ينتصر له. وقد أثمر الصمت عن زيادة اهتمام كل منهما بالآخر، صار همّ حاتم أن يصطف إلى جانب نجوى في الدفاع عن التبّولة في مواجهة تقريظ وفاء المبالغ به للفتّوش. وصار همّ حاتم أن يعلن أن يخنة الفاصولياء، التي تعشقها نجوى، هي أهم طبخة في التاريخ. وهكذا بدأ الانقسام الأول بين رفاق الغرفة حول الفاصولياء والتبّولة والفتّوش بدلاً من الانقسام حول اليمين واليسار والوسط. وبفضل التأييد الذي نالته نجوى، أعدّت تبّولة في البيت وأحضرتها إلى الدائرة. وفي السر، بينما كانت الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر، وهي ساعة الراحة من المراجعين، تشارك الثلاثة في الأكل.

في ذلك اليوم امتلأ حاتم بنجوى. أطعمته بيدها قطعة خسّ محشوّة بالتبولة، وفي تلك الحركة الخفيفة السريعة لامست أصابعها شفتيه. كانت

دافئة ناعمة وممتلئة بالرغبة. لا يمكن إضاعة هذه الأحاسيس أو الخطأ بنوعيتها، وخاصة أنها حين كرّرت العطاء مرة ثانية، تعمّدت أن تحشو ثلاثة أصابع داخل فمه، وتديرها بحركة شبق مسحت فيها لسانه ومقدّمة أسنانه. الحركة التالية التي أقدم عليها كانت عفوية ونابعة من ردّ فعل لا إرادي حين مسّ بسنَّيه الأماميين سلامياتها الطرية، فهمست: «آي» معبّأة بأنين الشهوة الخفيّة.

لم يكن لوجود وفاء أي تأثير كابح أو معطّل، وسوف يعلم في ما بعد أن المرأتين كانتا قد أمضتا أياماً في إعداد المواقف لجرّه إلى التخلّي عن تردّده وخوفه. فيما كانتا متأكّدتين، ونجوى أكثر يقيناً، من أنه صار عاشقاً.

خرجت وفاء إلى الباب، فتحته ووقفت في وسطه وراحت تراقب الكوريدور الخالي. بينما اقتربت نجوى من حاتم وقبّلت شفتيه، وقالت وهي تأخذ الهواء من الفضاء: «معش قدرت!».

غير أن الحب الحميم الذي ربط بين قلبيهما زاد في عبء السؤال عن المكتبة. لم يعد ممكناً أن يتراجع أو ينكص أمامها، صارت حبه ومصيدته، وقد باتت تسأله عنها بعد كل مضاجعة. إذ سوف تبدأ بعد أن يمارسا الحب، ويظلّا مستلقيين على الفراش عاريين. تلتصق به، وتقول له وهي تضع ساقاً فوق أخرى: «إي احكيلي بعد!». وكانت تعرف اللحظة التي انتهى الكلام عندها، حتى لو كانت تفصل بين الحكاية والأخرى أسابيع، أي بحسب قدرتهما على اللقاء.

حين ضغط على فاروق التاجي كي يسرد له قصةً ما عن الكتب، أو يدلّه على واحد يمكن أن يبيعه كتاباً من المكتبة، أقرّ بأن لديه واحداً منها. كانت المجموعة الثانية من قصص تشيخوف، وقد ظلّت عنده لأن فوزي النجار رفض أن يشتري الجزء الثاني دون أن يضمن وصول الجزء الأول من المجموعة. غير أنه كان مختفياً تماماً. وبات الكتاب عبئاً ثقيلاً على كاهل

فاروق، فالسمسار الذي لم يعتد أن يظلّ أيّ كتاب لديه في البيت أكثر من ليلة، صار يحملق في الكتاب مرتعداً من الانكشاف أمام لطفي الجمل. فلا من أعطاه إيّاه قَبِل أن يستردّه، ولا النجار رضي أن يودعه لديه أمانة ريثما يجد شقيقه الأكبر. وهكذا بدا إقراره لحاتم فرَجاً بينما كان له رحمة.

كان هذا هو الكتاب الأول، والأخير، الذي يحصل عليه من إرث المكتبة، وقد اشتراه بعشرين ليرة، وهو مبلغ طائل يكاد يعادل أجرة بيته لمدة شهر. ولكن تشيخوف بدا عزيزاً.. وإذا كان قد سمع باسمه، مثلما سمع بأسماء مشاهير آخرين، فقد حصل ذلك بسبب تداول أسمائهم بين الناس، شكسبير مثلاً، أو سقراط الذي تبرّع أحد المستثمرين وسمّى مطعماً صغيراً باسمه، أو أفلاطون، أو غيرهم، لكنّه لم يقرأ نصّاً لأحدهم. وحين وصل كتاب تشيخوف لم يقرأه أيضاً. كان مشغولاً بتأمل الكتاب لنقل الصورة إلى نجوى، وكان يملك الوقت الكافي لذلك. أذكر الغلاف الكرتوني الأخضر السميك الذي كان يغلّف النسخة التي اشتريناها من مكتبة دار اليقظة العربية في دمشق، وقد أضحت حين رأيتها بين يدي حاتم جرداء باهتة، بينما أُتلف الغراء الذي يلصق الغلاف بالورق. يحاول حاتم أن يصف لي مشاعره حين سلّمه فاروق التاجي النسخة، لم يصدّق أنه يحملها في طريق العودة، وحثّ خطاه إلى بيته، آملاً أن يصل قبل أن يلتقي بأيّ شخص من معارفه، وخاصة أولئك الموظّفين من زملائه في الدائرة، ممن اعتادوا أن يستفسروا: «ماذا تحمل في يدك؟ كتاب؟ وما هذا الكتاب؟ تشيخوف؟ ومن هذا؟»، وثرثرات من هذا الطراز قد تصبح في اليوم التالي نُكَتاً للموظّفين.

قرأ المقدّمة التي كتبها تشيخوف عن نفسه: أنطون بافلوفتش تشيخوف. حياته بقلمه. وعرف القليل عن الكاتب الروسي، وأُعجب بكلامه، ونقل

إعجابه إلى نجوى، فقالت إنها تعرفه دون أن تقرأ له شيئاً. وكانت هذه مناسبة طيبة لدفع العجلة إلى الأمام في مجال المعرفة: ها هو ذا يمتلك شيئاً خاصاً به يمكنه تقديمه لنجوى قرباناً للحب. ها هو ذا يستطيع أن يقدّم لها المعرفة إلى جانب الخبر. وهكذا روى لها بالتفصيل ما كتبه تشيخوف عن نفسه، واتفقا على أن الطب يستطيع بالفعل أن يساعد القصة، ولكن ما هي القصص؟ لم يقرأ الكتاب دفعة واحدة، بل قرأه بحسب أوقات الحب، وخاصة أن القصة الأولى فيه قد ألهمته ذلك. فالبيت ذو الجناح المتوسط كان مستلّاً من الأحلام. فكّر أنه حين كان صغيراً كان يرسم على الورق بيتاً بشرفة محلّاة بالورود. بيتاً لم يرَه قطّ. بيت خيال. بيتاً شبيهاً بالبيت الذي عاش فيه بطل القصة علاقة الحب الحزينة. وحكى لنجوى القصة فصلاً بعد آخر. كانت الحكاية تبدو أكثر قرباً وليونة وعذوبة وتألقاً كلّما تقدّم في الحكي، وبفضل ذاكرته الخارقة التي اكتشفها في تلك الأيام، فإنه كان قادراً على حفظ الفصول واستعادتها كاملة. صار يقرأ من الغيب، ويحكي ما يقرأه لها.

تقول: «أنا أظن أنه سيحبّ ليديا» مرة، ثم تبدّل رأيها في مرة أخرى وتقول: «لا، سيحبّ جينيا طبعاً»، بينما كان يسرد لها الحكاية فصلاً بعد آخر، وحين انتهى من السرد، وأوقف القصة، بكت. وهمست وهي تضع رأسها بين يديها: «يا الله!». ولكنها كانت غاضبة للغاية في ما بعد من سلوك ليديا تجاه أختها، وتجاه السيد نون، ولم تقبل أن يكون الخلاف الفكري بينها وبين نون سبباً في تخريب الحب. قالت إن الأفكار تُلحق الظلم بالعواطف الإنسانية، وإن كل الخير الذي كانت تقدّمه ليديا بات بلا قيمة، لأنها ارتكبت شراً فظيعاً لا يغتفر حين فصلت شقيقتها الصغرى عن حبيبها بسبب أفكارها هي وأفكاره المتضاربة. «يلعن الأفكار!» قالت.

كان عليّ أن أوقف الكلام في تلك اللحظة فقد بدا حاتم متعباً وشاحباً

للغاية، غير أنه سألني إذا ما كنت أريد أن أعرف لماذا وصل الكتاب إليه؟ «بالطبع» هتفت، فقد بدأت أهوى العجائب والأقدار، وكانت كل هذه المواضيع سبب مجيئي إليه. قال إن القدر كان ينتظرهما، وإنه ساهم بقوة في ترتيب الحب بينه وبين نجوى منذ البداية. فحادثة الاصطدام عند الباب لم تكن مجرد مصادفة عشوائية، بل تقدير مدبّر، إذ كيف ولماذا يحدث ألّا يعرف موظّفان يزاولان عملهما منذ سنتين في الغرفة نفسها كيفية الخروج من بابها؟ موقف سخيف للغاية ولكنه مقدّس... وبدا له وصول تشيخوف في تلك المرحلة جزءاً من هذا التدبير القدري، دون أن يدرك فحواه تماماً إلا في النهاية، فالكاتب الروسي الحزين الذي لم يستطع إنهاء قصة سعيدة واحدة في الكتاب، كان نذير حياة سعيدة له، وما النهاية التي آلت إليها قصة حبه غير تأكيد حاسم لتلك السعادة. سعادة أن يبقى الحب إلى الأبد. ولكن نجوى ماتت! قلت له وأنا أظن أنني أوقظه من حلم، أو من وهم، لكنه قال: بالضبط. هذا ما أقوله.

وخلال سنتين ونصف ظلّت العلاقة بينهما سرية تماماً، لم يلاحظ أي موظّف في الدائرة أن شيئاً قد تغيّر في وضعهما الثنائي. يخرج وحيداً متأبطاً حقيبته البنية أولاً، ثم تخرج نجوى ووفاء معاً، وقد يحدث العكس أحياناً. ثم يذهب هو في اتجاه المدينة القديمة، حيث يسكن بجانب المشنقة، بينما تفترق المرأتان في ساحة السرايا، فتمضي وفاء نحو الأحراج، حيث تقطن وحيدة في البيت الذي آل إليها من والديها بعد وفاتهما، ورحيل أخيها إلى نيجيريا. فيما تذهب نجوى إلى بيتها في حيّ البيضاء. رحلات مكوكية يومية لموظّفين روتينيين لا ينتبه لها أحد مثل كل الموظّفين في العالم. ذلك أن مدينة صغيرة تحكمها علاقات القرابة، والوجود العائلي الحميم، كانت قادرة على كشف أي دنس يمكن أن يخلخل ثباتها. مدينة تراقب الداخل والخارج.

غير أنهما استطاعا خداع المدينة، كانا أكثر مكراً منها. قال لي حاتم إن الحب قادر على اختراق الممنوع. أتعلم؟ إن قصص الحب تعدّ بالآلاف، وقد تستطيع قوى الشر أن تخنق واحدة أو اثنتين من بينها، لهذا تجد أن المقتولين من بين المحبّين يشتهرون. أما البقية فينجون بحبّهم. كم عددهم؟ لا أحد يعرف بتاتاً، لأنهم يستمرون ويعيشون في حبهم. هذه هي حقيقة البشرية. أما الحكايات فهي للعبرة. أغلب الظن أن الذين يرتكبون الجريمة يحاولون تسويقها.

لكن هذا كلّه لم يكن ممكناً دون مساعدة الحارسة.

كان يسمّي وفاء الحارسة، سمّاها مرة أمامي: حارسة الماعز!

حارسة الماعز؟ فبينما كانا يمرحان معاً كالماعز في غرفة نومها (هل كانت تسمع ضجيج جسديهما الفتيين في اللحظات الحميمة؟) كانت هي تحرسهما... غطّت تلك المرأة كل الفجوات التي تختفي فيها نجوى، وكانت تتمكّن دائماً، طوال سنتين من علاقتهما من إيجاد الذرائع الكافية كي تنقذ نجوى من أسئلة زوجها، وظنونه فيما لو حدث ذلك، كانا يواظبان على اللقاء في بيتها. وقد ضمنت الأدغال لهما حماية أخرى، فقد كان بوسع حاتم أن يتسلّل من أيّ اتجاه، ثم ينسلّ إلى البيت المسوّر بأشجار البلوط، أو يخرج منه بالطريقة ذاتها. وبينما هي تطبخ أو تنجز أعمال المنزل، يمارسان الحب، أو يحكيان القصص، وفي الغالب كان هو من يحكي. وكانت نجوى المستمعة الدؤوبة التي لا تملّ. وبفضل تشيخوف وحده استطاع أن يغطي سنتين من الحب. فاللقاءات التي كانت تتم بينهما كل عشرين يوماً أو كل شهر، كانت تمنحه وقتاً لتوزيع القصص على الزمن.

فجأةً اختفى حاتم. لم يأتِ إلى المكتب ذلك اليوم. لم تعرف نجوى السبب، وحين سألت عنه المسؤول في الدائرة، قال لها إنه لم يخبر أحداً

بسبب غيابه. ولم يكن موجوداً في البيت حين ذهبت المرأتان معاً للسؤال عنه. كانت زوجته هناك حائرة أيضاً. لم يحدث من قبل مثل هذا الغياب، ولكن النساء الثلاثة ما كُنّ يعرفن أنه كان يقبع قريباً منهن في قبو المخابرات العسكرية.

كان التوقيت خاطئاً، والزيارة قاتلة. قال لي.

كنت أريد الجزء الأول، قال لي، وقد سمع من التاجي نفسه بعد مرور أكثر من سنتين أن الكتاب موجود لدى محمود أبو ورق. لم يكن يعرف شيئاً عن خيارات أبو ورق السياسية. ولم يكن الأمر يهمّه قطعاً، فكلّ ما يريد أن يفعله هو مجرّد زيارة ودّية تتضمن ذلك الطلب الحميم الذي يريده.

وقال لي هامساً، بعد أن تأكّد بحركة عفوية مذعورة من خلوّ المكان، إنه لم يكن مع هذا ولا مع ذاك، كان مع حبّه فقط، مع تلك المرأة البديعة المحبّة فقط. وكان كلّ ما يقوله للمحقّقين إنه جاء لاستعارة الكتاب، أو شرائه. وكان مجرّد تلفّظه باسم الكاتب الروسي يثير غضبهم، وجنونهم. إذ لم تُفهم العبارة البتّة، وربما حُسبت لغزاً سرّياً، أو مجرّد استهبال، أو رمزاً ما. وبالرغم من أن أبو ورق لم يكن شيوعياً، ولا يسارياً، فإن الاسم الروسي الغامض أثار غضب الجميع.

أمضى سنتين في السجن بسبب خطأ ارتكبه موظّف في المخابرات، إذ لم يثبت قطّ أنه كان عضواً في تنظيم أبو ورق الموالي لجناح آخر في حزب البعث لا يناصر الحكم الجديد، ولم يكن سياسياً من قبل، وكانت القصة التي يقدّمها صحيحة بالفعل. لقد جاء يستعير قصص تشيخوف.

ماتت نجوى في غيابه.

***

المصادفات الصغيرة هي التي قادته إلى هناك، فمنذ أن بدأ البحث عن المكتبة صارت تتكرر زياراته إلى السماقيات. مكرهٌ أخاك لا بطل. صار يقول لمن يسأله. كان يكره السماقيات. أعتقد أن تلك الكراهية كانت علامة جيلٍ كامل، إذ ليس حاتم وحده من هاجر من البلدة بسبب الكراهية، بل معظم الشبّان القادرين على العمل. منهم من استطاع الوصول إلى الوظيفة الحكومية (أسأل هنا عن دور لطفي الجمل)، ومنهم من راح إلى الأعمال اليدوية، أو إلى المتاجر، أو إلى أعمال البناء. ولكنه لم يكشف السبب أمام أحد. كان يأتي يوم الخميس بعد الظهر، ويبقى حتى يوم السبت وحيداً، بحجة العناية بالدار القديمة. في تلك السنوات كان لطفي الجمل قد نسي موضوع المكتبة تقريباً، وقد نُسيت أيضاً جريمة قتل فارس أبو لوز، إذ لم تستطع المحكمة أن تجد أيّ دليل ضد المجموعة التي اتهمتها والدتُه بقتله، وبُرِّئ الجميع.

كان بوسع حاتم أن يبحث عن الكتب دون أن يكون محمّلاً بأيّ تبعات. بينما لم أكن أستطيع القيام بحملة مماثلة دون أن يرفع لطفي الجمل منظاره البوليسي ويراقبني. هكذا كان الحب طريقاً إلى كشف ذلك الغموض الذي اكتنف ضياع الكتب. فالقرار الذي اتخذه لطفي الجمل بالتخلّص من المكتبة، لم يكن يتضمن حمايتها، كان مجرّداً من الشرح. قرار حاف ناشف يأمر بإبادة المكتبة. وقد اعتبر الجمل أن المكتبة إرث من الماضي، رجسٌ غامض، كمية كبيرة زائدة من الحبر، لكن أيّ ماضٍ؟ لا يهمّ، كان قد فهم أن عليه أن ينظّف المكان من كل الشوائب التي يمكن أن تتسبب بتعطيل الثورة أو عرقلتها. ولم يكبّد نفسه أيّ جهد من أجل أن يعرف ماذا ولماذا. يجب أن يكنس الدكّان. ولم يحتَرْ كثيراً في تحديد طبيعة المكانس أو نوعها، إنهم هم أولئك الذين اشتروا المكتبة ذات يوم، وربما قرؤوا فيها أو لم يقرؤوا، إنهم هم أولئك الذين كانوا مجتمعين للتفكير في بناء

سدّ لتخزين المياه، أو شقّ طريق لجلب الحصاد إلى البيادر. إنهم هم. ولهذا كانت أوامره لهم هم، وليس لأيّ واحد من أتباعه في الحزب. لم يقل لهم دمِّروا المكتبة مثلاً، ولا أحرِقوها، ولم يقل إنها لم تعد صالحة لهذا الزمان. أراد أن يجرّب فيهم سلالة الأوامر والقرارات الجديدة التي بدأت تأتي من فوق. ولكن أحداً لم يذهب إلى هناك، وذهبت كلماته إلى فراغ معتم لا يُرى فيه أحد.

أما الاندفاعة الأولى التي اقتحمت المكتبة، فكانت من أتباعه. يعرف لقمان أسماءهم واحداً واحداً، وقد أعطى اللائحة لحاتم راضياً. لماذا؟ لماذا أعطاني لائحة أسماء أخرى مختلفة تماماً؟ ولقمان كذّاب. لقمان مخاتل. مزوّر حقائق كما صار، ولكني أريد أن أعرف بكم يريد أن يبيع أولئك الذين أعطاني أسماءهم؟ بطحة عرق لا تكفي.

لا يهمّ كثيراً فكلتاهما لا تتضمن الحقيقة. وربما كان ذلك الرجل يريد أن يضعها في دهليز، أن يضيّعها بين الأوراق. ماذا حدث هناك؟ كان فارس قد علم أن رجال لطفي سوف يدمّرون المكتبة، لا نعرف من الذي أخبره بذلك، وربما كان أحد الأفراد التابعين للطفي، إذ أرادوا تنفيذ عملهم دون عوائق. غير أن فارس ذهب إلى هناك، وفتح أبوابها آملاً أن تكون الحركة كافية لإشعار الجناة أنهم لا يستطيعون اقتحامها. ربما أراد إيهامهم أن في الداخل أشخاصاً آخرين غيره.

جرى كل شيء بطريقة أخرى، لم يكن فارس أبو لوز المسكين يدري شيئاً عن الأسلوب الجديد المقترح من قبل لطفي الجمل لمواجهة تكاليف الحياة. لم يكن جاهزاً لمواجهة الحقائق المختلفة التي يقدّمها لطفي للبلدة. هكذا قال لقمان لحاتم، هذا هو التصريح الصريح الذي ذكره، حقائق في الحياة العامة لم تكن موجودة من قبل بهذا القدر من الحضور والوضوح.

كان فارس لا يزال يعيش في أمان المكتبة التي ظلّت تزوّد من يحب أن يقرأ بالكتب. صحيح أن عدد القرّاء كان يقلّ، أو كان قد قلَّ وتباطأ، ولكنّهم ظلّوا موجودين، وظلَّ فارس يعتقد أن وجوده وحده يحمي المكتبة. هل كنت تعرف أنت؟ سأل حاتم لقمان. كان غاضباً ومقهوراً هذه المرّة، وهو أمر شديد الغرابة من شاب لا يعرف الكتب، ولم يلحق الوصول إلى المكتبة الميتة. هل كنت تعرف أن الزمن قد تغيّر وانكسر ومات بوصول لطفي الجمل يا لقمان؟

كان لطفي قد علم أن فارس ينام في المكتبة، وقد أجّل أمر التنفيذ مراراً. غير أنه، بحسّه القتالي، راح يسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعل. هل يبدأ زمنه برمي ذلك الرجل في الزقاق؟ هل يتقدّم ويحشره بين رفٍّ ورفّ ويهيل الكتب عليه؟ في الأولى يمكن أن يصبح فضيحة، وفي الثانية يمكن أن يصير شهيداً. كان على الأفكار الملائمة أن تأتي سريعاً قبل أن يحبل الموضوع بأيّ طارئ. وما هي تلك الأفكار؟ من أين تأتي؟ ما يزيد من إعجاب لطفي بنفسه، أن الأصالة لديه تنبع من الأزمات التي تواجهه، هذا ما أخذ يردّده منذ أن قدّم الحل المثالي لأول مشكلة كبيرة تواجه إرادته في البلدة. فحين نظر إلى الأمر من زواياه الكثيرة اكتشف أن الأضرار التي ستنجم عن الانسحاب أمام تعنّت فارس أبو لوز ودفاعه الفارغ عن وجود المكتبة المخالفة لكل المبادئ، ستكون أكبر بكثير من الضرر العاجل الذي قرّر اتخاذه. فكّر أنها في النهاية مسألة حسابات وحسابات، فالتحدي حساب، ولكن تجاهل التحدي، أو الصمت تجاهه، حساب آخر. ولن يسمح لحسابات فارس بأن تفوز. كان ذلك يعني دمار مستقبله الشخصي، ونهاية الآمال التي بناها منذ أن استلم دفة قيادة البلدة، على يدي نكرة مثل فارس أبو لوز. وحين رفع إصبعه، كان قد اتخذ القرار باقتحام المكان.

أستطيع الآن أن أتخيّل ماذا حدث هناك، كان لطفي قد أعطى أمر تدمير المكتبة بعد أن اطمأن تماماً إلى أن مسعود الجمال وفؤاد أبو علم لم يعودا يذهبان لحمايتها، وبدا له أمر فارس أبو لوز سهلاً للغاية، سيوقفه أيّ واحد من الرجال المكلّفين، ويأخذ الباقون أدوارهم.

كان يفكّر بالتدمير وحده، وقد وضع في حساباته أنه سوف يزور المكان في اليوم التالي برفقة ضباط الشرطة الذين سيستدعيهم لرؤية ما حدث، وسوف يدوس بقدميه على ورق الكتب الممزّقة التي اختلطت بعضها ببعض. هذا هو المشهد المتخيّل في رأس لطفي. بينما كان الواقع مختلفاً. ولاحق الموضوع كي يعرف من نهب المكتبة، ولكنه عجز عن ذلك. أمر غريب، كان لديه جهاز الشرطة، ثم صار لديه مخابرات وأمن سياسي وأمن دولة ولم يعرف من الذي أخذ الكتب. قلت هذا صعب بسبب كثرتهم. كنت متأكّداً من أنها تعرّضت للنهب الجماعي. لطفي الجمل أراد أن يدمّر المكتبة، ولكن الناس أخذوها. لا أعرف إذا ما كان هذا الأمر مكراً من التاريخ، أم هبلاً، أم مصادفة. ولا أعرف إذا ما كانوا قد تصرّفوا هكذا بوحيٍ من ضمائرهم، أو وجدانهم، أو لا وعيهم الفطري، أم لصوصيّتهم وجشعهم؟ من يستطيع أن يعرف؟

16

(رحنا نتنافس على حبّ ليلى، أنا وغازي الأخضر، كنا رفيقين بالفعل، وقد جلسنا في مقعد واحد منذ بداية العام الدراسي. ولكن ليلى جعلتنا خصمين. لا أعرف ليلى، ولكني أحببتها كل يوم. كنت أخرج من البيت قبل موعد الذهاب إلى المدرسة، أختلق عذراً لأمي كل يوم، وأتمنّى وأنا في طريقي أن تنسى ولا تسألني في اليوم التالي. ولكنّها لا تفعل، وكان عليّ أن أخترع الذرائع. وبسبب ليلى بتّ أعشق الذرائع، إذ كانت هي التي تجعلني أدور حول الأفكار والأحلام والأخيلة كي أجد حكاية تعجبها.

وعلى الرغم من أنني كنت قد وثقت بليلى، وبالتزاماتها تجاه مواعيد الخروج من منزلها، إذ كانت تحافظ على توقيت الثامنة إلا ربعاً دون أن تخلّ به في أيّ يوم، فإنّني كنت أسرع كي لا تسبقني، وتمضي. كانت تمشي مسرعة، تمشي برأسٍ مرفوع، وشعر أسود مسرّح، وذيل حصان، ذيل مهر في الحقيقة. إذ إنها لم تسمح لشعرها أن يطول إلى ما دون الكتف. ألحق بها من بعيد، ولكن دون أن تغيب عن عيني، وحين أجد أن مجموعات من الطلاب أخذوا يأتون من الأحياء الأخرى في وسط المدينة، كنت أسرع أكثر، وأقترب منها أكثر أيضاً، كي أستطيع رؤيتها، سأكون آمناً وسط زرافات الطلاب.

كان ذلك هو صباحي، بينما يكون الظهر مملّاً، حين يرافقني غازي الأخضر في الطريق. لم أكن أدرك لماذا يكمل المشوار مبتعداً عن بيته، إذ كان يختلق حديثاً كل يوم، يسمح له بمتابعة المشي إلى جواري كي ينهيه. كانت حكاياته تبهجني. وكان قادراً على ملء الطرق كلها بأحاديثه، حتى إذا حاولت أن أتملّص منه، بإطالة الطريق بحجة زيارة خالتي أو إيصال الفاتورة إلى متاجر الجملة، فإنه كان قادراً على ابتكار حديث يناسب المشوار. «ما رح خلّيك تروح وحدك!» يقول لي، أو «ما رح خلّيك تملّ وتضجر». يا رجل (كنا نتخاطب بهذه الألقاب في ما بيننا) نحن لبعض. لكنه في الحقيقة كان يريد المرور في نهاية الأمر أمام بيت ليلى. كنت أرى كيف يلتفت نحو المنزل ذي العلّيّة الحجرية، ودالية العنب. يتنهّد أحياناً ساحباً الهواء من الظهيرة. ثم يكمل كلامه. أين رآها؟

وبسبب بلاهتي، من جهة، ويقيني أن الصديق لا يمكن أن ينتهك علاقتي مع ليلى (لم يكن يعلم شيئاً عن أنها تفتنني) تركت له الحرية في أن يفعل ما يشاء. كنت سعيداً بتلك المشاوير التي نمشيها، وكان غازي يستطيع أن يملأ أي فراغ صامت بالكلام. لا أعرف من أين يأتي بالأحاديث، ولا أنكر أنني أحسده، إذ كنت شبه عاجز عن النطق في حضرة الآخرين. لا أزال حتى اليوم أقضي ربع الأوقات التي ألتقي فيها بالناس لأول مرة، أبحث عن كلام. وحين يحكي غازي الأخضر خبراً ما، يكون قد وضع خبراً آخر تحت إبطه. يعلك الأخبار والحكايات وما قال فلان وكيف عمل علان، بالمطحنة العظيمة التي تسمّى لسانه.

وأكثر من هذا كان يظلّ سعيداً، وكان لسعادته الغامضة القدرة على العدوى. عدوى شديدة الحرارة والقوة، فلا يمكن لمن يعرف غازي الأخضر، أو يصادقه، أن يبقى مكتئباً. ولهذا فإنني لم أكن أرفض تلك التدخّلات التي يحشر نفسه فيها. نمشي معاً بعد أن نتجاوز بيت ليلى

الطيار، ثم نفترق حين نقترب من بيتنا. أدعوه لزيارتنا، فيقول مثل الكبار: «بتشرّف!» أو «الله يديمكن!». ثم يعود.

في ما بعد عرفت أن ليلى الطيار من بلدتنا. قال لي أبي إن أباها وأمها من السماقيات، فزاد تعلّقي بها. لا أعرف ما الذي يجعل شابّاً في البكالوريا يعتبر أن حبّه سيكون متيناً إذا كانت الفتاة التي يهواها من قريته. فكرة تافهة لكنها جعلت ليلى تصبح لي أكثر. صرت أحسّ أنها قريبتي، وأن الوصول إليها لم يعد يتطلّب غير أن أريها بطاقة هويتي. انظري، أنا أيضاً من ناحية السماقيات!

ولكن كل هذه الأفكار كانت تحتاج إلى كيان آخر غيري أنا، لم أجرؤ على الكلام معها، مع أني كنت كل يوم أفكّر في الليل في الطريقة التي سأبدأ الكلام معها. أسجّل الخطوات على الورق، بحيث أضمن ألّا أُخطئ أو ألّا أُقدّم واحدة على أخرى. ولكني أنسى كل شيء في الصباح حين أراها، أمشي في الطريق ذاتها وأنا ألعن ضعفي ورخاوتي وعجزي، بينما تمشي هي مثل مهرة. تلوح بذيل شعرها القصير المرفوع في قمة رأسها، بخطواتها السريعة المتقنة التي تختار الطرق الواضحة. لن يكون بوسعي اللحاق بها أبداً.

الخُطا على طريق المدرسة كانت تشبه إلى حد بعيد خطا الحياة المقبلة، ففي المدرسة استدعاني الموجّه إلى غرفته وقال بحزم، بينما كان يتصفّح ملفّاً أصفر اللون: «ليش ما قدّمت طلب انتساب للحزب؟!». لم ينظر نحوي، بينما بقيت صامتاً مذعوراً واقفاً أمام طاولته الخشبية العريضة. دخل الموجّه الثاني، إلى الغرفة، وهو يحمل عصا غليظة. كانت العصا معروفة في الثانوية باسم عصا موسى (يقال أحياناً إن أول من نجّرها موجّهٌ شابّ اسمه موسى، ويقال إنها سُمّيت هكذا تيمّناً بالنبي

الغائب). وكنا نتوارث هذا الاسم من جيلٍ إلى آخر. لم أُجب، ولم ينظر الموجّه الأول إليّ. ظلَّ يقلب الأوراق التي يضمّها الملف الأصفر، وحين أغلقه رأيت اسمي مكتوباً بوضوح على صفحة الغلاف في الوسط: فيصل الخضرا. فأسأل نفسي سؤالاً سريعاً مباغتاً: «لماذا وضعوني داخل اللون الأصفر الذي أكرهه؟». فكّرت أن أقول له هذه العبارة، أي إن الحقّ عليكم أنتم، إذ لا يمكنني أن أتفق مع هذا اللون الكئيب. «ها. ما جاوبت؟!». قال لي بلهجة أكثر حزماً، واستعجالاً. لم يكن لديّ جواب مناسب لطاولته، أو لعصا موسى التي كان صاحبها يقف في ركن الغرفة، ويضرب بها راحة يده ضربات إيقاعية. لا يمكنني أن أقول إن أبي هو الذي يمنعني من ذلك، هذه وشاية حقيرة، كما لا يمكنني أن أقول إن ثقافتنا كلها في البيت مبنية على التأفّف والكراهية والضجر من هذا الحزب الذي بدأ حكمه بالعداء لنا، فأقول له الحق عليكم، أنتم من بدأ هذه العداوة. الصحيح هو أنني لم أكن أفكّر بأي جواب، كنت مذعوراً. وحين أتذكّر ذلك الموقف أسأل نفسي: «كيف استطاعوا أن يضعوا هذه الكمية من الذعر داخل عقلي وروحي وجسدي؟». إذ حين حاولت أن أجيب تلعثمت، لأنني لم أكن أعرف ما الجواب المناسب له. بينما كان جوابي المناسب لي موجوداً داخل عقلي، ولكنه لا يجرؤ على الخروج. لم يكن مصرّحاً لي أن أقول: «لا أريد» مثلاً. هكذا كلمة واحدة مجرّدة من أي تفسير أو شروح.. أما اللعثمة فإنها لم تقدّم شيئاً، غير سخرية الموجّه الأول، وضحك الموجّه صاحب العصا. قال لي إنه سوف يكتب الطلب بنفسه، وإن عليّ منذ اليوم أن أعتبر نفسي رفيقاً في الحزب.

خرجت من الغرفة، وعندي رغبة في البكاء أو الصراخ ضد هذا التطاول. لا لأنني أرفض الانتساب فقط، بل لأنني سأكذب على أبي طوال عمري. لن أقول له إنهم أرغموني على الانتساب، لأن لديه حجج مفحمة كافية

للردّ على كلمة «أرغموني». فقد سمعته يقول لصلاح كلاماً عن هذا، حين تحدّث عن المستقبل. لأن المستقبل لهم كما قال، المستقبل. المستقبل. المستقبل. سمعت الكلمة تتردّد في المكان، بينما راح أبي يصفّق بيديه وهو يلاحقها كما لو كانت حشرة، أو ذبابة. ضربها عدة مرات بحذائه، فأصاب الفانوس وكسره، وصار يلعنه. ولو لم أستيقظ من نومي لكانت الدماء تصبغ وجنتيه بسبب شظايا الزجاج التي تطايرت من الفانوس.

لا أعرف إذا ما كنت أصرخ، أو أستغيث، لكنني شعرت بجفاف في حلقي حين استيقظت. وكان العرق يبلّل ثيابي أيضاً، وكنت ألهث. لم يستيقظ صلاح على صراخي. شكرت الله.

لكنني لم أكن أنتظر ما حدث، ففي أحد الأيام وصلت إلى البيت ظهراً، ورأيت أم ليلى في بيتنا. كنت قد رأيتها مراراً في شرفة بيتها، أو في الشارع حين ترافق ابنتها في قسم من طريق المدرسة. ذُعرت. اعتقدت أنها جاءت كي تشتكي عليّ. اختبأت في غرفتنا الداخلية، ورحت أتدرّب على الدروس التي تلقّيناها في المدرسة. هكذا: كان العاشق فاشلاً منذ تلك اللحظة. انتظرت كثيراً دون أن أرى أبي أو أمي، وحين خرجت أسأل عن الغداء، لم أرَ أي تغيير في جبهة الآباء. كانت أمي تعدّ المائدة وكان أبي يسجّل الفواتير. من ضيفتنا؟ قلت وأنا أحاول أن أُظهر لا مبالاتي، غير أنهما كليهما كانا لامباليين أيضاً. وعلى الغداء بدت أمي غاضبة، ولم تردّ على أسئلة أبي. ثم توقفت عن الأكل فجأة، وتركت الطعام وغادرت الغرفة. عمّ الصمت. لم يقُل أيٌّ منا أي شيء. وفي المساء سمعتها تقول له وهما يشربان الشاي في مضافته: «ما زارتنا ولا سلّمت علينا ولا قالت في ناس من بلدها من سنين!»، فقال أبي: «معك حقّ!». كانت أمي غاضبة من استقبال المرأة التي سمّتها كاميليا في بيتنا، وكان أبي يحاول أن يسترضيها.

ثم شرح لها أنه رآها مصادفة في الشارع، ودعاها لزيارتنا. ثم أضاف جملة غير مفهومة تماماً، حين قال: «بتعرفي؟ اسمها بين الأسماء!».

من ناحيتي كنت مسروراً بوجودها الآن. لقد تبدّل الأمر تماماً، وظهر أنها لا تعلم شيئاً عن علاقتي بابنتها. لم أكن أسخر من نفسي حين فكّرت بذلك، ففي أحلامي كانت بيني وبين ليلى قصة حب عميقة، كنا عصفورين صغيرين نحاول بناء عشّ وسط هذا العالم الجميل. صار الحلم المتكرّر يرافق يقظتي أيضاً. وفي أكثر من مرة كدت أن أمشي بجانب ليلى، وأحدّثها عما رأيناه معاً في حلمي. صار العالم آمناً وحبيباً بعد أن جاءت كاميليا لزيارتنا.

وبسبب السعادة تجاهلت الجملة الغامضة، وروّجت للصداقة القادمة، وسألت أمي بعد بضعة أيام ما إن كانت سترُدّ زيارة الست كاميليا، فقالت ساخرة: «الستّ؟!»، ولم تُجِبني، وعند المساء سألتني ما إن كنت أعرفها، فأنكرت تماماً. تلك كانت هي الحقيقة، ولكني لم أستطع أن أقول لها إني سعيد بهذا التعارف الذي سيقرّبني من ليلى، ولم أذكر لها أيّ لمحة عن ليلى. وفي اليوم التالي ذكرت الحادثة أمام غازي. «بشرفك؟!» هتف بصوت مرتفع. لم ألاحظ رنين الأسى حينئذٍ، وربما كان قد أراد أن يخفيه خلف سؤال الدهشة. مشى بجانبي كما لو كان يمشي خلف نعش، حزيناً، مفلساً، عاجزاً عن الكلام. سألته عن الكلام، فقال إنه سيؤجّل الحديث هذا اليوم بسبب الألم الذي يشعر به في خاصرته. لكن ما علاقة الخاصرة بالحكي؟ فقال إنه يتنفّس تقريباً من هناك. وفي منتصف الطريق تركني.

لم يعد غازي يلاقيني في الأيام والأسابيع التالية، كان يدرس في ثانوية خاصة لأنه ترك المدرسة ثلاث سنوات ثم عاد. وكانت الثانوية تبعد عن مدرستنا أكثر من ألفي متر نحو الشرق، فصرت أذهب أنا لملاقاته بعد

الانصراف. كان يمشي وحيداً وحزيناً، وقلّما كان يحكي. وبدل ذلك صرت أسمعه يدندن أغنياتٍ باكية. لا أفهم الكلمات تماماً، ولكن اللحن الذي يختاره يبدو شجيّاً، فيما يظهر وجهه كئيباً رملياً يابساً. ما بك؟ أسأله. فيقول ترّهات. كلام خفيف لا معنى له عن الألم والصداقات الخائبة والحب التافه وأعواد القصب التي تُخرج الهواء بدل الألحان العذبة. وسرعان ما بدأ يتحاشى اللقاء بي. وكان هذا أكثر الأشياء التي لم أفهمها. ولأني لم أفهم شيئاً واظبت على اعتراض طريقه، ولكنه كان يزداد صعوبة. يتحوّل من حزين إلى غاضب حقود. تجاهلني في الشارع أكثر من مرة، ومضى في اتجاه بيته القريب من القلعة. لم أفهم هذا كلّه، ولم أجد شخصاً واحداً يمكن أن يستفسر منه، وحين أخبرت أخي صلاح الذي كان صار موظّفاً في البلدية، قال: «خرى عليه!». كان صلاح يحلّ مشاكل الحياة بالشتائم. يضع خصومه في أحد المواقع الضعيفة ويرميها بأقذع الشتائم. وربما أدرك أنه لم يُفدني بأي نصيحة، فسألني كم مرّة ذهبت لملاقاته في الطريق، قلت سبع مرات، فصفّر صفرة طويلة متعجبة، «وما ردّ عليك؟». قلت: لا. فأطلق همهمة من جوفه وقال: «إي خرى عليه فعلاً!»، ثم أمرني أن أقاطع ذلك التافه الرخيص، كما وصفه.

لم تعد المشاوير التي أذهب فيها للسير وراء ليلى لذيذة، فقدَت كثيراً من رونقها وألقها منذ أن بات عليّ أن أخزّن عاطفتي داخل روحي. وبينما لم تعد كاميليا لزيارتنا مرة ثانية، لم يبدُ على أمي أنها متحمّسة لردّ الزيارة. انتهى ذكرها من بيتنا، ولم أعلم أن أبي التقى بها، أو كان يلتقي بها، إلا بعد رحيله. وجدتها في دفاتره، وكانت تروي حكاية.

رأيت ليلى مرة واحدة في الجامعة، وهناك ابتسمت لي. قالت إنها تعرفني، ونحن من بلدة واحدة. ومنذ متى تعرفين هذا؟ قالت منذ سنوات.

كانت تراني في الشارع، وكانت تنتظر دائماً أن أكلّمها، وسألتني: «ليش ما حكيتني ولا مرّة؟!». كان عليّ أن أستخدم نظرية فارس أبو لوز الراحل، وأقول لها إنها الحمرنة. وكان واضحاً أنها لا تأبه بذلك. إذ قالت لي إن ذلك الشاب الذي كان يسير معي في الشارع أرسل لها رسائل حب. وإنها التقت به مرة واحدة في أحد الأزقة، وكرهته. قالت كيف يمكن لأي شخص أن يكون تافهاً إلى هذا الحد؟ غازي؟ آآه، جميل أنك ذكرت لي اسمه لأني نسيته، لعنة الله عليه! هل تعرف ماذا قال لي؟ قال إنك تكرهني. صحيح؟ أعرف أنه كان يكذب، لأنك كنت تحبني. صحيح؟!

وسرعان ما اختفت بعد ثلاثة أشهر. لم أعد أراها في أي مكان، وحين سألت في السويداء عرفت أنها تزوّجت ضابطاً طياراً. كنا قد صرنا في زمن الضباط.

17

من المستبعد أن تكون قد أخذت الكتابين من المكتبة، فلم يكن بوسع أيّ امرأة مهما كانت قوة حضورها في البلدة، أو بين الرجال، أن تجرؤ على اقتحام ذلك المكان الملتهب المكسور الذي تدوسه الأقدام. والأكثر عجباً أن يكون الكتابان هما: «زهرة العمر» و«سجن العمر». لا لأنه لتوفيق الحكيم الذي كان كريم الزهر لا يحبّه بتاتاً، ولا لأنه عارض شراء كتبه، بسبب موقف الشيوعيين الذين كانوا يعتقدون أن الحكيم من الكتّاب الذين يمجّدون البرج العاجي ويدعون إلى العزلة واحتقار الجماهير. لا، إنما لأنني لم أتوقّع أن تذهب النساء نحو كتاب في الذكريات. لكن الاسم كان صريحاً وواضحاً وجهيراً جدّاً في لائحة لقمان: كاميليا شمال.

كانت قد تركت السماقيات بعد خروجنا من هناك بسنة، فحين مات زوجها فهد الطيار، كانت قد خلّفت ثلاث بنات، ولم يكن لديها أيّ دخل غير التقاعد الصغير الذي مُنح لفهد من الدائرة التي كان يعمل فيها، والظاهر أن الرجل كان محبوباً هناك، وأنه قد أسدى لوظيفته كثيراً من الخدمات، وربما كانت صلاته برئيس الدائرة أو بأي مسؤول آخر قوية، فمُنحت كاميليا مقعده الشاغر. وبهذا فقد باتت مجبرة على الانتقال إلى المدينة، إذ

إن من الصعب أن تستطيع العمل والتنقّل اليومي بين السماقيات والسويداء يومياً، على الغرار الذي كان يقوم به فهد.

لا أعرف فهد جيداً، ولكنه صار يتحاشى اللقاء بي بعد دمار المكتبة. أعتقد أنه صار بعثياً في وقت مبكر جداً، ويحتمل أن يكون عضواً في الحرس القومي الذي تأسّس في ذلك الوقت. ومع أنني لم أسمع قطّ أن هناك توجيهاً بمقاطعتي، أو إعلان حرب التجاهل ضدي، أو إبعادي من دوائر الاتصال في القرية، لكني أعتقد أن لدى بعض البشر قدرة على اِلتقاط المحظور أو المحرّم أو الممنوع أو غير المحبذ المطلوب، وقوة على تنفيذ السياج المناسب الذي يفترض أنه قادر على تحصينهم من الأذى.

قلّما اختلطت بفهد من قبل، ولكن الرجل كان من أولئك الذين يعيشون في الظلال، ويسيّجون أنفسهم بكلّ الحمايات الضرورية التي تمنع عنهم أي أذى. لكنهم أيضاً لا يؤذون. لم أسمع قطّ أن أحداً اشتكى من فهد أو عاب عليه أي شكوك، على كثرة ما يبادر الفلّاحون لتجميع المآخذ والانتقادات ضد بعضهم.

وعلى الرغم من تفهّمي لمثل هذه المواقف التي تُظهر الضعف البشري عامة تجاه التهديدات بالحرمان من لقمة العيش مثلاً، أو الملاحقة البوليسية المرعبة، فإن إحساسي بأن فيها بذرة من الشر المضمر داخل النفس البشرية ذاتها يرعبني. فموقف فهد الطيار مني ومن أسرتي، إذ منع كل أولاده (بناته في الحقيقة) من مخاطبة زوجتي وأبنائي أيضاً، غريب بالنسبة لرجل ليس بيني وبينه أي صداقة أو صحبة أو عداوة. هكذا نحن شخصان نعيش على أرض واحدة، ولكن دون صلات.

وحين أفكّر أن فهد نفسه هو الذي أخذ الكتابين إلى بيته، فإن الحادثة هنا، إذا كانت صحيحة، تعكس مستوى آخر من الشر والدناءة. فأنصار

لطفي الجمل كلّهم باتوا على علم بأنه يلاحق الكتب المختفية، وقد أصاب الهلع عدداً كبيراً، ممن كان في بيوتهم مكتبات صغيرة من قبل، من أن يشكّ الجمل بأمرهم. وكان أول من اتخذ إجراءً للوقاية من الوشاية رجل من حارة آل شمال، إذ دعا لطفي وأعضاء الفرقة إلى بيته وعرض أحد عشر كتاباً كان يملكها أمام أعينهم. كتاب الجغرافيا للصف الخامس، وكتاب الأمير السيد التنوخي، وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين... شربوا الشاي وربّتوا على كتفه، وأعلنوا براءته. لم يعد يستطيع الباقون من أهل البلدة تجاهل الأمر. فحظي لطفي الجمل بزيارة أكثر من ثلاثة وسبعين بيتاً، قبل أن يعلن بواسطة المنادي وقف تلك الإجراءات المشينة. لقد شعر أنهم يهزؤون به، وبأعضاء فرقته، منذ أن أخذت تلك الزيارات تتحوّل إلى لوائح طلبات ورجاءات من أجل وظيفة أو عمل ما في دوائر الدولة. أقدّر أن شخصاً بمهارة لطفي قد فكّر على النحو التالي: يستطيع أيّ واحد من بينهم أن يخبّئ الكتب المنهوبة في المزبلة، ويقدّم له مجاني الأدب مثلاً.

لا تفسير آخر لديّ يعفي فهد من المشاركة في السطو على المكتبة، وقد أعدت النظر في ألبوم صافي، ولكني لم أعثر عليه بين المجموعات التي اقتحمت المكتبة.

رأيت كاميليا بضع مرات في الشارع مصادفة، فعملي في الدكّان كان يتطلّب مني البقاء فيها، ويحرمني من التجوّل في شوارع المدينة. ولا أرى الناس إلا حين يأتون لشراء أي حاجة من محلي، أو حين أذهب أنا للتسوّق وشراء ما تحتاجه الدكّان. رأيتها في آخر الصيف الماضي، كانت قد مضت ثماني سنوات على خروجنا من السماقيات. ارتبكنا كلانا. رأيت فيها فجأة ظلّ فهد الطيار التافه، واعتقدت أنها قد ترفض السلام إذا ما ألقيت التحية. هذا هو رأيي في أبناء السماقيات. فالسنوات الماضية أوغرت صدري

ضدهم. أهتف في سرّي صارخاً بهم: «يا أولاد الكلاب. ماذا فعلت لكم؟!». ولهذا لم أُلقِ عليها التحية، وتابعت طريقي دون أن ألتفت إليها.

لكن ظنوني كلّها لم تكن صحيحة. لا يعرف فهد الطيار أي شيء عن الكتابين، ولا يعرف أي شيء عن الكتب كلّها. وقد أخذتهما كاميليا بنفسها من بيت أختها. سرقتهما تقريباً، حين قرأت العنوان. فسجن العمر بدت لها عبارة عمرها، سقف الحياة التي توقفت، واضمحلت تحت وطأة القضبان التي بُنيت في حياتها بعد موت فهد. ففي السنوات الأولى كان عملها من جهة، وبناتها الثلاث من جهة ثانية، يملؤون عمرها كله، كانت قد أوقفت استخدام كل المفردات التي تدل على الوقت والحياة والزمن، واستبدلتها بالعمر. كان عمراً سعيداً في تلك الأوقات. ففي الضائقة التي تكسر ظهور الفلّاحين في السماقيات، بدت النقود القادمة من الراتب الشهري الذي تأخذه، والتقاعد الممنوح للبنات، كافية لسعادة ذلك العمر. وحتى في تلك الأيام التي كانت فيها مطالب العيش تزداد، لم يكن العيش صعباً.

لكنها لن تنسى تلك اللحظة التي وقعت فيها عيناها على العنوانين المبهرين العجيبين: زهرة العمر وسجن العمر! في الخزانة الحديدية ذات الواجهة الزجاجية السميكة التي تباهت شقيقتها بها. لم ترَ شيئاً بعد ذلك داخل تلك الخزانة، تبدّدت الأشياء، وقيمة الأشياء، ولونها وشكلها، أمام بريق الجملة. لا الكؤوس المذهّبة، ولا فناجين القهوة الصينية، ولا ركوة النحاس.

استلّت الكتابين ببطء وحذر، وحَشَتْهما داخل معطفها حتى صار كل منهما تحت أحد إبطيها، وأغلقت عليهما هناك، ريثما تخرج من البيت. لن يلاحظ أحد اختفاء تلك النسخ قبل بضعة أشهر، وحينئذٍ كان الجميع، في أسرة شقيقتها، قد نسوا زيارتها القديمة التي أخذت فيها الكتاب.

«كنت عايشة داخل سجن من دون ما أعرف أنه سجن». يا للهول! فكّرت في نفسها. سجن العمر؟ كانت الطريق بين السماقيات والمدينة طويلة جداً هذه المرة، تمشي السيارة ولا تمشي، وهي تقول لنفسها مرة: «سقا الله متى أصل!»، أو تقول لأبي سعيد: «طالت السفرة يا أبو سعيد!» فينظر إليها من المرآة الأمامية، ويهزّ رأسه. وحين وصلت إلى البيت. كانت قد مضت سبع سنوات على موت فهد الطيار، ووجودها في سجن العمر.

لم تلمس الكتابين ذلك اليوم، ولكنها لم تعرف أين تخبئهما. واكتفت في الليل بتأمل البنات وهنّ يدرسن: ليلى في الصف الحادي عشر، وسلوى في العاشر، ونجلا في التاسع. فكّرت بنفسها: أما هي فقد كانت لا تساوي شيئاً، حتى الواحد نفسه كان أكثر منها. تأملت نفسها في المرآة وأدركت أنها المرة الأولى التي تنظر فيها إلى وجه كاميليا، فقد كانت من قبل، طوال السنوات السبع، لا ترى غير وجه الموظّفة في دائرة... تسجّل المواليد الجدد، أو المتوفّين حديثاً، لا ترى في سجلّها الورقي الضخم غير الأسماء، أسماء وأسماء وأسماء. أو ترى وجه الأم التي يجب أن تشمل شعرها بالمنديل، كي لا تسقط إحدى الشعرات الراحلة في الطعام. هذه هي كاميليا. امرأة في مهبّ الآخرين. بينما لم تكن هي هي. تأملت وفكّرت في ذلك أكثر من مرة، وأكثر من ليلة. تذكّرت أنها كانت بلا رجل طوال تلك السنوات السبع أيضاً. وكادت تبكي لأنها لم تحبّ فهد الطيار في أيّ يوم. وأن حزنها عليه، إنما كان حزناً مبكراً على نفسها. حزنت على نفسها دون أن تعلم أنها تحزن. وإلا ما هو سرّ هذه التجاعيد التي تغطي الخدّين، وتنساب نازلة حول الشفتين؟ هذا هو سجن العمر. وها أنت ذي لا تعرفين أين يمكن أن تخبّئي كتاباً، فليس لديك مكانٌ آمن يخصّك، لا صندوق، لا خزانة صغيرة، لا غرفة يمكن أن تأوي تفكيرك أو شرودك أو حسابات الأيام إذا شئت أن تحسبيها.

وفي تلك الليلة لم تنم، وقالت لنجلا التي تنام معها في غرفتها، إن الشاي هو سبب أرقها، لكن البنت نامت سريعاً، قبل أن تسمع الجواب عن سؤالها تقريباً. بينما بقيت كاميليا تحسب وتفكّر: فقبل سنوات (سنوات كثيرة يا كاميليا) ابتسم لها سالم محمود، زميلها الأعزب الجميل في الدائرة، وبعد ذلك تقريباً عرض عليها الزواج. اللعنة! لكنها لم تلتفت نحوه، لم تبادله الكلام، لم تسأله لماذا يبتسم لها. تجاهلت الابتسامة، ووضعتها وراء ظهرها، ونسيتها. وتجاهلت العرض ورمته سريعاً في سلّة مهملات ذاكرتها. قالت له إنها وهبت عمرها كلّه لبناتها، وإنها لا تريد أي رجل في بيتها.. لا! رفضت العرض. لا يمكن أن أتزوّج، فلديها بنات ويجب أن تربّيهن. رفضت فقط. لا تفكّر بالرجال في الحقيقة. الأمر كله سخيف ومربك ولا طعم له، وخاصة أنها سوف تعود من جديد للعناية برجل آخر، ولماذا لم تطبخي؟ وأين قميصي الرمادي؟ ولماذا لم تغسلي جواربي؟ واغتسلي الليلة من أجل الفراش! كل تلك التفاصيل التي تذكّرها بفهد لم تعد تحبها، ليس لأنها تكرهه، بل لأنها صارت تملّ منها. ولكن سالم لا يتوقف، يلحق بها حين تخرج من الدائرة، وهي لا تعرف بأي قوة شيطانية يستطيع أن يسبقها ويلتقي بها ويقول: «دقيقة واحدة بس. اسمعي كلامي!»، أو يقول: «خذي اقرئي هذه الورقة!»... لا تنكر أنها أحبّت كلماته. كانت الورقة تعبق بنسيم خفيف من عطر غريب غابر. ولكنها لم تقرأها سوى مرة واحدة. مزّقتها قبل أن تصل إلى بيتها، ورمت المزق هنا وهناك في زوايا الشارع. لم يرسل لها رسالة أخرى. صار كل يوم يمرّ بجانبها، ويقول: «بحبّك». «بحبّك». «بحبّك». كل يوم بحبّك. هكذا كلمة واحدة من أربعة أحرف تقال مرة واحدة في اليوم، وبحسب الوقت المناسب.

تفكّر الآن أن فكرة الرجل نفسه، لا الزواج، كانت قد شُطبت من

حياتها. لماذا؟ ما أضرار الرجال؟ لماذا لم تنظر إلى وجهه مرة واحدة؟ الخوف من الإغواء؟ ها هي ذي تشتهي الآن أن تكون نائمة في حضن رجل. لم تعد تريد الكلمات، بل الجسد الدافئ الحنون الذي يضمّها ويشمّ شعرها. تتذكّره لأنها تسلّلت الليلة للمرّة الثانية إلى الممرّ حيث تعلّق المرآة، ونظرت إلى وجهها. ابتسمت أيضاً، ابتسمت كما لو كانت تردّ ابتسامة سالم. وتسأل نفسها ما إن كانت قد تأخرت. لكنها لم تجرؤ على إضاءة النور الكهربائي كي تستطيع قياس السؤال عن الأحوال. عادت خائبة إلى فراشها، صحّحت نوم نجلا، ثم حاولت النوم.

أحياناً أقول لنفسي: اللعنة على الكتب، فإذا كان العنوان وحده قد تسبّب في إرباك حياتي، فما الذي يمكن أن تفعله مكتبة؟!

في الأيام الأولى كلّها لم تفتح الكتاب بالمرّة، كان صداعٌ ثقيل ضاغط يلاحقها طوال النهار تقريباً، عاد سالم محمود بكامل حضوره، بثيابه وأناقته، وابتسامته، وصوته المبحوح الرطب الذي يردّد: «بحبّك!». لكن شعوراً عميقاً بالذنب يطاردها، ففي لحظة جنون أرادت أن تتخلّص من سالم محمود مرّة واحدة، لا تعرف الشيطان الذي أوحى لها بتلك الفكرة المدمّرة التي أقدمت عليها، هل كان شيطان الملل؟ شيطان الفكرة العجفاء التي لا تريد الرجال في حياتها؟ شيطان الضجر من هذا الإلحاح المتواصل الذي كانت قد أغلقت قلبها دونه؟ ذهبت واشتكت لمدير الدائرة. تحرّش؟! صرخ المدير من خلف مكتبه الأبنوسي العتيق. لو كان بوسعها أن تعيد الكرّة فسوف تقول بصوت عالٍ كصوت المدير: «لا، غزل يا أستاذ!». كان سالم يغازلني وأنا لا أريد، أخاف من الغزل، من تكرار الرجال. قالت: «لو تكلّمه بلطف»، فردّ بجفاء: «ماذا؟ هذا شغلي.. وأنت لا تعلّميني! مفهوم ستّنا؟!».

استدعاها في اليوم التالي. تفضّلي! قهوة؟ لا يمكن فعل أي شيء تجاه هذا الأزعر! استهجنت الكلام. فقال: «لا نستطيع أن نقول له: لا تحب؟ ولا أن نقول له: لا تطلب يد هذه السيدة للزواج. صحيح؟». هزّت رأسها موافقة. «لا، قولي هذا صحيح أم لا؟». قالت: «صحيح أستاذ!». «وشو الحل؟». قالت: «كلمة صغيرة منك بسّ!». فصار يهزّ رأسه يميناً وشمالاً نافياً أن تكون الكلمة قادرة على ردع الرجل. عمَّ صمتٌ ثقيل مربك لها. لا تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل. «هذه مشكلة» قال وهو يوقّع بعض الأوراق. «ما رأيك؟». «لا أعرف والله يا أستاذ! لكن أنت المدير، ولا أريد إلا أن يبعد عن طريقي. تنبيه أو تحذير من حضرتك!».

اعتُقل سالم محمود بعد ذلك بيومين، لا تذكر تماماً، لا تعرف من هم، ولم تجرؤ على السؤال، ولم تُرد أن تعرف من الذين اعتقلوه، وطويت صفحته من الدائرة نفسها، وأُخفي ذكرُ اسمه. ولم يقُل أيٌّ من الموظّفين الغارقين في السجلّات الورقية الضخمة أيّ كلمة عزاء.

وكلّما رأت ذلك المدير العجوز كانت تطأطئ رأسها، وتمضي مسرعة. ولكنه لم يأبه بها قطّ، وهناك احتمال أن يكون قد نسيها. ففي أحد الأيام التقت به في أحد ممرّات المديرية الضيقة، وألقت عليه تحية الصباح وهي ترتعد، فردّ كما يرد في العادة على أيّ موظّف «أمممم». ومنذ ذلك اليوم بدأت تنسى سالم. لم يعد موجوداً في سجلّات الذاكرة. فالمدير نسيها هي أيضاً.

في ما بعد، ربما بعد ثلاث أو أربع سنوات، رأت سالم في سوق القمح قريباً من بيتها. كان نحيلاً وطويلاً أكثر من المعتاد، كانت له بشرة ملحية جافة وكان عجوزاً متعباً يتحرّك على مهل. وحين التقت عيناهما، ابتسم لها. وبسبب جبنها وذعرها، كادت تتجاهل الابتسامة والتحية، ولكنه سارع

إلى مدّ يده. صافحته. كانت أول مرّة تلمس فيها يده. وسألته كيف الحال، والصحة، ثم ودّعته ومشت. كان عليك أن تقولي له: «أمممم». تابعت طريقها كأنها لم ترَ أحداً.

في اليوم التالي سلّمتها صالحة زميلتها رسالة منه: كان يعتذر عن الغياب الطويل، بعد عرض الحب والزواج. شرح لها طويلاً ما حدث له، منذ أن اعتقلوه. حكى لها عن كركون الشيخ حسن الذي سُجن فيه طوال تلك المدة، قال لها إنه لا يتمنّاه لعدوّه. ليس مجازاً يا صديقتي كاميليا، قال لها، بل حقيقة وجدانية، لا يمكن لبشريّ أن يرتّب مثل هذا العذاب ولو في خياله لأيّ إنسان آخر. يجب أن نسحب من ضمائرنا كل ما فيها من إنسانية وعطف وشفقة وتضامن وإحساس بالآخر، حتى نقبل أن يوضع عدونا هناك. قال لها إن الشرف وحده هو الذي يجب أن يكون حكماً بين البشر، لا الوشاية ولا الحقد ولا الكراهية.

بكت بصمت في الحمّام بعيداً عن بناتها. لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً غير البكاء، وتلك كانت المرة الأولى التي تهزّها الفكرة الأخلاقية عن الوشاية. كانت البلاد خلال تلك السنوات قد غدت حقل وشايات: عملاء أمن، مخبِرون سرّيون، وشاة بالمجّان، كتّاب تقارير. تتذكّر بوضوح ما حدث في ذلك اليوم: وصل رجلان، كان لأحدهما (الداخل أولاً) شارب فاحم ناعم، وكان يرتدي سترة بيضاء مغلقة، وبنطلوناً بنّيّاً، بينما كان الآخر أقلّ هنداماً، ويرتدي بدلة خاكي من الطراز الكوري أو الصيني الذي بدأ الموظّفون يرتدونه. كان يحمل دفتراً بجلدة سوداء. لم يمدّ أيٌّ منهما يده لمصافحتها، فقال المدير: «السيدة كاميليا من أفضل الموظّفين عندي، حبّ للحزب والدولة بلا حدود!». جملة طويلة مدبّرة لم تكن موجودة في قاموس حياتها من قبل قطّ. كانت تخاف من الحزب، يمكن، إذ كان الحزب يبدو في مخيّلتها مارداً جباراً قادراً على التهام البشر. صحيح أنها كانت

تعرف كثيراً من الحزبيين، ولكن الحزب أمر آخر، إنه كائن خرافي مجهول مكان الإقامة يبعث الرعب في الكائنات. بينما كانت الدولة أحد الآلهة التي تقطن بعيداً عن البشر، وتدير شؤونهم بالعصا والكرباج والسجون والشرطة والجيش. كيف يمكن أن تحب هذا؟ ولكن كيف يمكن أن تقول الحقيقة عن هذا أيضاً؟ أخذت تهزّ برأسها موافقةً على كلمات المدير. كان يتحدّث بأبّهة عن أن الحزب والدولة أمّنا وأبونا. ابتسم ذو السترة البيضاء ابتسامة ساخرة، وقال: «إلى أيّ حزب أراد سالم محمود أن يُنسّبك؟». استنجدت بالمدير، فقال: «الحزب الشيوعي». التفت ذو السترة البيضاء نحو زميله وقال: «اكتب: وقدّم لي طلب انتساب مكتوب بخطّ يده، وفيه مكان فراغ طلب مني أن أضع اسمي بداخله، ولكني رفضت وقلت له إنني أحب وطني». تابع الرجل كلامه بينما لم تعد تسمع شيئاً، كانت نبرات صوته، إيقاع حروفه، صرير القلم، تختلط في رأسها بفكرة أنها لا شيء. إنها مجرّد لحم فاسد وعظام منخورة يابسة يحشوها المدير وذو السترة البيضاء بالحبر.

شعرت أنها امرأة حقيرة وبلا ضمير، لا لأنها تواطأت مع ذلك المدير فقط، بل لأنها حاولت حماية نفسها من الحب بوشاية تافهة تحوّلت إلى تصفية حساب. يا الله كم تشتهي لو تعود تلك الأيام كي يأتي سالم ويرافقها ويهمس لها: بحبّك! وفي الأيام التالية راحت تسأل بحذر من يمكن أن يعرف شيئاً ما عن أخباره، ولملمت من الكلمات العابرة نتفاً تقول إنه لا يزال عازباً. لم يتزوّج (كانت تفكّر بكلمة المسكين، ستقول المسكين، ثم عدّلت في الفكرة حين تذكّرت حالها) لأنه لم يجد بعد خروجه من السجن عملاً، ولا وجد فتاة تقبل به. وأنت؟ أنت يا كاميليا؟ «الآن وقد كادت تذبل زهرة العمر بعد أن جاوزت الأربعين». أخذت تردّد جملة من كتاب الحكيم.

لم تقرأ من قبل كتباً، وحين كانت المكتبة في السماقيات، لم يعنِها وجودها، وربما كانت قد وصلتها أنباء القتال حولها من فهد أو من أخيها سامي شمال، ولم تسمع بتوفيق الحكيم، إذ لم تتجاوز في دراستها الصف السادس الابتدائي، غير أن العنوان أولاً، ثم هذه العبارة التي رأتها عيناها حين فتحت الكتاب، جعلا كل شيء مختلفاً. تفكّر أن الكلمة لا تناسب المقام، ليس الاختلاف هو المعيار، بل الانقلاب. لم يعد لحياتها السابقة أيّ معنى بعد أن صارت العبارة تظهر أمام عينيها في كل خطوة تخطوها. في الطريق إلى الدائرة، في العودة، في شوارع المدينة، في رؤية الناس، في مشاهدة زوجين يمشيان معاً. وقد كادت تذبل زهرة العمر. وقد كادت تذبل. وقد كادت. وقد.

لكن القراءة أيقظت ضميرها النائم المخدّر أيضاً. وقد أدركت الآن، بينما تقرِّر أن تنوح على نفسها الخائبة، أنها لا تستطيع بعد اليوم أن تهرب من تلك اللحظة التي اعتقدت أنها قد طُويت. لا. لا يمكنها أن تتابع النواح، دون أن يكون سالم داخل الصرخات. أدركت الآن أنه كان وسوف يظلّ موجوداً في قعر كل فكرة تتعلّق بحالها وبما فعلت أو ستفعل.

ما الحل؟ لا يفعل الحكيم غير أن يدمّر أمان حياتها. تلعن الساعة التي سرقت فيها الكتاب وهي تقرأ: «إن الله كي يقيم القيامة وينهي الحياة لن يأمر إسرافيل بنفخ الصور، بل سيأمر الموت ليهوي بفأسه على الحب. وبموت الحب في الأرض ينتهي العالم». تبكي بصمت. ترغب أن تنتحب. أن تصرخ بأعلى صوتها وتتضرع إلى الله ألّا يفعل ذلك. ولن يكون بوسعها أن تحدّث ليلى أو سلوى أو نجلا عن ذلك الماضي الذي عاد اليوم. وكلّما قرأت أكثر في ذلك الكتاب، كانت صفحات حياتها هي التي تظهر. وقد أدركت تلك الساعات أنها كانت تريد سالم بالفعل، ولكنها كانت مجرّد

مخلوق جبان مرتعد من أن يسبب اقترانها بأيّ رجل دمار أسرتها. هكذا، بحساب سريع مستعجل يفتقر لأيّ عقل، وضعت حياتها في كفّة الميزان الخاطئة. وحين شرحت لسالم مخاوفها لم يقبل. كانت لديه سلّة من الحلول. هل يُعقل أن يكون لديه من الحب ما يكفي فعلاً لجعل أيّ واحد من تلك الحلول ممكناً؟ لم تجرّب.. قال مثلاً إنه مستعدّ للعيش معهن دون أن ينجب أولاداً. قال إنه يحبها هي لا النسل المحتمل. قال كل شيء، بينما كانت هي تغلق كل باب يفتحه، وتضيّع المفاتيح في الشارع. لم تكن تصدّقه في الحقيقة. كانت ترى أنه فهد آخر. لذلك رجته أن يبعد عنها، طلبت منه برفق أن يخلي سبيلها لأنها لا تريد أن ترتبط برجل. لكن لم يتوقف. هل أخطأ؟ ربما. هل تتذكّرين يا كاميليا أنه حاول أن يقنعك بقبوله في الشارع؟ هل تتذكّرين كيف كان غاضباً؟ كم كان غاضباً؟ وأنت التي ما زلت تذكرين فهد الطيار الغاضب الذي لا يتوقف عن لومك بسبب بنطلونه غير المكوي، حذائه المغبرّ، الزيادة في ملح أي طبخة، نقص الملح، فهد الذي لا يشبع من المضاجعة... ما عدت تطيقين أيّ كلمة. وكلّما ازدادت ضغوط سالم، كان فهد يظهر أمامك وهو يطلب أن يضاجعك. ولا يحقّ لك الرفض ولا الاعتراض. وحين ينتهي وحيداً تلعنين أبو الرجال والنساء والزواج والفراش. الحقّ عليك يا سالم، لو صبرت قليلاً! تريد أن تقول له هذا الآن.

وأنت يا كاميليا لماذا لم تصبري قليلاً؟ لم يكن ببالها حينئذٍ أن ذلك المدير الخبيث كان يحقد على سالم. ولم تعلم أن الرجلين اشتبكا أكثر من مرة داخل غرفة الإدارة بخصوص بعض الأعمال. الأدهى من ذلك أن سالم كان يتعمّد أن يحرمه من السلطة في دائرته، ففي حين كان الموظّفون الآخرون يرتجفون إذا ما رأوه غاضباً، كان سالم يقهقه في وجهه ويقول:

«طوّل بالك أستاذ!». أو يواجهه بتلك العبارة المجترة التي تجنّنه: «نص الألف خمسمية!». وقد أخطأ المدير مرّة، وصار يصرخ: «بعرف.. بعرف!» بينما كان سالم يبتسم وينظر إلى زميليه في الغرفة. يسمع الموظّفون ما يحدث، ويتعاطفون مع سالم، بينما يطيعون المدير ويخافون منه.

لو كنت أعلم؟ لن تستطيعي استرداد أيّ شيء. الأخطر من ذلك أن المدير أخذ كلماتك أنت، وحرّفها وصنع منها طريقته في الانتقام أو الثأر. فماذا فعلت بنفسك؟ في تلك السنوات التي اختفى فيها سالم، نسيت كلّ شيء. يا للحياة كم هي عظيمة وطيّبة! ففي بضعة أسابيع فقط، ربما أقل من ذلك نسيت وجود الرجل. لم يكن موجوداً في أساس حياتها، بل حضر فجأة، وتسلّق الهامش، ثم... فووو! اختفى بنفخةٍ من رجل آخر يكرهه. وبهذه الذرائع استطاعت أن تقنع الضمير، فلم يهِج، لم يتضعضع. ومن يدري؟ ربما كان المدير على حقّ في نوايا الرجل، وهو من يعرفه، ويعلم الخبايا التي يخفيها تحت رداء الكلمات الرطبة المشبعة بالغزل الناعم، بعسل الحب. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فإن شؤون تصفية الحسابات لا تتحمّل مسؤوليتها بتاتاً. وكانت تذكّر نفسها، كلّما سألها وجدانها عن الحقيقة، بتلك اللحظة التي أنكرت فيها أمام المحقّق ذي السترة البيضاء صحة اتهام المدير.

لكنها حين رأته أدركت أنها كانت طوال تلك المدة تهرب من الحقيقة إلى العتمة. فجأة انفجر الوجدان ولطّخ حياتها كلّها. لقد كانت هي السبب، وما فعله المدير هو مجرّد لعبة السفلة.

حيرتها بعد ذلك باتت بلا حيل، فلا تستطيع أن تعيد الكتابين إلى بيت أختها، ولا تستطيع أن تردّ على رسالة سالم. صار سالم بسحنته الثلجية الباهتة رفيق أحلامها، وليس بمقدورها أن تتوقف عن القراءة. صارت

القراءة، وإعادة القراءة، تمسح جرح الضمير المزعزع. وتهمس لنفسها، أو تسأل الكتاب، وهي تكاد تتحطّم، أين يمكن أن تجد عدالة أخرى تمنحها لسالم محمود ولنفسها؟

نادمة كيف ضاعت زهرة العمر في سجن العمر.

18

مكتبة
t.me/soramnqraa

رأيت نسخة البؤساء التي اشتريناها في بيته بالفعل، ولمت نفسي لأنه لم يخطر ببالي من قبل قطّ، فقد قرأ الرواية المؤلّفة من خمسة أجزاء في خمسة أشهر. كان يشبه جان فالجان من ناحية الهيئة إلى حدٍّ بعيد، وقد تدرّب على حمل الحديد في أحد نوادي بيروت في الخمسينيات حين كان يذهب للعمل هناك، وأظن أنه كان يفكّر في امتهان المصارعة، غير أن مقتل سميّه المصارع المعروف مسعود شمال هناك، جعله يضع مشروع تلك المهنة في سلّة القمامة. وبفضل قوّته الجسدية لم يستطع البقاء هناك طويلاً. إذ كان يصطدم دائماً مع أصحاب الأعمال الذين كانوا يريدون منه أن يخاطبهم يا معلّم، بينما كان يناديهم بأسمائهم، أو بألقابهم.

وحين عاد إلى السماقيات، كان فقيراً للغاية، وليس لديه أيّ عمل سوى زراعة الأرض. يرتضي الناس هنا بما قُسم لهم من السماء، لأن القسمة تبدو لهم شبه عادلة، فالأرض لا تعطي أحداً أكثر من الآخر حين ينتظر الجميع، وهم يعتمدون على ما تجود به في أيام الشتاء. وهذا ما اعتمد عليه مسعود هنا. لكن شتاء الفلّاحين الطويل مضجر. فحين ينتهون من أعمال الزراعة، لا يبقى لديهم ما يفعلونه غير تلك السهرات المتبادلة حول مدافئ الجلّة والحطب، أو البقاء في البيت للنعاس والنوم المبكر.

المرجّح عندي أن فؤاد أبو علم هو الذي أخذه إلى المكتبة، وهو الذي أغراه بقراءة الرواية، دون أن يعلم شيئاً عن محتواها، فبمجرد رؤية العنوان العريض الصاعق الذي يتصدّر الغلاف: «البؤساء»، كان كافياً لفؤاد كي يرشّح الرواية للقراءة. «لا شك أنها تشبهنا» قال لمسعود. دون أن يعلم أيضاً أن المسارَين سوف يفترقان في مكانٍ ما من عمر القراءة.

لا أعرف كيف استنتج أنه يشبه جان فالجان، الأرجح أنه أمضى ساعات طويلة يقارن بين شخصه، الذي يظهر في المرآة الدمشقية الكبيرة التي ورثها عن أبيه، وصفات البطل الفرنسي كما يظهر في وصف هيغو له. وأول تلك الصفات هي يُتمه، فقد ماتت أمه وهو صغير في سن المراهقة، بينما كانت أخته في العاشرة، واعتنى بهما عمّه إلى أن صار شابّاً وصار بوسعه العمل في الأرض التي ورثها. غير أن الصفات الجسدية كانت أقرب إلى قلبه، وكان سعيداً أنه توصّل إلى علم العضلات قبل أن يتعرّف إلى الرواية أو إلى بطلها العظيم فالجان. وما إن أتمّ الجزء الأول منها حتى غدا مولعاً بالرجل. وكان سعيداً لأنه استثمر تلك القوة في التدريب على القتال في النادي البيروتي حيث نمت عضلاته وصار جسده كلّه ممتلئاً بكتل متينة من اللحم الأسمر المشدود، قبل أن يتعرّف إلى الرواية.

وقد تبدّل تبدّلاً عاصفاً أثناء القراءة، إذ لم يعد يقهقه كما هي عادته حين يسمع نكتة ما من أحد الناس. صار يبتسم ابتسامة واهنة ضعيفة، في البداية، ثم صار يظلّ صامتاً ناظراً إلى صاحب النكتة بعينين حادتين حاسمتين بحيث يمكن أن يتوقّف عن السرد حالاً. لماذا؟ كان مصير جان فالجان والكفاح العنيد الذي خاضه من أجل حريته يشغل باله، وكان يرى أن ذلك البطل أعظم بكثير من بطل فؤاد أبو علم الذي كان يرفض ذكر اسمه. ليس لأن لا أحد من البشر يستطيع أن يتحمّل العذاب الذي تعرّض

له فالجان دون أن يسقط أو ينهار. بل لأنه كان يدافع عن الإنسانية المعذّبة كلّها، لا عن العمّال والفلّاحين وحدهم. كانت تلك هي النقيصة المخزية في نضال بافل أبو علم بنظره، ولم يستطع أن يتقبّل أيّ إيضاحات فكرية حول ذلك الفارق الذي اعتبره سقوطاً مخجلاً في الكفاح من أجل الحرية. لكنه لم يستطع أن يبعد عن خياله شخص فؤاد أبو علم حين اعتُقل، كانت عيناه تمتلئان بالدموع حين يقرأ عذابات السجن التي يعيشها جان فالجان، ويتخيّل سجن فؤاد. وكان قلبه مغتمّاً واهناً يراقب بقلق الأيام والأشهر وهي تمرّ بينما فؤاد يقبع في السجن. ولا بدّ أنه فكّر أكثر من مرّة أن يبحث عن طريقة لتهريب فؤاد من السجن، أو إخراجه بالقوة. ولكن تلك الأحلام لم تتعدَّ عتبة غرفته.

وبالنسبة له فإن الحياة أخذت مجرى آخر، فقد اهتمّ كثيراً بأن يزوّج أخته قبل أن يتزوّج، فوافق على خطيبها الأول دون تردّد، ولكن زمرّد أخته رفضته. وطلبت منه أن يستشيرها في المرة الثانية قبل أن يوافق، لكن المرة الثانية لم تأتِ بعد ذلك أبداً. كأن العرسان تبخّروا بسبب إبعاد ذلك الفتى الذي لم يعجبها. وفي مرات كثيرة كان مسعود يفكّر أن يذهب إليه ويقنعه بالعودة. لكنه لم يجرؤ قطّ. أما هو فقد ظلَّ عازباً أيضاً في انتظار أن يأتي عريس أخته.

الخلاف بينه وبين فارس بدأ حين رفض القيّم على المكتبة أن يعيره الكتاب كله دفعة واحدة بأجزائه الخمسة. «أبداً!» قال بالحزم الذي يعرفه مسعود عنه. ستأخذ الكتب واحداً بعد آخر، ولا يمكن إعارة الجزء الثاني قبل الأول، أو أي جزء آخر من الأجزاء المتبقية. وقد حدث هذا الشجار الإداري، كما سمّاه فارس، في السنة الأخيرة قبل دمار المكتبة. كان مسعود قد قرأ الرواية بالكامل. ولم يقل لي لماذا أراد أن يأخذها دفعة واحدة. هل

أراد أن يتباهى بها أمام امرأة ما؟ أم أمام شبان البلدة؟ أم أراد أن يعرضها أمام عيني فؤاد الذي كان قد أصبح حرّاً، ويمكن تحدّيه؟

لكن الكتاب صار ملكه في نهاية الأمر. وحين التقيت به كان قد أنجب سبعة أولاد، كما لو كان يقلّد شقيقه جان فالجان، بينما لم تتزوّج أخته. قالت لي: «يقطع الرجال ما أكثرهم!»، ولم أستطع أن أعرف ما إذا كانت قد احتارت في اختيار أحدهم، أم كانت تلعن تلك الكثرة التي لم يتقدّم أحد منها لطلب يدها. تلك كانت المرة الأولى التي أرى زمرّد فيها. كانت بشرتها بيضاء ملحية تُظهر حياة التخزين الطويلة التي عاشتها وحيدة في غرفتها. ولكنها لم تكن حزينة، ولا متصنّعة. كانت أكثر ميلاً للفكاهة، أو للسخرية من كل من حولها. وحين سألتها ما إن كانت تعرف شيئاً عن مقتل فارس، ضحكت وقالت لي إنه كان قد وعدها أن يخطبها، ولكنه كذب ومات، استعجل وهرب منها ومات. كان قد مضى عهد فارس وقصة موته منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة. وبدا لي أن مزاحها في هذا الأمر مثقل بحزن دفين قديم لم تجد له علاجاً طوال السنوات الماضية. قال مسعود إن فارس كان قريباً منها كثيراً، ولكنهما لم يعدّا أيّ مشروع في الحب أو الزواج. كان فارس ومسعود وفؤاد أبو علم قد استطاعوا أن يبنوا صداقتهم الخاصة بعيداً عن أجواء البلدة المبلبلة بالأحزاب العائلية والسياسية. فمُن الحزب القومي السوري الذي رحل تاركاً وراءه أعضاء مشرّدين، إلى الحزب الاشتراكي أيام عبد الناصر، إلى حزب البعث والحزب الشيوعي إلى أحزاب العائلات الصغيرة والكبيرة كانت السماقيات تتقسّم مثل دودة شريطية منتنة، ثرثرات وطنية بلا حدود، احتراب، تخوين، طفرات شللية يخوزق بعضها البعض الآخر. إلى آخر ما هنالك من التجمّعات الجنائزية التي كان فارس يسمّيها: «مخلّلات». ولكنهم تمكّنوا من التحرّك بعيداً

عنهم مبكرين. وفي تلك الأجواء نمت معرفة زمرد بفارس. كانت تكبره بخمس سنوات، وحين عاد إلى السماقيات بعد أن نال البكالوريا، وقعد ينتظر المنحة، كان قد أنشأ صداقة طيبة مع مسعود، ولهذا فقد شجّعه على القراءة بعد أن صار مسؤولاً عن المكتبة. وربما كان مسعود قد شعر بالجميل تجاه الرجل الذي منحه ذلك العالم الغريب الوافر المشحون بالأفكار من نثر فكتور هيجو الذي لا يكلّ ولا يتوقف مثل سيل هادر جبار جارف. ودعاه إلى بيته. وهناك نشأت تلك الصداقة بينه وبين زمرد.

لم تكن معلنة بالطبع، ولكنها كانت محروسة ومحمية بعضلات مسعود. وفي كل الأحوال فإنها لم تتعدَّ سور آل الجمال قطّ. فظلّت سرّية تماماً حتى اليوم، ولا أعرف ما إن كانا قد اتفقا على الزواج أم لا، فكلمات زمرد الساخرة لا يمكن أن يخرج منها المعنى أو الواقع بأي شكل. ولكن بقاءها عزبة بلا زواج بعد موت فارس قد يكون رهبنة عاشقة محبّة. وهناك احتمال يمكن أن يتسرّب من حديثهما، يرجّح أن يكون رفضها للزواج نوعاً من الانتقام التعس لتقاعس مسعود عن نجدة صديقه في محنته القاتلة.

لماذا لم يذهب لنجدته حقاً؟ لماذا لم يدافع عنه؟ ولماذا اكتفى بنصيحة الحكيم المتعالي وأدار ظهره لما يحدث؟ يقسم مسعود أنه لم يفكّر بأنهم يمكن أن يقتلوا فارس، لماذا يقتلونه إذا كان الهدف هو تنفيذ الأمر بإغلاق المكان فقط. هذه هي الفكرة التي ذكرها له لطفي حين طلب منه أن يكون حاضراً على التنفيذ.

لم يذكر أحد من قبل أن لطفي طلب مثل ذلك من مسعود، وأظن أنه يكذب هنا، والغريب أن يدافع عن لطفي الجمل لا عن نفسه. ولكنه يقول إن الموعد لم يحدد في أي وقت، وإن لطفي قال له في ما بعد إنهم تخلّوا عن الفكرة، وقال: «ماذا يعني وجود بعض الكتب؟ لا شيء!».

من المؤكّد أن تلك القامة المدكوكة باللحم والعظام الغليظة كانت في بال لطفي الجمل حين رأى أنه يرفض المشاركة في الفريق الذي أنشأه لغاية إزالة المكتبة من المكان. قال له مسعود: «يا بو كرم، لمّا بتتحرّك آلة الناس العمياء صعب نعرف مين ممكن تدوس!».

لا أعرف من أين أتى بتلك الفكرة التي تقول إن الحشود مجرمة. لم أجد ما يؤكّدها في البؤساء، ولكن مسعود كان قادراً على الدفاع عنها: هل تعرف من يستيقظ حين يجتمع عشرة أشخاص لبحث طرق التعاون بينهم؟ الشيطان. الوحش. جاء من قال لهم خلّصونا من هذه الزبالة. وما هي الزبالة؟ الكتب بالطبع. ولكن فارس لم يقبل، أنا لم أقبل أيضاً. صحيح أني لا أقرأ، ولا أحب القراءة أيضاً، ولكني أحب الكتب. لم أستطع أن أتصوّر أنها يمكن أن تداس بالأرجل أو تحرق. أنا حذّرته قبل يوم واحد. وقلت له إن الجماعة يريدون التخلّص من الكتب، فقال: «على جثّتي!». هل تصدّق؟ لم يختر من هذه اللغة التي تضم آلاف الكلمات إلا هذه العبارة. وأنت تعلم أنها عبارة مجانية يقولها الضعفاء والمغلوبون الذين يعرفون أنهم مقبلون على الهزيمة، كي يحاولوا زعزعة مواقف خصومهم. لكن فارس كان يقولها وهو يتخيّل أنهم سيقتلونه. هذا يقيني الكلّي يا سيد توفيق. كان يعرف أنهم سوف يأتون، ويعرف أنهم سيحرقون المكتبة، وأنا كنت أعرف. وكان يستطيع أن يغادر المكان، ولكنّه اختار أن يواجههم. قال: «بعيدة عنهم». هل سمعت بمن يذهب إلى القدر بقدميه؟ قلت له إن بإمكاننا أن نرحّل الكتب إلى أمكنة أخرى مجهولة، ولكنّه قال: «فات الأوان».

في الحقيقة كان قد فات الأوان فقد وضعوا حرّاساً يراقبون المداخل والمخارج التي تأتي أو تذهب من الساحة وإليها. وحدّدوا ساعة المداهمة،

وكان فارس يدرك هذا. لا أعرف كيف ولكنه كان ينظر إليّ ويبتسم بينما كنت أحذّره أو أقترح عليه فكرة ترحيل الكتب. أذكر وجهه كما لو كان أمامي، كما لو كان يجلس على هذا الكرسي. كان شاحباً، وقد غارت عيناه إلى الداخل، فخيّم ظلٌّ من السواد على خدّيه، وكانت يده اليمنى ترتعش.

لم يستطع مسعود الجمال إقناع فارس بمغادرة المكتبة، والحقيقة هي أن الرفض ظلَّ غامضاً بالنسبة لكلّ من علم بنيّة الجماعة اقتحام المكتبة. ويقول إن فارس لم يلمّح مرة واحدة إلى احتمال ألّا يكون هو الضحية. بينما ظلَّ مسعود يردّد بينه وبين نفسه إن ذلك مستحيل بالطبع، فهم قادرون على تنفيذ المهمة دون الحاجة إلى سفك الدماء. وحين قال فارس: «سنرى!»، كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي حملت بعض الأمل بأن الرجل يمكن أن يفكّر بحلٍّ ما.

وطوال أكثر من عشرة أيام ظلَّ مسعود وفؤاد أبو علم يسهران في المكتبة، مع فارس، إلى وقت متأخر من الليل، وفي آخر ليلة لهما هناك، سقى فارس كل الورود المزروعة في أصص الشرفة، وفي الحوض الحجري الذي صنعه بنفسه، ثم أعدّ كأساً من الشاي، وقال إنها الشاي الأخيرة.

وحين غادرا، طلب فارس من فؤاد أن يتأخّر قليلاً. لا يعرف مسعود ما الأمر الذي تحدّثا بشأنه، ولكنه لم ينطق بكلمة في الطريق، إلى أن صارا قريبين من بيت مسعود، قدّم فؤاد صرّة ملفوفة بمنشفة تفوح منها رائحة الصابون إلى مسعود: «هذه لك!». كانت تلك هي «البؤساء».

لكنهما أطمأنا بعد ذلك إلى أن فكرة لطفي قد أُلغيت، فتوقّفا عن السهر في المكتبة، وقال فارس إنه سيعود إلى البيت مساء كل يوم كما كان يفعل من قبل، وهذا ما زاد في يقينهما إلى أن المسألة باتت خارج القوة. لكن

فارس لم ينفّذ الجزء الذي وعد به، وظلّ يسهر في المكان بلا توقف. قال مسعود إنه حين سمع ذلك الصراخ القادم من جهات الساحة، قال لزوجته: «عملوها أولاد الكلاب!»، وحين سمع نحيب زمرّد، عرف أنهم قتلوا فارس.

19

لم يستطع أن ينام تلك الليلة، ربما أغفى مرة أو مرتين، أغفى كما لو كان يحلم أنه أغفى. كانت تمر في كل لحظة أمام عينيه سيرة حياة ما، لا يعرف ما إن كانت سيرة حياته أم سيرة حياة أولئك الذين قرأ عنهم وعرفهم في مسيرته القصيرة الحافلة بين هذه الكتب التي تصطفّ هنا على الرفوف المحيطة به. يشعر أنه يعرفهم جميعاً، وأنهم يراقبونه من هناك، ويتساءلون ماذا سيفعل تجاه تلك الأصوات الغريبة التي تشبه أصوات ذئاب في الجوار. لكنه كان قد حسم أمره منذ زمن، وهو اليوم يقدّم مرافعته أمام كل هذه الجموع من البشر الذين جاورهم وكان معهم منذ سنوات: إنها مسألة أخلاقية يا أصدقائي ومعلّمي، قضية شرف يا شباب، لحظة فارقة في الحياة كلّها، أمرٌ متعلّق بالرأس نفسه، إما أن تبقيه مرفوعاً، أو تنكسه إلى الأبد. والفرق هو مسافة بسيطة تصل بين الذقن والعنق، بضعة سنتيمترات هي التي تصنع الذل أو الكرامة.

شعر بالعطش، واكتشف أن الإبريق الفخاري الصغير فارغ، فتسلّل على مهل إلى باحة الدار، وملأ الطاسة الكبيرة من الخابية. كان للماء طعمٌ آخر، طعم ممتلئ بالحياة والسعادة. هكذا، يمكن استخلاص المعاني الكبيرة من الأشياء العابرة. أترون؟! مثل هذه الأسباب تجعلني أبقى هنا.

ومع ذلك فإن هذا المساء لا يشبه المساء. راقب الساحة، والطرق التي توصل إليها، ولم يرَ أحداً. مساء غريب، فارغ، تافه، خارج من بديل آخر لحياة السماقيات. أين الرعاة؟ أين أصحاب المواشي الذين يأتون لأخذ نعاجهم أو ماعزهم؟ أين الفلّاحون؟ أين النساء اللواتي يذهبن لملء جرار الماء؟ أين الحياة اليومية التي كانت تتنفّس في الخارج حول هذه الحياة الأخرى التي تهمس هنا في الداخل؟

وفي تلك اللحظات شعر أن الصمت في هذا العالم الذي يعيش فيه خطر. الصمت الخامل. الصمت الذي يخبئ وراء ظهره فأساً أو فرداً أو قنبلة. ترى هل يتواطأ الرعاة والفلّاحون ونساء الماء مع أولئك الذين يختبئون في الزوايا أو خلف حيطان البيوت؟!

كانت الحركة قد تلاشت تماماً. لا أحد في الجوار. لا أحد ولا شيء غير ضوء المصابيح القروية الضئيلة المنهكة. حتى القمر نفسه كان سيتأخر. شعر أنه وحيد أكثر مما كان طوال عمره، وأنه حزين أكثر من ذلك، وقد عجز بالأمس عن إقناع زمرد أن بوسعه إذا ما عمل في المنحة أن يبعث لها كي تلحق به ويتزوّجا. كان يرى دموعها فقط، بينما كانت تسخر منه وتقول: «غير ترجع إفرنجي ونسيان العربي». ثم أضافت تلك العبارة التعيسة: «إذا رجعت!».

لا دواء لديه للخيبة، أو للأمل، غير الوعود التي يخشى هو نفسه أن تكون وعوداً خلّبية. لكنها لم تذكر المكتبة، لم تقل أيّ كلمة عن وجوده المهدّد الذي ظلّت تحذّر منه في الأسابيع الماضية. هكذا صمتت وتجاهلت الأمر، حتى إنه كاد، وهو الذي ما عاد يريد أن يناقش هذا الموضوع مع أحد، أن يسألها لماذا لم تطلب منه مغادرة مكانه؟ وحدها زمرد هي من يمنح الشعور بالطمأنينة والأمان، فإذا كانت لم تذكر ذلك

فلأنّ قلبها يدلّها. هذه هي الإشارة التي يهتدي بها طوال الأشهر الماضية، أي من تلك اللحظة التي تعرّف فيها إليها. كانت تستطيع أن تقول الأشياء قبل الأشياء. وفي كل مرة يحدث أمرٌ ما يشبه ما تقوله زمرد.

وفي تلك الليلة قرّر أن يذهب للسهر في بيت صديقه مسعود، سيرى ماذا يمكن أن تقول زمرد.. هل سيأتون ليلاً؟ أراد أن يسألها ويسمع منها ما يقوله قلبها.

كان في الحركة الأخيرة التي قام بها فارس الكثير من الارتباك والطيش، ولكن الحقيقة الأخرى الموازية هي أن فيها الكثير من الشوق أيضاً، وقد وضع ذريعة القلب الدليل كي يحاول الوصول إلى مطالب القلب العاشق. ففي الأسابيع الأخيرة لم يكن بوسعه زيارة بيت الجمال، كما لم يكن بإمكان زمرد أن تأتي لزيارته، صار المكان مكشوفاً بسبب الرقابة الصارمة التي وضعها لطفي الجمل على الحيّ كله. ولم يكن بوسع الفتاة التي كلّما طال بها زمن العزوبية، باتت تحت الأعين الصيّادة.

ولكن فارس ما كان يعبأ بشيء تلك الساعات، ولأول مرة منذ أكثر من شهر تقريباً يخرج من المكتبة علناً. تعمّد أن يسقي شتلات الحبق على ضوء البيل، وأن يقفل باب الغرفة بطقّاته الثلاث التي تصدر صوت الإغلاق المباشر، وأن يبدأ الغناء بالصفير، ربما غنى لفريد أو لكارم محمود أو تنحنح، وصفّى بلعومه، ومشى.

وعلى الرغم من أنه كان ذاهباً إلى زمرد كي تقدّم له نبوءة القلب، ومن المؤكّد أنه كان يرجو أن تكون بشارة، أو أملاً ما، تأتي به من غيبٍ ما يدلّها إليه قلبها، فإن زمرد هي التي قالت لمسعود حين عرفت أنه مات: «إجا يومه!»، فكلّ ما كان قد جرى بدا لها صناعة أقدار حاكمة لا يمكن تغييرها، إذ إن كل تلك الحركات النزقة التي قام بها قبل أن يخرج من المكتبة، ليزور

آل الجمال، بدت للحارس الذي وضعه لطفي قريباً من المكتبة، على سطوح آل شمال، بلا معنى، نوعاً من الهبل، أو شكلاً من أشكال الضجر الذي سببه قعوده الطويل في المكتبة. سخر في نفسه من دبيب فارس، ومن تطاولاته على الوقت والمكان. ولكنه لم يفعل شيئاً، لم يتحرّك من مكانه، ولم يبلّغ أي شخص من المجموعة الأخرى التي كانت تراقب المدخل الشرقي والشمالي، لا عن حركات التفاهة التي قام بها، ولا عن خروجه المتبجّح من المكتبة. وهو التصرّف الذي سوف تقول عنه زمرد في ما بعد، أي بعد مقتل فارس، إنه سلوك القدر. فلم يلهم الرجل عقله، أو ضرورات عمله في الحراسة، أن يقوم بأي تصرّف.

وقد أكّد هذا لقمان في ما بعد، وقال إنهم كانوا يستطيعون اقتحام المكتبة، وفعل أي شيء في الساعتين اللتين غاب فيهما فارس خارج المكتبة.

ثمة تفصيل صغير ساخر يمكن أن يمدّ لنا لسانه أيضاً، فالحارس الذي أُرغم أن يبقى على السطوح، يراقب المكتبة، آثر أيضاً ألّا يُظهر نفسه، وألّا يكون المبلّغ عن المغادرة. تلك أيضاً واحدة من ألاعيب القدر، فأيّ رجل يمكن أن يزعم أو يدّعي أنه كان شاهداً على حدث ما من سطوح بيته أو أي سطح آخر، يوصم من قبل أهالي البلدة بأنه: «كلب السطوح».

لم يحصل فارس إلا على القليل من تكهّنات القلب، كانت زمرد نفسها أكثر قلقاً من أن تستطيع اكتشاف دلائل القلب المبهجة، أو إشاراته المطمْئنة، وربما بدا لفارس صمتها، وامتناعها عن الكلام، نوعاً من الاستهتار أو التجاهل لما أراد أن تقوله له.

ولا يعرف مسعود شيئاً عن مشاعر فارس وزمرد، إذ لم يصرّحا بحبهما، وربما كانا قادرين على التخفّي وراء غسيل قمصانه أو أحد البنطلونين

اللذين يملكهما، وكيّها بمكواة الفحم التي كانت تعدّها له، ونظراً للفارق في العمر بينهما، فقد كان يظن أن ما تفعله شقيقته، أو ما تظهره من العاطفة تجاه فارس، لا يختلف عن مشاعر أمّ، أو أخت كبيرة كما كانت تحسّ نحوه، ولم يقدّم له كل منهما، أي دليل أو مؤشّر، أو تلميح، يدلّ على أن العلاقة بينهما تعدّت حقل الأمهات إلى بستان الحب. ولهذا لم تكن تلك اللحظات التي يجدها تدافع فيها عن فارس مثيرة للشبهات، فإذا قال إنه لا يفهم لماذا يتمسّك بذلك المكان، قالت: «لأنو صاحب شرف»، فيقول: «بعرف». ولكنه لم يكن يقصد النيل من مبادئه، بل دعوته للنجاة، وإذا قال إنه لا يأكل جيداً، بدأت تبكي، وإذا قال إنه يشتهي المجدّرة طبخت حالاً، وأرسلت له العشاء، وإذا ذكر أنه شرب كثيراً من اللبن، أرسلت له وعاء مليئاً باللبن.

فحين لم يسمع من زمرد أي شيء، بقي يثرثر دون طائل. قال مسعود إنه لا يحفظ كلمة واحدة من الكلام الذي حكاه فارس تلك الليلة، فلقد كان يحكي لنفسه، أو يحكي عن كل شيء. قال إن رائحة الصابون طيبة.

وعلى الرغم من أنه هو شخصياً لم يرَ أحداً ممن يحيطون بالمكان من حرّاس الجمل، فإن تحذيرات مسعود كانت كافية لإثارة قلقه، وبهذا فإن طلب العون المعنوي، أو الروحي في الحقيقة، من زمرد كان أمراً طبيعياً، بينما كان تردّدها يفجّر القلق والخوف في نفسه.

لكن لماذا لم تقدّم له تلك الزوّادة البسيطة من الطمأنينة؟

الحقيقة هي أنها أجابته، وإذا كانت لم تذكر ذلك، في تلك الأيام، فإن الزمن الذي أطفأ حزنها قد جعلها تعترف أنها رفضت أن تطمئنه (ولم يكن في الموقف ما يبعث على الطمأنينة قطّ) كي تعمل على إثارة يقظته. أرادت أن تخيفه، في البداية، وحين لم ترَ أي علامة تدلّ على خوفه، أو جبنه،

إذ كان خائفاً بالفعل، ولكنه لم يكن جباناً في أي يوم، استخدمت حبها. «يا ربّ!» قالت لنفسها حين وضعت ذلك الثقل في مواجهة ذلك العناد ويباس الرأس الذي وجدته في شخصيته. هذا ما تردّده الآن عن فارس، لم يكن في العالم شيء ما، كتاب، أو مبدأ، أو فكرة، تساوي قطرة من دمه. وهكذا استخدمت أكثر العبارات ابتذالاً، لكثرة الاستخدام، في مواجهة موقفه المتصلّب: «إذا كنت بتحبّني، لا ترجع!»...

الحقيقة هي أن ذلك الشرط الذي تضمّن كثيراً من الضراعة والتوسّل، ظلَّ يغضبها طوال السنوات الماضية. لقد ندمت لأنها قامرت بتلك العلاقة الغالية. ولطالما تمنّت في ما بعد لو لم تقل له تلك الجملة القاتلة، لا لأنه عاد إلى هناك، بل لأنها سمعته يقول: «رح أرجع لأني بحبّك!». فمن جهة بدا لها أن تلك الجملة قد وضعته أمام إحراج أو امتحان الشرف والكرامة الإنسانية والحق والعدالة وتكريم الحب والحبيبة، ومن جهة ثانية وضعتها هي أمام حقيقة تقول إنها لم تكن أولوية في حياته.

صحيح، قالت لي، لأنها لا تعرف كيف كانت الحياة سوف تمضي به، وبها، بعد ذلك، لو قبل ضراعتها، واختار ألّا يعود. ما الذي كان سيقوله عن نفسه، وعنها لو ظلَّ. يا ربّ! ظلّت تكرّر هذا النداء اليومي بعد مضيّ كلّ تلك السنوات.

أما فارس فلا أحد يعرف بمَ كان يفكّر، أو بمَ كان يشعر. هل فكّر بعدم العودة فعلاً؟ هل كان مجيئه إلى بيت مسعود لرؤية زمرد وداعاً أم تأكيداً على الصفات التي يعتزّ بها؟ وحين عاد هل كان حزيناً أم آسفاً أم ماذا؟

عاد فارس إلى الغرفة الخضراء. كان القمر قد بان منذ أكثر من ساعة، وكان حارس السطوح نائماً فلم يرَه. أشعل البابور وصنع كأس نعناع، ثم جلس بين كتبه يقرأ.

لا يعرف أحد ماذا قرأ في تلك الليلة، ولم يخرج في الصباح من العلّيّة كعادته بل ظلَّ هناك في الداخل، ولا توجد في الألبوم إلا صورة واحدة له وهو جالس على كرسي القش الذي بلا مسند، يقرأ. وعند الضحى، ربما، اندفعت المجموعة الأولى من رجال المداهمة.

تتخيّل زمرّد أنه كان واقفاً مستعدّاً تماماً هناك: بريئاً، قويّاً، محبّاً، طيّباً، ورافعاً رأسه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ممدوح عزّام:

روائي سوري، من مواليد عام 1950. تُرجمت بعض رواياته إلى اللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية. كما حُوّلت روايته «معراج الموت» إلى فيلم سينمائي بعنوان «اللجاة»، من إخراج رياض شيّا، وإنتاج المؤسسة العامة للسينما 1993.

أصدر الكتب التالية:

- نحو الماء، مجموعة قصصية، 1985.
- معراج الموت، رواية، 1987.
- قصر المطر، رواية، 1998.
- جهات الجنوب، رواية، 2000.
- الشراع، مجموعة قصصية، 2000.
- أرض الكلام، رواية، 2005.
- نساء الخيال، رواية، 2011.
- أرواح صخرات العسل، رواية، 2018.
- لا تخبر الحصان!، رواية، 2019.
- حبر الغراب، رواية، 2021.

telegram @soramnqraa

منهم من يعتبر أن الاستماع لي بينما أعيد التأكيد على حقيقة بناء المكتبة إنما هو نوع من الخيال الشفوي لرجل فشل في أن يكتب رواية. ومنهم من كان يبتسم لي كي يقول لنفسه: ولكن أين الدليل؟ ففي كل الأحوال لم أستطع طوال السنوات الماضية أن أعثر على كتاب واحد من كتب تلك المكتبة، وبعضهم الآخر يردّد أنني مجرد شخص يريد أن يبني حكاية، بينما يرى الواقع يتقدّم ضد الحكايات.

وهكذا فقد صارت بالفعل مكتبة خيالية لم يكن لها وجودٌ قطّ من قبل. غير أن العثور على كتاب الشوقيات كاملاً، كان أمراً يفوق الخيال بالنسبة لي، فبعد أن فقدت الأمل في إثبات وجود تلك المكتبة، يظهر من العدم تقريباً واحدٌ من كتبها، على رصيف تنتشر فوقه الشتائم والصرخات وقشور البرتقال والموز وصيحات الباعة، بعيداً عن مكان وجودها واختفائها أكثر من عشرين كيلومتراً!

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
ISBN 978-9933-641-30-6
9 789933 641306 >